AL-HADAF
الهدف
كل الحقيقة للجماهير
فلسطينية عربية ديمقراطية بهوية يسارية

الهدف - فلسطين - العدد 73 (1547) - يوليو / تموز 2025

الذكرى الثالثة والخمسون على استشهاد الرفيق الأديب وعضو المكتب السياسي للجبهة الشعبية

غسان كنفاني

الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين
Popular Front for the Liberation of Palestine

جورج عبدالله

الافتتاحية

الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين
P. F. L. P.

«هولوكوست» العصر!!
محرقة القتل والتجويع والإبادة

مشاهد القتل في غزة لا توصف، سبق تاريخي لأشكال معاصرة للجريمة المنظمة، ونوع متطور للسادية الجهنمية، يتمتع بفنون قتل الضحايا، الصهاينة العنصريون والداعمون والمساندون الغربيون، وكذلك الصامتون المتخاذلون والعاجزون والمتواطئون من الحكام والحكومات والأنظمة والرؤساء والملوك والأمراء، وتقام الاجتماعات والمؤتمرات والولائم، ودعوات الخزي والنفاق، وتلتئم القمم، وتعلو الصرخات والنداءات بالشجب والعتب الخجول.

غزّة تباد، تنزف، تئن في مفارم الجزّار الصهيوني.. غزة تستغيث وتستجير، ولا أحد من مجير أو مغيث..

غزّة صمدت وقاتلت رغم فتك آلات القتل والدمار، غزّة تقاتل بعينيها رغم مكابس الموت والقهر «ومتاهات» النزوح والتيه، لم يبق أمام النازي الصهيوني العنصري إلّا طريقة واحدة وهي الموت الجماعي البطيء عطشاً وتجويعاً، المئات يموتون جوعاً، خدج، رضع، أطفال، ونساء، وشباب وصبايا، ومرضى، ومسنين، والمئات يموتون وهم في طريق سعيهم المحفوف بالمخاطر وراء تأمين كسرة خبز أو «كمشة» طحين من مراكز المساعدات الصهيو - أمريكية «مصائد الموت».

يا لبشاعة الجريمة!! يعتصرنا الألم والقهر، وتفتك في عقولنا وقلوبنا مشاهد الموت اليومي وعذابات الضحايا الأبرياء قبل أن يطحنهم الموت... ونحترق ألف مرة، ولا نعرف أذلك من حجم المأساة وهول الجريمة؟ أم هو من الحرج والخجل والعجز؟ أم من الحالة الفاجرة الجبانة التي وصلت إليها الأنظمة والمجتمع الدولي؟

يسعى العدو الصهيوني ومعه الإمبريالي الأمريكي والغربي إلى سهمدة الأرض وما عليها في غزّة، وعصر وتهجير من يتبقى من الأهل، وتحويلها إلى «ريفيرا» منتجعاً سياحياً ومركزاً تجارياً كبداية لرسم خارطة جديدة للشرق الأوسط تستجيب لتأبيد سيطرتهم وهيمنتهم وحفظ وجودهم في المنطقة.

وفي الضفة الغربية يريد الضم والسيطرة التامة، وها هو الكنيست الصهيوني يقرّر بأغلبية الأصوات بضمها وفرض السيادة عليها، عدا عن مخططات التدمير والتهجير. وأما القدس، يستمر مشروعهم بالتهويد وتغيير كل حقائق التاريخ والجغرافيا عملاً بقانون «القومية اليهودية» العنصري.

وفي سورية يسعى العدو للتقسيم والسيطرة على الجنوب السوري ومصادر المياه في جبل الشيخ، وإنشاء منطقة أمنية عازلة تمهيداً لإنشاء ممر داوود الممتد من جنوب سورية ولبنان باتجاه الشرق، وثم الشمال، وصولاً إلى الحدود العراقية التركية.

كذلك يحاول العدو الإجهاز على الجمهورية الإسلامية الإيرانية، وتفكيك دولتها، وسحق النظام هناك تحت ذريعة الملف النووي الإيراني.

يريد الصهاينة السيطرة التامة على الجنوب اللبناني وصولاً إلى نهر الليطاني، وإخضاع لبنان والقضاء على المقاومة اللبنانية.

أما ما يحاك لدول إقليمية وازنة في المنطقة مثل تركيا والسعودية ومصر وغيرها يبقى مؤجلاً للمرحلة التالية.

في مواجهة هذه المخططات الجهنمية لن تستسلم المقاومة، وعلى جميع الأطراف والدول المستهدفة التنبه للأخطار والتحديات، خاصة وإن الاتفاقات الموقعة مع الكيان الصهيوني والقرارات الدولية ذات الصلة بكل الجبهات والحدود باتت متقادمة، وتجاوزها التاريخ، وتعدّتها الأحداث حسب زعم العدو.

نحن الفلسطينيين، لا خيار أمامنا إلا الوحدة والمواجهة، ومقاومة العدو واستنزافه ما استطعنا. تتواصل المفاوضات لوقف العدوان وحرب الإبادة، وتسعى فصائل المقاومة بأعلى درجات المرونة للتوصل إلى اتفاق، كمحاولة لتخفيف عذابات ومعاناة شعبنا على طريق إنهاء الحرب والعدوان.

وتعمل المقاومة في لبنان على إعادة بناء قدراتها بعزيمة وثبات استعداداً لمواجهة العدوان الصهيوني المستمر المتمثل بالسيطرة والتوسع في الجنوب وكل لبنان.

أما اليمن فقراره ثابت وأصيل ومقاومته مستمرة ما دام العدوان على غزّة، ويتجه الموقف نحو المزيد من التصعيد لإغلاق مضيق «باب المندب» بشكل تام، رغم ما يتعرض له اليمن من عدوان وقصف مستمر.

إن فشل العدو بتحقيق أهدافه من العدوان على إيران، وحجم الضربات النوعية التي تعرض لها في مفاصل ومراكز حيوية وإستراتيجية، يدل على أن هناك إمكانية لهزيمته وإفشال مخططاته.

أما سورية بقيادتها الجديدة، رغم المرونة والانفتاح السياسي غرباً وشرقاً سعياً لرفع العقوبات والنهوض بإعادة بناء الدولة والاستعداد للنهوض والشروع بإعادة الإعمار، وحرصها على وحدة شعبها وأراضيها وحماية سيادتها، لن تقبل بأي شكل من الأشكال باستمرار العدوان والتوسع الصهيوني في أراضيها، وستكون في موقع المواجهة ولو بعد حين.

إن الصبر والصمود في غزّة الجريحة النازفة، وثبات المقاومة، وتنبه شعبنا للأخطار والتحديات سيحدد المصير والمستقبل للمنطقة ويُفشل المخطط الصهيو- أمريكي.

كل الحقيقة للجماهير

الهدف AL-HADAF

كل الحقيقة للجماهير

فلسطينية عربية ديمقراطية بهوية يسارية

العدد رقم (73) - (1547) - تموز (يوليو) 2025

أسسها عام 1969

الأديب الشهيد

غسان كنفاني

رئيس التحرير

كايد الغول

مدير التحرير

محمد أبو شريفة

المدير الفني

منير الرفاعي

تصميم الغلاف

جيفارا عبد القادر

المدقق اللغوي

أيمن الحسن

متابعة إدارية

حسن شتيوي

المقالات المنشورة

لا تتطابق بالضرورة

مع وجهة نظر الهدف

يسمح بالنقل وإعادة النشر

بشرط الإشارة إلى المصدر

عناوين مجلة وبوابة الهدف:

غزة بجوار مشفى الشفاء ـ

نهاية شارع الثورة

الهاتف: 082836472

البريد الإلكتروني:

hadafmagazinenew@gmail.com

تصدر عن

دائرة الإعلام المركزي

الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين

الافتتاحية

- «هولوكوست» العصر!! محرقة القتل والتجويع والإبادة — 1

حوار الهدف

- مع الرفيق فتحي الفضل عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوداني — حوار: محمد أبو شريفة — 3

شؤون فلسطينية

- الجبهة الشعبية تنعي الفنان الكبير زياد الرحباني — 8
- صباح الخير رفيق جورج — محمد العبد الله — 12
- شيخوخة مبكرة لأطفال غزة — إلهام الحكيم — 17
- حين يُصبح البقاء أداة استعمارية: المجاعة في غزة كإستراتيجية — لمى الشطلي — 19
- لماذا لا يضع الفلسطيني بندقيته — بيسان عدوان — 21
- صرخة من خلف القضبان: الأسرى الفلسطينيون بين مطرقة الاحتلال وسندان الصمت الدولي — سعيد سلّام — 23

شؤون عربية

- لماذا تُنهك مصر وتنصب لها الفخاخ؟ — رضي الموسوي — 26
- في الذكرى (75) لثورة (23) يوليو في مصر النظام العربي يتخلى عن قطاع غزة والقضية الفلسطينية — عليان عليان — 28
- المأزق الخليجي بين السيادة المغتصبة والرؤية المتهاوية — مسعود أحمد — 30
- سلاح المخيمات الفلسطينية في لبنان: هوية نضالية وأجندات سياسية — حمزة البشتاوي — 31

شؤون دولية

- تداعيات العدوان الصهيوأمريكي على إيران والإقليم !.. — محمد صوان — 33
- هندسة الشرق الأوسط الجديد تحت مطرقة التغيير — علي زيدان — 35
- مشروع نتنياهو/ترامب... سايكس/ بيكو جديد — أحمد عويدات — 37
- «ألبانيز» والعقوبات الأميركية — منى عباس فضل — 39

شؤون العدو

- ملامح اهتزاز العلاقة الأمريكية – الإسرائيلية وكيفية استغلالها — د.محمد عياش — 41
- الشرخ الحريدي-العلماني: هل تبقى إسرائيل دولة واحدة؟ — نبال عمر — 43
- من العصبية إلى الجيوبوليتيك: كيف تدير «إسرائيل» خطوط النار في جنوب سوريا؟ — عزيز موسى: — 44
- الضفة الفلسطينية ومعادلة الصراع مع العدو الصهيوني — بسّام عليّان — 46

- **دراسات الهدف:** القاموس اللغوي للإبادة الجماعية تحليل اجتماعي- سياسي للخطاب الغربي — **أنمار رفيدي ووسام رفيدي** — 47
- **ترجمات الهدف:** ستة أشهر من الفوضى: إخفاقات ترامب بلا حصر — **ترجمة: نور نوارة** — 54
- **تقرير الهدف:** غزة في قبضة التجويع: جوع قاتل يهدّد حياة أكثر من مليوني روح بلا رحم — **أحمد زقوت** — 56

شؤون ثقافية

- **ملف العدد: (ملف خاص بالذكرى 53 لاستشهادغسان كنفاني)**
  - افتتاحية الملف: وفي الموت نجاة — أحمد علي هلال — 58
  - حوار العدد الثقافي: الناقد الفلسطيني د. محمد عبد القادر — حوار: أمينة عباس — 59
  - الأثر الأدبي والسياسي لغسان كنفاني على جيل الستينيات والسبعينيات في المغرب — أحمد طنيش — 64
  - حاتم علي وغسان كنفاني — بسام سفر — 65
  - غسان كنفاني: سردية المقاومة والهوية — د. ثائر يوسف عودة — 68
  - تطور الفكرة المقاومة في مجموعة العاشق — حاتم استانبولي — 70
  - غسان كنفاني ناقداً — غرز الدين جازي — 73
  - في ذكرى استشهاده الروائي الشهيد غسان كنفاني والسينما — موسى مراغة — 75
  - أدب الطفولة عند غسان كنفاني — وفاء حميد — 77
  - تحقيق الملف : غسان كنفاني: لماذا لا يزال خالدًا في الوجدان الفلسطيني والعربي؟ — وسيم السلطي — 78
  - كأس الروح: إلى غسان كنفاني — محمود علي السعيد — 79
  - أدب الشتات المقاوم — محمود أبو حامد — 80
- يوميات جائع — د. بشير أحمد أبو إصبع — 84
- صوت (الأنثى) في الأدب الفلسطيني مقاومة ناعمة وجبهة صُلبة (2) — تماضر سعيد عودة — 85
- الحداثة في فكر فرنسيس مراش — د. سامي الشّيخ محمّد — 86

حوار الهدف

الرفيق المناضل فتحي الفضل

أجرى الحوار:محمد أبو شريفة ـ مدير تحرير مجلة الهدف

يعيش السودان ويلات حرب كارثية بأيدي جنرالات الموت الذين وضعوا البلاد أمام تداعيات خطيرة ليس أقلها المجاعة وتفشي الأمراض الفتاكة والقتل والاعتقال والتعذيب بالإضافة إلى الصراع الدامي على الحكم والذي يشكو أساساً من الفراغ ويملؤه التناقضات الحادة بين أطراف غابة البنادق الذين يحاولون اللعب على التناقضات الإقليمية والدولية مستندين إلى التأييد العسكري والدبلوماسي في حربهم العبثية التي تهدد استقرار الوطن ومصير الشعب.

وفي ظل هذه الظروف الصعبة والخطيرة التي تعصف بالسودان الأبي استضافت مجلة الهدف عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوداني الرفيق المناضل فتحي الفضل للوقوف على حقيقة وتفاصيل مجريات الأحداث وكان لنا معه الحوار الآتي:

■ 1. بدأت تتشكل في السودان ملامح خريطة سياسية بعد الإطاحة بنظام عمر البشير في العام 2019 تعبر عن مصالح ورؤى مختلف القطاعات، هل كانت هذه الخريطة تحمل عوامل تناقضاتها التناحرية؟

منذ انقلاب نظامِ الإخوانِ المسلمين في يونيو/ حزيران 1989 مرّت المعارضة بفتراتٍ طويلةٍ منذ ذلك الوقت، وحينها توحَّدت قوى المعارضة داخل السجون، وأصدرت بيانها الأوّل في أكتوبر/ تشرين الأوّل 1989 مُعلنةً تكوين التجمّع الوطنيّ الديموقراطيّ الذي ضمّ جميع الأحزاب السياسيّة باستثناء تنظيم الجبهة الإسلاميّة، رغم وجود الترابي زعيم الإخوان في السجن.

تَغلَّب اتّجاهُ وحدة العمل المشترك والنضال العامّ ضدّ نظام الإخوان على التناقضات والتباينات السياسيّة، واستقبلت جماهيرُ شعبنا تلك الخطوة بتأييدٍ واضح، حيث شكّل التجمّع الوطني الأداةَ الموحَّدة لقوى المعارضة النقابيّة والمدنيّة والسياسيّة.

وكان من المتوقَّع أن يلعب التجمّع دوراً محوريّاً في توحيد قطاعات الشعب السوداني وجمعها حول الميثاق المُعلَن من داخل السجون. لكنّ انتقال قيادات التجمّع إلى خارج السودان وتواجدها في عواصم مثل القاهرة وأسمرا وواشنطن ولندن أدى إلى تدخل حكومات تلك البلدان في عمل المعارضة مما أدى إلى إضعاف حركة الجماهير بالداخل، والشيء الآخر انضمام حركة تحرير السودان بقيادة الراحل جون قرنق إلى صفوف المعارضة، وإعلان التجمّع المشاركة في الكفاح المسلّح لإسقاط النظام، أدّيا إلى ركود الحراك الداخلي وترقُّب تحرير البلاد من الخارج. زد إلى ذلك خروج أطرافٍ من حزب الأمة بقيادة الصادق المهدي ومبارك الفاضل من التجمّع ومشاركتهم في السلطة أضعف التجمع إلى حدٍّ ما.

وهذا يعني أنّ التحالفَ القوميَّ العريض الذي تكوَّن حمل في أحشائه كلَّ عوامل تناقضات واختلافات الأحزاب السياسيّة، ولم يستفد من التجارب السابقة في التحالفات. أي إنّه كرَّر بصورة مأساوية فشل التجارب السابقة. إنّ اعتمادَ أسلوب الكفاح المسلَّح من دون استعداد فصائل المعارضة للمشاركة الفعليّة فيه أدّى كذلك إلى تسييد حركة تحرير السودان.

بعد تراجع دور التجمع الوطني الديمقراطي وتحت ضغط حكومات بريطانيا ومصر وأريتريا، أدى ذلك إلى اتفاق نيفاشا 2005، بين النظام وحركة قرنق وعودة قيادات المعارضة إلى السودان ومشاركتها في برلمان السلطة. إلا أن شهر العسل لم يستمر طويلاً استناداً إلى التجربة السابقة أعلن الحزب

> **انتهت كل الحروب في السودان عبر المفاوضات، وهذه الحرب ليست استثناءً**

الشيوعي فشل النظام وحركة تحرير السودان من احترام الاتفاقية وأن السلطة هي بيد جماعة الإخوان. لذا رفع الحزب الشيوعي شعار إسقاط النظام عن طريق تعبئة الجماهير وتنظيمها.

■ 2. برأيكم هل يستطيع الحزب الشيوعي السوداني وبمشاركة القوى الحزبية والمدنية والأهلية من العبور بالسودان من حالة الثورة إلى حالة الدولة المستقرة؟

بالطبع، يمكن لحركة المقاومة الشعبيّة المستندة إلى القواعد الجماهيريّة، وبمشاركة القوى النقابيّة والأدوات المدنيّة التي أنتجتها عبقرية الجماهير مثل لجان المقاومة وكل تحالف هذه القوى المدنيّة في إطار الجبهة الجماهيريّة القاعديّة الوطنية من العبور بالسودان إلى الحرّية والسلام والعدالة وبناء السودان الجديد.

■ 3. هل ما زال هنالك أمل بأن تتجه التجربة الانتقالية بالسودان نحو الديمقراطية أم انها تعثرت وأصبحت بعيدة المنال؟

إن الانتصار المؤقت لتنظيم الحرية والتغيير في إبريل 2018، والإطاحة برأس النظام ورغم توفر المناخ لعملية تغيير للنظام إلا أنّ التدخّل الخارجي من دول الجوار ولا سيّما النظامَين المصريَّ والإثيوبيَّ وتقاعُس بل خيانة بعض قوى المعارضة من أحزاب اليمين أدَّى إلى التنازل عن المبادئ الأساسية المتفق عليها في ميثاق قوى الحرّية والتغيير، وقبلت أطراف داخل الحرية والتغيير بمشاركة عسكر الإخوان وجماعة ميليشيا الدعم السريع في الحكم، بل ليس ذلك فحسب بل سلمتهم حكم الفترة الأولى برئاسة الدولة والوزارات الأساسية (الدفاع والداخلية).

■ 4. هل نستطيع القول إن العسكر خطف حلم الثورة واستبعد المدنيين من المشهد السياسي وإدارة الصراع والانتقال إلى حكم مدني؟

التجربةُ السودانية وحكم العسكر 1969-1964، وحكم نظام نميري إلى 1985، أثبت فشل حكم العسكر والأنظمة الشمولية ليس في إدارة البلاد فحسب بل حتى الوصول إلى أي حد من النشاط السياسي الذي يمكن أن يفضي إلى نوع من الاستقرار أو تحقيق أدنى درجات الاستقرار. لقد خضع السودان لحكم العسكر لما يزيد عن خمسة وستّين عاماً من عمر استقلاله البالغ 55 عاماً، فإنّ شعبنا أسقط ثلاثة أنظمةٍ عسكريّة سابقة، وسيقدر على اقتلاع النظام الحالي مهما طال الزمن.

■ 5. أين سيقف السودان في المواجهة بين الجيش وقوات الدعم السريع بعد ثلاثة أعوام من الحرب الأهلية؟ برأيكم ما هو شكل الحكم المستقبلي وسبل تحقيق المصالحة الوطنية ومدى قدرة العسكر على إدارة إجماع سياسي يفضي الى استقرار مستدام؟

يمكننا القول إن العسكر بالتحالف مع جماعة الإخوان من جهة والدعم السريع

بالتحالف مع بعض القوى السياسية انتصروا في الفترة الأولى، ولكن وهج الثورة وجذوتها لا زالت موجودة وسط أبناء وبنات شعبنا.

غالبيةُ شعبنا تقف ضدّ الحرب، وبالتالي ضدّ سلطات الأمر الواقع، سواء في بورتسودان أم في نيروبي. والمهامُّ الأساسيّة هي وقف الحرب ويبدو أن المجتمع الدولي ممثلاً في الإدارة الأميركية وبالضغط على السعودية ومصر والإمارات قد بدأ في الاهتمام بالحرب العبثية وعبر بناء حركة جماهيرية قاعدية بالداخل يمكن المشاركة في الجهود الرامية إلى وقف الحرب وفتح المسارات لتقديم المساعدات الإنسانيّة. ورغم استمرار الحرب إلا أن البدايات قد شَهِدَت إعادة بناء لجان الطوارئ والتكايا ذاتَ الطابع القاعدي، وبروز النقاباتٍ مثل الأطبّاء والمعلّمين، واستمرارَ لجان المقاومة والتحالف الجذري، كل ذلك الجهد سيساعد في إيجاد الركن الجماهيري الأساس في الوصول إلى أسس الحكم المستقبلي وفرض مصالحة وطنية مبنية على آمال وتطلعات الجماهير القاعدية وممثليهم.

■ 6. في يوم (2025/3/28) أعلن الجيش السوداني أنه سيطر على العاصمة الخرطوم بعد أن شن هجوماً على قوات الدعم السريع، هل تمثل هذه الانتصارات بداية تحول إستراتيجي جذري ينذر بنهاية قوات الدعم السريع؟ أم أنها جولات قد تتغير ضمن ميزان القوى؟ وهل استعادة القصر الجمهوري والوزارات السيادية يمثل دلالة على عودة فعلية لهيبة الدولة؟

السودان بلدٌ واسع، ومساحتُه أكبر بكثير من مقدرات أيّ قوّةٍ عسكريّة، سواء كانت الجيش الحالي أو حلفاءه أو ميليشيا الدعم السريع. ولا يعدّ ما يُسمّى بانتصارات طرفَيْ الحرب سوى انسحاباتٍ من الطرف المسيطر؛ فقد احتلّت ميليشيا الدعم السريع العاصمة والجزيرة ووسط البلاد بلا معارك تُذكَر، ثمّ انسحبت منها فتقدّم الجيش. تجربة السودان كانت في حرب الجنوب أو دارفور، لم يكن هناك انتصار حاسم لطرف، فقد انتهت كل الحروب في السودان عبر المفاوضات، وهذه الحرب ليست استثناءً.

■ 7. ما هي أبرز التحديات التي تواجه السودان من أجل تحقيق الاستقرار والأمان؟ وما الذي يمكن استخلاصه من دروس الحرب؟

> **لقد دفع الشعبُ السودانيّ ثمناً باهظاً في النزوح الداخلي، الذي بلغ أكثر من عشرة ملايين نازح، وتجاوز عدد اللاجئين إلى دول الجوار ثلاثة ملايين، فيما فقد أكثرَ من ستّين ألفاً حياتهم نتيجةَ هذه الحرب الكارثيّة**

هناك مسألةٌ مهمّة يجب الالتفات إليها وهي موقع السودان الإستراتيجيّ، حيث تلامس حدوده سبع دول، ويتمتّع بشاطئٍ طويلٍ مطل على البحر الأحمر ذلك الممرّ المائيّ المهم الذي يربط أوروبا وأفريقيا وآسيا، هذا بجانب الأرض الزراعيّة الخصبة وتدفُّق المياه العذبة من نهر النيل، فضلاً عن ثرواته المعدنية الثمينة من الذهب والفوسفات والبترول، جعلت جميعها من السودان هدفاً لقوى إقليميّة ودوليّة.

وما كان لهذه الحرب الكارثيّة، التي استمرّت أكثر من عامَيْن، أن تمتدّ إلى غالبية أطراف السودان لولا التأييد العسكريّ والدبلوماسيّ والتمويلُ من أطرافٍ دوليّة تتقدّمها الولاياتُ المتّحدة وروسيا والصين، إلى جانب قوى إقليميّة أخرى. وهكذا تحوّلت الحربُ من مواجهات عسكرية من طرفين سودانيين لحرب بالوكالة تمثل فيها المصالحُ عن القوة المحرّكة لنيرانها، متجاوزةً المبادئ الإنسانيّة.

لقد دفع الشعبُ السودانيّ ثمناً باهظاً في النزوح الداخلي، الذي بلغ أكثر من عشرة ملايين نازح، وتجاوز عدد اللاجئين إلى دول الجوار ثلاثة ملايين، فيما فقد أكثرَ من ستّين ألفاً حياتهم نتيجةَ هذه الحرب الكارثيّة.

وبالرغم من كل هذه المآسي والردة والدمار، ينهض شعبُنا من تحت الرماد، ليبدأ في تضميد جروحه والسير في طريق إسكات صوت المدافع والمسيرات وحماية الأبرياء وتوفير الحدٍّ الأدنى من الاستقرار، وبناء المنظّمات القاعديّة والتقدّم في طريق المعارضة والمقاومة وتقديم البديل القاعدي لغد أفضل.

■ 8. هل يرى الحزب الشيوعي السوداني أن ثمة مخرجاً سياسياً لكل ما يحدث في السودان؟ وما التأثير السياسي والميداني الذي أحدثه الحزب الشيوعي لمحاولات إنهاء الحرب التي اندلعت بين الجيش وقوات الدعم السريع في (2023/4/15)، وذلك لفتح المجال أمام الحياة المدنية؟

حاوَل الحزبُ الشيوعي، متحالفاً مع لجان المقاومة والتنظيمات النقابيّة، معارضة الحكم الجديد. وعن طريق المظاهرات الجماهيريّة شبه اليوميّة نجح في بناء أرضيّةٍ لتحالفٍ جديد أكثر راديكاليّة. ورغم انقلاب البرهان - حميدتي في أكتوبر/ تشرين الأوّل 2021، استمرّت مظاهرات المعارضة للحكمَ الجديد، ما أدّى إلى تراجع تحالف العسكر مع بقايا الحرّية والتغيير.

أدّى هذا الفشل إلى تدخّلٍ خارجيٍّ، تحت وصاية الإدارة الأميركيّة حيث تمت وحدةٌ هشّة من ضمن العسكر بقيادة البرهان والدعم السريع وأحزاب مدنيّة، منها حزب الأمة وأطراف الاتحادي والمؤتمر السوداني. وعارض حزبُنا

الاتّفاق الإطاري مع لجان المقاومة والنقابات. ثمّ انفجر الوضع بدفع من جماعة الإخوان المسلمين، ودخل السودانُ مربعَ الحرب الأهليّة بمواجهاتٍ بين قيادة الجيش وميليشيا الدعم السريع. وقف حزبنا ولجان المقاومة ضدّ طرفَي الحرب وحلفائهما في الداخل والخارج.

في ظل تجاربنا المختلفة فإن الحزب الشيوعيّ يعتمد في نضاله السلميّ على تنظيم الجماهير. وبعد ديكتاتورية الإخوان المسلمين والتي أدت إلى ضرب وتصفية المنظمات الجماهيرية من عمّالٍ وزرّاع وطلاب ونساء، اتّجه حزبنا إلى بناء وتكوين لجان الأحياء الشعبيّة التي تحوّلت تدريجيّاً إلى بؤر مقاومةٍ ضدّ حكم الإخوان. وقد أثبتت هذه التجربةُ نجاحها في عام 2013، فيما عرف بهبة سبتمبر 2013 حيث تحركت الجماهير نحو العاصمة واستلمتها لفترة 3 أيام، شيء شبيه بكمونة باريس.

نجح حزبنا في يناير 2018، من تنظيم أول حشد جماهيري في العاصمة ضدّ زيادة الأسعار بالعاصمة، وتحوّلت سريعاً إلى مظاهراتٍ مناهضةٍ للنظام، مُمهِّدةً لثورة ديسمبر المجيدة.

استناداً على هذه التجارب، يعتمد حزبنا على تحالفه القاعديّ مع لجان المقاومة والنقابات ومنظمات المجتمع المدني لبناء نواة الجبهة الجماهيريّة القاعديّة لإسقاط النظام.

■ 9. كيف تنظر إلى الأوضاع في فلسطين وعموم المنطقة بعد 7 أكتوبر 2023؟

تتعرّض حركة التحرّر الوطني العربي لهجمة شرسة من القوى المعادية، خاصة الإمبريالية العالمية، والرجعية العربية، والصهيونية. وقد أدّت هذه الهجمة إلى تراجع واضح في موقع الجماهير العربية، وانكفاء حركاتها الثورية والديمقراطية.

لذلك، نحن اليوم أحوج ما نكون إلى إعادة بناء الحراك الجماهيري حول المطالب الأساسية للجماهير في كل قُطر، مع الانطلاق من واقع الناس وظروفهم الملموسة، لا عبر القفز فوق الواقع أو التعالي عليه بشعارات عامة.

هذا البناء الجماهيري يستدعي أولًا الاعتراف الصريح بواقع التراجع في صفوف القوى الوطنية والديمقراطية، وثانيًا العمل التدريجي والمنهجي لإعادة تنظيم الصفوف، وبناء الجبهات الشعبية القاعدية داخل كل بلد.

كما أنَّ تعاون هذه الجبهات العربية فيما بينها، وتبادل الخبرات والدروس المستفادة، سيساعد على بناء حركة جماهيرية عربية موحَّدة قادرة على مواجهة أنظمة الاستبداد، وهزيمة مخططات الإمبريالية العالمية، وأدواتها الإقليمية، وفي مقدّمتها الأنظمة التابعة والكيان الصهيوني.

إنّ الطريق طويل ومعقّد، لكن البديل الوحيد عن المقاومة والتنظيم هو الاستسلام، وهو ما لم ولن يختاره شعبنا في السودان أو فلسطين، أو الجماهير العربية الممتدّة من المحيط إلى الخليج.

يتم كل ذلك مع الاستمرار في تقديم كل القوة والمساعدة والتضامن مع حركة المقاومة الفلسطينية وقواها وأدواتها النضالية من أجل وقف حرب الإبادة في فلسطين، وتدعيم النضال العربي- الفلسطيني من أجل إقامة الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس.

> **صمود الشعب الفلسطيني في غزة والضفة والتأييد المطلق لهذا الصمود من القوى الشعبية على المستوى العالمي هو دليل على الإمكانيات المتاحة أمام حركة المقاومة الفلسطينية وحركة التحرر الوطني العربية في التعاون والتضامن مع القوى العالمية ضد مؤامرات الإدارة الأمريكية وحلفائها في الأنظمة العربية ومخلب القط إسرائيل**

■ 10. برأيك ماذا حقق صمود أهل غزة لعموم الفلسطينيين والعرب والعالم؟ وإلى أين تتجه التطورات في المنطقة في ظل استمرار حرب الإبادة البشرية على قطاع غزة؟

صمود الشعب الفلسطيني في غزة والضفة والتأييد المطلق لهذا الصمود من القوى الشعبية على المستوى العالمي هو دليل على أن الإمكانيات المتاحة أمام حركة المقاومة الفلسطينية وحركة التحرر الوطني العربية في التعاون والتضامن مع القوى العالمية ضد مؤامرات الإدارة الأمريكية وحلفائها في الأنظمة العربية ومخلب القط إسرائيل .

■ 11. كيف تصف العلاقة بين الحزب الشيوعي السوداني والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين؟

في الماضي كانت تربطنا علاقات نضال مشترك مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، ولكن لأسباب عدة توقفت تلك الاتصالات. تلك العلاقات النضالية شهدت تعاوناً وتفاهماً مشتركاً، وكان لزيارات وفود الجبهة الشعبية إلى السودان ممثلة بالرفاق والأصدقاء صلاح صلاح وتيسير قبعة أثره في تدعيم العلاقات داخل المنظمات الجماهيرية العربية خاصة حركة الطلبة وحركة النساء.

نحن في الحزب الشيوعي السوداني نتابع ما يجري في الساحة الفلسطينية وندعو إلى وحدة الفصائل اليسارية من الشعب الفلسطيني كأساس لوحدة فلسطينية من دحر العدوان الصهيوني وانتزاع كامل حقوق الشعب الفلسطيني في إقامة دولته الديمقراطية وعاصمتها القدس. كما ننتهز هذه المناسبة لنؤكد على اهتمامنا في إعادة وتطوير العلاقات النضالية بيننا والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

تقدير موقف

بعد كلمة أبي عبيدة

منير شفيق

تقدير موقف منير شفيق

كلمة قوية وذكية.

أولاً: تؤكد على ثبات المقاومة ومعنوياتها العالية وقدرتها على مواصلة القتال واجتراح الانتصارات العسكرية.

ثانياً: حملت هجوماً، محقاً، وشديداً على الدول العربية والإسلامية ذات المواقف المتخاذلة. ويذكرها بما ينتظرها أمام الله يوم الحساب. فضلاً عن انتقادات للقادة والعلماء والنخب الذين خذلوا بمواقفهم دماء الأطفال والأبرياء..

ثالثاً: يحيي كل القوى المناصرة للمقاومة، مع تقدير خاص لموقف اليمن.

رابعاً: التلويح بوقف المفاوضات وسحب قبول المقاومة بهدنة الستين يوماً.

وفي المقابل مع التهديد بالإصرار على خوض الحرب حتى فرض شروط المقاومة كاملة في المفاوضات. الأمر الذي سيربك سياسة ترامب التي تغطي مناورات نتنياهو الماضي بمواصلة حرب التجويع والإبادة، تحت مظلة المفاوضات الراهنة.

الجبهة الشعبية تنعي الفنان الكبير زياد الرحباني

نعت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين إلى جماهير شعبنا الفلسطيني واللبناني والعربي، وإلى كل الأحرار والمثقفين والمناضلين في هذا العالم، رحيل القامة الفنية والثقافية والفكرية الكبيرة، زياد الرحباني، الذي غيّبه الموت اليوم، بعد عقود من العطاء المبدع والنضال بالكلمة والموقف والموسيقا والمسرح.

وقالت الشعبية في بيانها الصادر يوم السبت (2025/7/26): «لقد كان زياد الرحباني أكثر من فنان؛ كان ضميرًا وطنيًا حيًّا، ومثقفًا مشتبكًا مع قضايا شعبه، منحازًا دومًا للفقراء والمهمّشين، ورافضًا للظلم والاستبداد والطائفية، حمل صوته رسائل الوطن والناس، وجعل من الفن منصة للمقاومة، ومن المسرح مساحة لقول الحقيقة، ومن الموسيقا جسرًا بين الألم والأمل»، مضيفاً أنّ الرحباني شكّل صوتًا فريدًا في وجه القهر والاستغلال والطائفية، وجعل من الأغنية والمسرح والموقف أدوات مقاومة.

وبينت الجبهة، أنّه لم يكن يومًا محايدًا، بل كان منحازًا للفقراء، للناس، لفلسطين، لغزّة، للثوّار الذين لم يطلبوا شيئًا سوى وطن لا يُباع، وحياة لا تُهان.

وتابعت الشعبية: «نودع زياد وغزّة تودّع شهداءها وهو طالما غنّى وعزف لها لصمودها ولقضية فلسطين، وهو يرى أرضها تُسفك وتهدر وتُحاصر، وأطفالها يُقتَلون على مرأى العالم.»، مشيرةً إلى أنّه يرحل زياد الرحباني، في التوقيت الذي يُشبهه: «حين يكون الحزن كثيفًا، والحق محاصرًا والظلم جائراً، فإن إبداعه سيظل حياً ولن يموت».

وأوضحت الجبهة «نودّعه وفي القلب حسرة، وفي العقل وصية: «أن يبقى الفن حرًّا، والكلمة جريئة، والموقف أخلاقيًا لا يُشترى».

وعبرت الشعبية، عن حزنها العميق لهذه الخسارة الوطنية الكبرى، وتوجهت بأصدق مشاعر العزاء إلى السيدة فيروز، وإلى عائلته الكريمة، وجمهور محبّيه في لبنان والعالم العربي.

وختمت الجبهة: «نودّع اليوم مناضلاً بالكلمة واللحن والموقف، وستبقى أعماله خالدة، تلهم الأجيال المقبلة على طريق الحرية والعدالة والكرامة الإنسانية

وفد من الجبهة الشعبية
يقدم واجب العزاء برحيل الفنان زياد الرحباني

ـ الهدف الإخبارية - لبنان

قام وفد من قيادة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ترأسه الرفيق مروان عبد العال عضو المكتب السياسي وأعضاء قيادة فرع لبنان بتقديم واجب العزاء برحيل الفنان الكبير زياد الرحباني يوم الخميس (2025/7/31)، والذي أقيم بدعوة من الحزب الشيوعي اللبناني وإذاعة صوت الشعب وعائلة الرحباني في مركز خريجي الجامعة الأمريكية في بيروت حي الوردانية ، وسط حشد قيادي من الحزب ورفاق وفنانين ومحبين وأصدقاء وعائلة زياد.

حيث عبّر الوفد عن تعازي قيادة الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين للحزب والعائلة والمحبين معبرين عن حزنهم العميق لرحيل قامة فنية وثقافية شكلت وجدان أجيال بأكملها، وارتبطت بقضايا الحرية والعدالة، وفي مقدمتها القضية الفلسطينية.

وأكد أن زياد الرحباني قد تميز بعلاقة صادقة مع الجبهة لأنه لم يكن مجرد فنان، بل رفيقاً مخلصاً وصوتاً حراً في وجه القمع، وضميراً حياً انحاز دوماً إلى الفقراء والمظلومين والمقاومة، ووقف بشجاعة مع غزة و فلسطين وشعبها، من دون موارية أو مساومة.

وتوجه لعائلة الراحل ومحبيه ورفاقه، ببالغ المواساة معتبرين أن غيابه خسارة كبرى للفن الملتزم، وللبنان، ولفلسطين التي بقي زياد صوتها الصادق في وجه التطبيع والخذلان.

وكتب الرفيق مروان عبد العال كلمة باسم الجبهة الشعبية في سجل التعازي جاء فيها:

يا زياد...

لم تمت، بل انسحبت قليلاً كي لا تزعجنا في زمن صار فيه الصمت قاتلاً.

ستبقى حيث تُعزَف موسيقاك، وتُسمَع كلماتك، ويُستعاد الوعي الذي كنت مناراته وفلسطين طريق الخلاص.

لك المجد أيها الرفيق النبيل،

ولنا الحنين الدائم.

الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين

الجبهة الشعبية تهنئ بالإفراج عن الرفيق المناضل الأممي

جورج عبد الله

هنأت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين الرفيق المناضل الأممي جورج عبد الله بقرار الإفراج عنه بعد أكثر من أربعة عقود قضاها في السجون الفرنسية، في تحدٍ بطولي واستثنائي لأبشع أدوات القمع الإمبريالي، وتُحذر من أي ضغوط أو محاولات إمبريالية وصهيونية من إحباط هذا القرار كما حدث سابقاً.

وأكدت الجبهة في تصريح صحفي، أنّ هذا القرار يُمثّل انتصاراً لإرادة الصمود والثبات الثوريين، ويجسد في الوقت ذاته انتصاراً لقضية فلسطين التي حمل رايتها هذا القائد التقدمي الكبير بكل فخرٍ واقتدار.

وأضافت: لقد شكّل استمرار اعتقال الرفيق عبد الله رغم صدور قرار قضائي بالإفراج عنه، وصمة عارٍ على جبين الإمبرياليتين الفرنسية والأمريكية، وتواطؤاً سافراً مع الكيان الصهيوني، ونذكر أن هذا الاعتقال والاحتجاز هو سياسي بحت، ومثّل خرقاً سافراً للقانون ولقرارات القضاء الفرنسي، ونشيد بموقفه المبدئي الرافض لكل محاولات الابتزاز والمساومة، وبإصراره على شرعية المقاومة الفلسطينية، باعتبارها خياراً مشروعاً لا مساومة فيه.

كما أكدت الجبهة أنّ اعتقال عبد الله طيلة هذه السنوات رسالة واضحة للعالم بضرورة التصدي لقوى الاستعمار والاستكبار العالمي، وفضح الجرائم الصهيونية والإمبريالية، ورفض التبعية والخنوع، كما أن صموده الأسطوري يمثل نموذجاً ملهماً لليسار الثوري العربي والدولي، ويجب أن يشكل بداية نهوض حقيقي في معركة التحرر الوطني والاجتماعي، ومن أجل فلسطين حرة من البحر إلى النهر.

وقدرت الجبهة عالياً جهود كافة الأحرار في العالم، وفي مقدمتهم الحملة الدولية للتضامن مع جورج عبد الله، وكل الأحزاب، والمجموعات، والناشطين الأمميين التقدميين، الذين لم يتوانوا لحظة واحدة عن مواصلة الضغط والنضال من أجل إطلاق سراحه، إيماناً منهم بأن الدفاع عن عبد الله هو دفاعٌ عن العدالة، وعن القضية الفلسطينية التي جعل منها عبد الله بوصلته النضالية الأولى.

كما ثمنت الجبهة مواقف الرفيق عبد الله داخل سجنه، ووقوفه بثبات إلى جانب الأسرى الفلسطينيين في معاركهم النضالية، وخوضه إضرابات رمزية عن الطعام دعماً لهم، وفي طليعتهم الرفيق القائد الأسير أحمد سعدات الأمين العام للجبهة الشعبية، مؤكداً أن معركة الأسرى هي معركة واحدة ضد القمع والاستعمار، وأن التضامن الأممي مع نضال الشعب الفلسطيني لا تحدّه القضبان ولا تقيده السجون.

وفي ختام تصريحها، دعت الجبهة إلى تصعيد النضال من أجل إطلاق سراح كافة الأسرى والمعتقلين السياسيين في السجون الصهيونية والغربية، وترى في هذه المعركة جزءًا لا يتجزأ من النضال الأممي في وجه الظلم والاستعمار.

وفد من الجبهة يزور الأسير المحرر المناضل

جورج إبراهيم عبد الله

زار وفد من الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين المناضل جورج ابراهيم عبد الله في منزل العائلة في بلدة القبيات العمارية شمال لبنان يوم الثلاثاء (2025/7/29) مهنئاً بتحريره من السجون الفرنسية بعد 41 عاماً .

ترأس الوفد عضو المكتب السياسي للجبهة الرفيق مروان عبد العال، وضم عدد من أعضاء وقيادات الجبهة.. وعبر الرفيق جورج عبد الله عن ترحيبه بالوفد وسروره بلقاء رفاق يعرفهم عن كثب، تناول ذكرياته في الجبهة الشعبية وتاريخ النضال فيها، مستفسراً عن أحوال المخيم وحال الشعب الفلسطيني ورفاق النضال ، كما تطرق إلى الوضع الراهن متحدثاً عن الإبادة التي تحدث في غزة مشدداً على أن الإدارة الأميركية هي المحرك الأساسي لهذه العدوان، تواطؤ من الغرب الإمبريالي والأنظمة الرجعية العربية. وأكد عبد الله على دور الجبهة المحوري في هذا الصراع، مشيراً إلى أن طبيعة هذا الصراع هو صراع وطني وقومي وأممي، والمعركة هي معركة تحرر وطني وليس ديني كما يروج له العدو. وأن فلسطين صارت عنوان هذا التحرر الوطني، وفي السياق نفسه أشار إلى أن شعوب العالم وخاصة في الدول الأوروبية بدت تعي نوعية هذا الصراع مما زاد عدد المؤيدين لفلسطين بشكل كبير وملحوظ. وشدّد عبد الله على أهمية دور الجبهة الشعبية في ترسيخ الهوية الوطنية والبعد التحرري الوطني والإنساني في النضال. من جهته تحدث الرفيق مروان عبد العال مهنئاً الرفيق جورج عبد الله بالحرية وذلك باسم رفاق الدرب، وباسم الأمين العام ونائبه وجميع الرفاق معبراً عن فخر واعتزاز الجبهة الشعبية بصمود الرفيق جورج عبد الله وبما مثّله طوال سنوات الأسى والحرمان. وأضاف أن الحرّية ليست انتصار جورج وحده، بل انتصار لكل من حمل راية الكفاح، وإنها رسالة أمل وقوة لكل الأجيال التي تستمد منك الإصرار على مواصلة الطريق نحو الحرية والكرامة. وهي ليست مجرد انتصار شخصي، بل هي انتصار لكل قلب ناضل من أجل الحرية والعدالة، لكل أسير ما زال يقاوم في زنازين الاحتلال، ولكل أهل غزة الذين يتحملون أهوال الإبادة بصبر لا يُصدّق.

وأشار عبد العال إلى أن جورج كان عبر سنوات الصمود، نموذجاً للروح التي لا تنكسر، ونبراساً أضاء طريق الأجيال القادمة. وأن حضوره اليوم يعيد إلينا درساً عميقاً: أن الحرية ليست حالة تُمنح، بل معركة تُخاض بإرادة الرجال والنساء الأحرار. وشدد أن الجبهة لا تنسى الرفاق في الأسر، الذين يقاومون بقوة في وجه الظلم، وأهلنا في غزة الذين يتجرعون ألم الحصار والإبادة. إن نضالهم ونضالك متلازمان، يشكلان نبضاً واحداً في جسد هذه الأمة.

وهنا، هناك دروس لا بد من قولها: تعلمنا منك أن الإصرار هو مفتاح الحرية، وأن العزيمة هي الحصن الحصين أمام كل محاولات القهر. تعلمنا أن الألم لا يُضعفنا، بل يصقلنا ويقوينا. كما أوصينا أن نبلغ رسائل الوفاء لرفاقك الأسرى، بأنهم ليسوا وحدهم، وأن قضيتهم تظل حية في قلوبنا، وأننا مستمرون في النضال معهم ومع أهلنا في غزة حتى تحقيق الحرية الكاملة والكرامة المنشودة. وختم عبد العال كلمته: رفيقنا العزيز، أهلاً بحرّيتك، وأنت رمز الصمود والوفاء. معك ومع كل من يناضل من أجل الحق، نمضي نحو المستقبل المشرق، نحو النصر الذي لا محالة وفي نهاية الزيارة قدم وفد الجبهة درعاً تكريمية للرفيق الأسير المحرر جورج إبراهيم عبد الله عربون تقدير على مسيرته النضالية.

صباح الخير رفيق جورج

محمد العبدالله

صباح الحرية والكرامة وشقائق النعمان والزعتر البري، يا رمز نضال الفدائيين، وكل المقاومين والمناضلين من أجل حرية الوطن وكرامة الإنسان.

رفيق جورج، يوم الجمعة (2025/7/25) ، كان يوما تاريخيا في وطننا، والعالم، أكدت فيه للشعب والأمة وأحرار العالم، أن الفكرة التي حملتها منذ أكثر من ستة عقود « المقاومة والعنف الثوري، والنضال بين صفوف الشعب، هما طريق التحرر والانتصار «، ازدادت توهجا.

تسمرت الملايين أمام الشاشات، لتشاهدك، كنّا، نفتح قلوبنا وعقولنا قبل عيوننا، ونحن نتابع قبضتك التي تحمل الغضب والعهد. كلماتك ، من صالة المطار حتى « القبيات « مرورا بالمحطات التي توقفت فيها، أكدت للجميع، أن سنوات الحجز التي أمضيتها وراء القضبان، لم تكسرك، بل زادتك إيمانا بالقضية / الفكرة،التي حملتها.

رفيق جورج، بعد ذلك اليوم الطويل الذي عشته بين رفاقك وأحبتك، وكنت فيه، مزهوا بالانتصار والفرح، وكنا معك، للأسف، عن بُعد، فخورون بك، نذرف دموع الفرح الممزوجة بالفخر بك.

اليوم، وأنت تفتح باب بيتك، أتوقع أن عقلك المسكون برفيقة دربك ونضالك، المقاتلة الفولاذية، والاستثنائية، فقيدة حركة النضال التحرر القومي والأممي» جاكلين اسبر / ريما «، هذا العقل المُفعم بالوفاء، سيأخذ خطواتك باتجاه ضريحها في منطقة « عكار « لتضع وردة حمراء عليه، وتتلوا لها وعليها، عبارات الوفاء، وتجديد العهد على النضال.

رفيق جورج، شكرا لك، لأنك ستبقى _ كما كنت دائما _ فارسا من هذا الزمان.

تأبين علي بدوان في ذكراه الأربعين

أقام فرع سورية للاتحاد العام للكتاب والأدباء الفلسطينيين حفل تأبين للكاتب والباحث والمناضل علي بدوان يوم الثلاثاء 2025/7/15 وقد حضر الحفل عائلة الفقيد وأصدقاؤه ومحبّوه ونخبة من المثقفين والمهتمين بالراحل وإرثه.

بدأ التأبين بالوقوف دقيقة صمت على روح المناضل وشهداء فلسطين والعالم العربي، ثم قدّم مدير الحفل أ. عماد موعد السادة المشاركين في التأبين؛ فألقى ممثل اتحاد الكتاب العرب الباحث الأرقم الزعبي كلمة الاتحاد وكان عنوانها (من حيفا إلى دمشق)، وتحدّث فيها عن العلاقة التاريخية التي تربطه بالراحل. ثم ألقى الباحث نزار حميد كلمة فرع سورية للاتحاد العام للكتاب والأدباء الفلسطينيين وأشار إلى دور الراحل في إعادة هيكلة الاتحاد وحرصه على تفعيله على أسس مهنية ووطنية، ثم ألقى الناقد أحمد هلال كلمة أصدقاء الراحل وأضاء على بعض المواقف الإنسانية التي تجمعه بالراحل والعلاقة الإنسانية التي تربط بينهما. ثم ألقى شقيق الفقيد الأستاذ خالد بدوان كلمة العائلة وكانت مفعمة بالمشاعر الدافئة وتركت أثراً عميقاً بالحضور. كذلك قرأ فادي شاهين (ابن أخت الراحل) خاطرة وجدانية كتبتها أخت الراحل في ذكراه الأربعين، كما وجّهت ابنة الراحل (جوان) رسالة إلى والدها الراحل مليئة بالمشاعر الإنسانية المؤثرة.

بعد ذلك قدّم بعض الكتاب والمحبين للراحل شهادات إنسانية ركّزت على البعدين الثقافي الوطني والإنساني في مسيرة الراحل، ومن أبرز تلك الشهادات ما قدمه الناشط الاجتماعي والتربوي الأستاذ وليد الكردي، ومدير تحرير مجلة الهدف الأستاذ محمد أبو شريفة، والشاعر رضوان قاسم، والباحث والكاتب عبد الفتاح إدريس، والروائي والقاص عوض سعود عوض، والدكتور حيدر حمادي، والباحث أبو نضال رفاعي، والقاص والروائي أيمن الحسن، والدكتور الناقد ثائر عودة. وعبّرت كل الشهادات عن دور الراحل في المشهد الثقافي الفلسطيني وحرصه على تفكيك السردية الصهيونية وتعزيز الوعي الأصيل تجاه الحق الفلسطيني الثابت.

لقد أبدى الحضور تفاعلهم وعبّروا عن وفائهم للراحل من خلال استذكار مسيرة حياته النضالية الزاخمة بالعمل الوطني، إذ كان قلمه رصاصة صارخة لم تهدأ حتى آخر يوم في حياته، وكان عمله الدؤوب لفلسطين ومن أجل فلسطين. لقد غادرنا علي بدوان جسداً لكنه يبقى حياً في القلوب، فقد سقط جسده ولم يسقط فكره، كما قال الشهيد غسان كنفاني، فهذا جسد آخر يسقط ونرث فكره لتبقى مسيرته النضالية مستمرة وشعلة متقدة للأجيال القادمة..

نشاطات أكاديمية دار الثقافة

نظمت أكاديمية دار الثقافة بمخيم اليرموك في دمشق ندوة استذكارية بمناسبة مرور الذكرى الثالثة والخمسين لرحيل» الشهيد غسان كنفاني» يوم السبت 2025/7/19،

تحت عنوان :

غسان كنفاني...... بيننا ومعنا

شارك فيها أدباء قدموا قراءات عن الشهيد

أ. أبو علي حسن

أ. محمد الركوعي

أ. محمود خليلي

غرز الدين جازي

أ. عمر سعيد

أ. حُسن خميس

أ. وفاء حميد

كما صاحب الندوة معرض للفن التشكيلي الفلسطيني

أشرف عليه اتحاد الفنانين التشكيليين الفلسطينيين

عرضوا ٢٧ لوحة أنجزها عشرة فنانين

وبحضور باقة من الفنانين والأدباء

كما نظَّمت أكاديمية دار الثقافة يوم السبت 2025/7/26 ندوةً بعنوان: "غسان كنفاني.. والفن السابع" بمناسبة الذكرى الثالثة والخمسين لرحيله، تحدث فيها الفنان موسى مراغه.

أدار الندوة الناقد أحمد هلال

ت. كاظم وقمر

وأحيت أكاديمية دار الثقافة ومنتدى غسان كنفاني الثقافي الذكرى الثالثة والخمسين لرحيل الشهيد الأديب غسان كنفاني، بتنظيم ندوة ثقافية قيّمة يوم السبت 2025/7/26، تحت عنوان "قراءة في ثورة 36 لغسان كنفاني"، وذلك في صالة منتدى الشهيد غسان كنفاني الثقافي بمخيم خان دنون.

استضافت الندوة الكاتب الصحفي محمد حسين، الذي قدم قراءة متعمقة في تاريخ الثورة الفلسطينية الكبرى عام 1936، مؤكداً على أهمية قراءة التاريخ بعين ناقدة لاستخلاص العبر والدروس، خاصة وأن هذا التاريخ "ثمنه دماء".

وتحت شعار "ما زلنا نقاوم" نظمت دائرة الثقافة والإعلام الحزبي في حزب الوحدة الشعبية الديمقراطي في الأردن ورشة حوارية، ضمن فعاليات إحياء الذكرى الـ 53 لاستشهاد القائد الكاتب والأديب المفكر العضوي غسان كنفاني الذي لا يزال قلمه حاضراً حتى اليوم يُرعب الأعداء ويُلهم أجيالاً من المناضلين والمقاومين وشارك فيها نائب الأمين العام في حزب الوحدة الشعبية الرفيق د. عصام الخواجا، والكاتب د. محمد عبد القادر، وأدار الحوار مسؤول دائرة الثقافة والإعلام الحزبي، الرفيق د. موسى العزب والذي بدأ حديثه قائلاً "اليوم نحن نقف في حضرة الشهيد، الكاتب، الأديب، والقائد السياسي غسان كنفاني؛ الذي لم تقتصر موهبته على الأدب والسياسة، بل امتدت إلى الفن التشكيلي وكتابة المسرحيات".

أيام غسان كنفاني في أكاديمية دار الثقافة

جاءت أيام غسان كنفاني هذا العام في أكاديمية دار الثقافة في بيروت تحت عنوان أوراق من غزة وهي مستلهمة من رسالة كتبها غسان بعنوان ورقة من غزة، وهي أيضا تحفز الحفر والمساءلة في لغة خطابنا الإعلامي والثقافي والفكري. مستضيفة وجوها مهمة في الأدب والشعر والصحافة والنضال.

تحت عنوان: حتى تبصر اللغة العمياء، ومن أجل غزة، في الجلسة الأولى من سلسلة جلساتها الحوارية ضمن أيام غسان كنفاني الثقافية، تحت عنوان : أوراق من غزة، استضافت الأكاديمية شاعرين وناقدين مهمين في مكتبتها وذلك في 7 تموز يوم الاثنين، بحضور نخبة من المبدعين الشباب والمثقفين وأعضاء الأكاديمية.

وهذه الجلسة الحوارية هي عبارة عن مجاورة ضمن سلسلة من مجاورات كثيرة مع كتاب وفنانين ومفكرين استضافتهم الأكاديمية باسم جلسات نقاش ووثقت النقاش معهم في مواد مهمة للتفكير والتأثير وأيضا دعم المواهب الفنية والأدبية ودعم السردية الفلسطينية في معركتها مع السرد المضاد.

وقد أشارت منسقة الأكاديمية في مقدمتها أن غزة وما يحدث مؤخرا من ابادة وتجويع وفي ذكرى غسان ألهمنا إلى اعادة قراءة محاضرته اللغة العمياء والتي ألقاها بعد هزيمة حزيران في دار الندوة في بيروت عام 1967.

في الجلسة الثانية من أيام غسان كنفاني الثقافية تحت عنوان: المقاومة هي الأصل،

استضافت أكاديمية دار الثقافة، المناضل التاريخي صلاح صلاح، وذلك في مجاورة فكرية ثقافية وتاريخية. قدمته منسقة الأكاديمية في حوار مشترك مع الباحث أنيس محسن وبحضور نخبة من المثقفين والفنانين والسياسين وباقة من المثقفين الشباب.

وتحدث المناضل صلاح عن بداية تأسيس حركة القوميين العرب والتي كان امتدادها الفكري القومي من أبعاد كانت مهمة جدا لمواجهة المشروع الاستعماري والصهيوني، وقد كانت كل اهتماماتها وأهدافها من اجل احباط مشروع تصفية القضية. وقد طرحت مواضيع كثيرة فكرية من خلال الأسئلة ومن أبرزها فكرة النقد التاريخي واعادة قراءة التاريخ لمعرفة الوجه السيء أيضا وذلك للبناء القويم من أجل المستقبل.

وكانت هناك مجاورة ثقافية شفافة وحقيقية مع ابنة الأرض والحكاية، الصحفية الفلسطينية شذى حنايشة في أكاديمية دار الثقافة، والتي تحدثت بلغة فلسطينية هادئة ومؤثرة وكانت هي شذى فلسطين وشذى جنين وشذى شيرين. لأنها ابنة جنين المدينة والمخيم وزميلة الشهيدة شيرين أبو عاقلة وكانت الشاهدة في لحظة الشهادة ..

حضر اللقاء باقة من الإعلاميين والصحفيين والمثقفين الذين شاركونا افكارا هامة وصادقة حول موضوعنا الرئيسي:» الصحافة ولغة الإعلام في مواجهة الخطاب الاستعماري .

وقالت شذى أن الخطاب الفلسطيني يعاني من انقسامه لكن الصحفي الحقيقي الصادق ينتمي للحقيقة التي تدخل عمق الأحداث وتضيء على خلفية الواقع السياسي والتاريخي ولا تهمله في محاولة دائما لليقظة والوعي للكثير من المزالق والمسميات التي تخدم لغة الاستعمار والاحتلال.

والنشاط الأخير هو معرض التشكيلي مروان عبد العال، ألوان معلقة في ملتقى السفير في الحمرا

وقالت منظمة المعرض أن هذه المجموعة رسمها الفنان في محاولة لالتقاط المعنى

والامساك بعتمة عالقة في جوهر الأشياء، ينطلق مروان عبد العال ليمسك بريشته وإحساسه العميق أثر الجرح في ظل الابادة والمحو الممنهج اليومي. فكأنما كل شيء معلق بين الأرض والسماء، مثل الأجساد في لحظة القصف وهي تتمسك بقصة لم تنته بعد. ومثل الدعاء العالق في فم الأمهات وهو يحاول أن يصبح زغرودة أو تعويذة تطرد شبح القتل والركام والجوع.

في لوحاته التي رسمها كي يقطف الحزن من شجرة في غزة، يحاول الفنان مروان عبد العال أن يرسم لأن اللغة خانتنا. وفي معرضه الفردي الأول، الذي يكثف داخله لحظات لم تجد أرضا تقف عليها ليقول لكل من يقاوم هذا الهشيم: هذا ليس توثيقاً، لأني أرسم كي أفهم

ما لا يفهم، هذه محاولة لمقاومة النسيان.

غسان كنفاني
"ما زلنا نقاوم"
غسان والواقع الحالي

شيخوخة مبكرة لأطفال غزة !..

إلهام الحكيم ـ كاتبة سياسية فلسطينية ـ تركيا

هَرِمْنا.. كلمة انتشرت أصداؤها في كل أرجاء الكون عندما صدح بها رجل تونسي قبل عقد من الزمن ويزيد , ومازالت تتردد كلما أراد البعض التعبير عن المعاناة والضغط النفسي لشعوب آثرت تغيير أنظمة حكمها للتخلص من القهر والظلم والفساد !. لكن ما يحصل في غزة منذ أكثر من عشرين شهراً تتخطى كل الكلمات فقد جاوز الاحتلال المدى بإجرامه وبطشه و وحشيته فشاب الولدان ذهولاً ورعباً مما يرونه ويمرون به مع أهلهم على مدى الساعة , نعم فإن ما يمارسه جنود الاحتلال الصهيوني لم يسبق لأي احتلال أن قام به بما في ذلك المغول والفاشيون والنازيون ! خاصة بحق الأطفال الذين انهارت بيوتهم فوقهم مع والديهم وإخوتهم, انتشلهم المسعفون من تحت الأنقاض بأضلاع مكسورة أو محترقي الأجساد .. كما أخرجوا أهلهم مبتوري الأطراف أو صرعى.

وكم يكون المشهد قاسياً على الطفل برؤية الجار وهو يحمل ابنه الذي بعمره ويركض به محاولاً إسعافه لكنه يلفظ أنفاسه قبل الوصول للمشفى , كيف لا يشيب الطفل وقد قصفت خيمة النزوح ليلاً فاحترقت والتصقت أجساد النائمين بالحديد المثبّت للخيمة بينما تطايرت أشلاء آخرين وامتزجت ببعضها ولم تعد تعرف ملامح أصحابها ؟ , كيف لا يهرم أو يشيب وقد استفاق من الإغماء فوجد نفسه وحيداً لا أهل له فقد اختطف الموت جميع أفراد أسرته , وبات مفجوعاً بغياب الأب والأم والأخوة والأعمام وأبنائهم وحتى الجدّين بعد تدمير بناية العائلة !. لم يعد له أنيس يأخذ بيده أو يمسح دمعته أو يداوي جرح قلبه على فراق أهله وأحبته وجيرانه الذين شطبوا من القيد المدني !. كيف لا يشيخ الأطفال وقد حاصر الاحتلال غزة ومنع وصول الغذاء والدواء والماء إلى الأهالي فباتوا جياعاً لأسابيع بل أشهراً طويلة والتصقت جلودهم بعظامهم وغارت أعينهم وجفت الدموع في المقل , تحولوا إلى أشباح ينتظرون الموت بلا حول لهم ولا قوة !. كيف لا يشيب الطفل وقد اغتال الاحتلال أحلامه وحجب عنه نور الشمس ونشر بدلاً عنها غبار الدمار التي خنقت أنفاسه ,فقد الجيش الإنسانية فنشر عتمة الحقد والكراهية , سحق ابتسامات الأطفال ومزّق كتبهم ودفاترهم وحطّم ألعابهم وأراجيحهم , قتل آمالهم بمستقبل مشرق فوق تراب

وطنهم الذي سرقه الاحتلال وعاث به فساداً ودماراً, هجّر أهله أصحاب الأرض الحقيقيين قبل عشرات السنين ليستوطنه الغرباء المحتلون !. كل هذا القهر نتيجة المجازر والظلم والإرهاب وغيره كثير ألا يجعل الولدان شيوخاً هرمين؟! وكأن لسان حالهم يقول : «شاخوا قبل أوانهم « مختصراً عبارة الشاعرة الفلسطينية فدوى طوقان :» أطفال فلسطين كبروا أكثر من سنوات العمر « !.

• أطفال تحت وطأة القصف والتهجير والإبادة :

يُعتبر الأطفال من أكثر الشرائح تعرضاً للعنف المجتمعي أيام السلم , كما يتابع قادة الحروب هوايتهم الإجرامية ضدهم باعتبارهم الحلقة الأضعف بالمجتمع وبهم يتمكنون من لَيْ أذرع الأهل الذين يبذلون جهدهم لتأمين الحماية لأبنائهم, فيغادرون أماكن النزاع لتوفير المأوى الأكثر أمناً , يحملون أطفالهم ويركضون بهم تحت القصف , يحتضنوهم لتفادي رصاصة هنا أو قذيفة مجرمة ذكية تلاحقهم حيث يلتجؤون ويحتمون بالمدارس التي تحولت لمراكز إيواء تكتظ بالنازحين القادمين من كل حدب وصوب من غزة المنكوبة .. يظنون أنهم يوفرون الحماية اللازمة لهم ولأبنائهم كونهم في مدرسة تحمل شعار الأونروا المحمية بالحصانة الدولية لكن المتعطشين للدماء

الذين لا يرعون القوانين الدولية يأبون إلا أن يدمغوا بصمتهم الإجرامية بحق كل فلسطيني فيواصلون إجرامهم ومجازرهم .. يقصفون المدرسة .. تتدمر وتتطاير الأجساد بالهواء ثم ترتطم أرضاً لتلقى حتفها , بينما تستر الأنقاض عورات الشهيدات والجريحات مع أطفالهن لتبدأ رحلة البحث عنهن بين الدمار لإسعافهن .. يحملون الأم الشهيدة وهي تحتضن طفلها الجريح الذي افتدته بروحها ليعيش .. يتابع رحلة النزوح القسري مع الأقارب والجيران وأناس آخرين لا يعرف سوى أنهم مثله ينتمون لفلسطين ويبحثون لأنفسهم عن الملجأ الآمن هرباً من آلة الإبادة الصهيونية .. ينزحون صوب مخيم .. يلتقيهم أخوة لهم سبقوهم بالنزوح , يتشاركون الخيمة ويتوزعون بين مهاجرين جدد وأنصار كانوا بالأمس مهاجرين, يتقاسمون الفراش واللقمة والماء بين النساء والأطفال – رغم شحّها - ويجلس الرجال بين الخيام ليقوموا على خدمتهم , ينتشر خبر وصول شاحنة الطحين لمكان بعيد , يركض الشباب علّهم يحصلون على قوتٍ لقاطني الخيام , تمضي ساعات الانتظار بطيئة وكأن عقاربها لا تتحرك من مكانها ! ينام الأطفال جوعاً وإرهاقاً .. ثم يصحون على صوت الصراخ والبكاء على أب عاد محمولاً على الأكتاف وقد أصيب برصاص قناص غادر .. كما يحمل الحمار شاباً جريحاً حاول إنقاذ جاره قبل الاستشهاد , وآخرين من المصابين والشهداء .. اكتظت ممرات المخيم بالنازحين المستقبلين لشهداء وجرحى انتظار المساعدات القاتلة التي زادت عدد الأرامل والأيتام !..

• أطفال شهود على أسوأ إبادة وتطهير عرقي :

عندما نراجع أرقام الوفيات الناجمة عن العدوان الصهيوني على غزة نصاب بالصدمة والذهول ! فقد بلغ عدد الأيتام « 39 ألفاً و384 طفلاً فقدوا أحد والديهم أو كليهما منذ بدء العدوان , من بينهم نحو 17 ألف طفل حرموا من كلا الوالدين ليكون هذا الرقم أكبر أزمة يُتْم في التاريخ الحديث « حسب تقرير الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني شهر 2025/4 !.. وقد تطرق التقرير لعدد الشهداء الأطفال في نفس الفترة فبلغ 17 ألفاً و954 طفلاً بينهم 274 رضيعاً و 876 طفلاً دون عام واحد , كما فقد 17 طفلاً حياتهم بسبب البرد في الخيام و52 طفلاً بسبب المجاعة وسوء التغذية التي عرّضت نحو 60 ألف طفل لخطر المجاعة وسوء التغذية الحاد خلال العدوان الذي ما زال يقتل أو يصيب 100 طفل بمعدّل يومي , كذلك أباد الاحتلال نحو 7200 عائلة بالكامل !, وأكّدت اليونيسيف أن ما يقرب من مليون طفل في غزة تعرضوا للتهجير المتكرر والحرمان من حقهم بالحصول على الخدمات الأساسية , إضافة لاستشهاد 188 طفلاً واعتقال نحو 1055 طفلاً في الضفة الغربية ..

- هل يمكن لنا تصوّر نفسية الطفل اليتيم فاقد أحد الوالديْن , فكيف في حال فقد الاثنين معاً إضافة لمعظم أهله ؟ ما الذي ينتظر هؤلاء الأطفال الذين يحتاجون للرعاية والحنان الوالدي والأسري ؟ ما الذي ينتظر من يعيشون تحت الصدمة في ظروف معيشية مأساوية و يحتاجون للدعم النفسي والاجتماعي والصحي والجسدي خاصة لمن فقدوا أجزاءً من أجسادهم وباتوا فاقدي البصر أو أحد الأطراف وربما جميعها ويحتاجون للرعاية ولمن يعينهم على الحركة وخدمتهم !. ويرافق ذلك توقّف جميع الأنشطة التعليمية والتربوية والترفيهية والاجتماعية .. والأسوأ من هذا كله معيشة بعضهم بين القبور, علماً بأن غزة كلها أصبحت « مقبرة للأطفال « ! مما يؤثر على أطفالها وعلى مستقبلهم خاصة في مرحلة البلوغ حيث تُظهِر الدراسات التأثير السلبي للصدمة على الدماغ عندما تحدث في مرحلة مبكرة من النمو , فتتلفه وتؤثر على طريقة تطوره وتفاعله مع الآخرين نتيجة تحمّله للكثير من الحزن والمعاناة و الخوف من العيش بالشارع وعدم القدرة على الحياة الآمنة مع المحيط بعد رؤيته لأسوأ إبادة والعيش فيها!..

• صغار بأعمارهم كبار بأفعالهم :

يبدو أن الاحتلال ساهم بتغذية الرجولة المبكرة لأطفال فلسطين منذ النكبة فأصبحوا «صغاراً بأعمارهم كباراً بأفعالهم وطموحاتهم « وهذا تعبير عن الوعي الوطني لهم حيث أرضعتهم أمهاتهم حليب العزة والشموخ وحب الأرض والانتماء الوطني , وميّزْنهم عن أقرانهم واعتبرنَهم عمالقة بينهم ؟ فباتوا يفضلون الألعاب الحربية « بارودة , مسدس , سيف وترس , خنجر , قنبلة يدوية , طائرة ودبابة « , حتى المجتمع عاب عليهم البكاء لأنهم رجال , وعندما يلعبون يبتعدون عن الألعاب الهادئة الناعمة لأنها « بنّاتية « لا تليق بالفدائي وكان التشجيع حتى للفتيات على ذلك فصار أطفالنا يؤثرون الألعاب الخشنة التي يغلب عليها طابع مقاومة الاحتلال - هذا النمط من التربية كان وما زال - داخل الوطن المحتل وفي المخيمات ومناطق اللجوء والشتات و ربما أسهمت بتسريع يفاعتهم وسرقة بعضاً من طفولتهم التي - من حقهم عيشها- عندما تم التواصل معهم باعتبارهم رجالا رغم صغر سنّهم , لكن فرض الصهاينة لهذا الواقع مرفوض بالمطلق في غزة والضفة ! فهم يتعاملون معهم وكأنهم شباب يحملون السلاح الحقيقي بوجههم ويقاومون وجودهم بينهم , لقد انتزع الجيش طفولتهم وسرق أحلامهم بوحشية , تصرّف تجاههم باعتبارهم مقاتلين يقاومونه لهذا يتعمّد ملاحقتهم واعتقالهم وتعذيبهم والتنكيل بهم متجاوزاً كل القوانين الدولية التي تحمي الأطفال خاصة في ظل النزاعات المسلحة والحروب !.

مَن سمع من أهله قصص التشرد والنكبة وسرقة الاحتلال لوطنه آثر اقتناء اللعبة الحربية وتقمص دور المدافع عن أرضه , فما بالكم بمن عاش الواقع المأساوي من قصف وتدمير وتهجير وإبادة واعتقال لأهله وأصدقائه أمام ناظريه في غزة والضفة , فكيف سيكون تأثير ذلك على شخصيته المستقبلية ؟

- المراجع :الأناضول ,الميادين , الجزيرة نت , تقرير الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني و منظمة اليونسيف

حين يُصبح البقاء أداة استعمارية: المجاعة في غزة كإستراتيجية

لمى الشطلي ـ كاتبة صحفية فلسطينية ـ سورية

هياكل عظمية، أطفالٌ يصرخون، وصدور أمهات تدفُق بالخذلان؛ مشهدٌ كارثي يربط بين أبسط مقومات الحياة، «رغيف خبز»، وبين قضايا كبرى يلعب بها الاستعمار ألعاب تجويع سياسي، تُضيف على السطح الصفة الأكثر همجية للمستعمِر: قتل كرامة الحياة المنسوبة إلى لقمة العيش. ربما التفاوت الساحق هنا بين كيف ترى نفسك جزءاً من المعركة وأنت عاجز تماماً، وبين كيف تفكر بما يحدث بطريقة علمية وعقلانية، تقرأ فيها ما خلف السطور كي لا تُصاب بالجنون.

أمام البطون الخاوية لا موقف سياسيا واضحا، وحين يبدأ الجسد بالتهام نفسه تهتز المبادئ. لكن، حينما ينهش الجوع أجساد الصغار، أبناءك، تلوك الاتفاقيات والمفاوضات والنوايا، ما ظهر منها وما خفي، وتبصقها دفعة واحدة على مائدة البقاء. فهل يتجرد الجوع من معناه اللفظي ليدخل الاصطلاحي؟ وكيف سيكون الغزي بعد هذا؟

إن الحرب المستمرة على القطاع، منذ ما يقارب العامين، لم يكن هدفها إنهاء المقاومة فقط، بل تعميق الرؤية الإستراتيجية نحو إعادة تشكيل العقلية الغزية: تفكيك علاقة الغزي بمفردات التصقت به منذ النكبة : «المقاومة، الصمود، المواجهة»، وتحويل الأسئلة من «لماذا يحدث هذا؟» إلى «من أوصلنا إلى هنا؟». هي عملية تفكيك وإرجاع القيم إلى الحاجات الفيسيولوجية الأولى، وفقاً لهرم ماسلو للاحتياجات، حيث يصبح الطعام، ثم الأمن، الغاية القصوى، على حساب الانتماء والمقاومة والتحقيق الذاتي. هكذا يتم نقل الغزي من موقع الفاعل إلى موقع المتلقي، ومن موقع المقاتل إلى موقع

الجائع السائل.

هنا تُصبح المجاعة أداة لتفكيك البُنى الداخلية، فتتحول المقاومة من فعل جمعي إلى عبء شخصي. وهذا ما تترجمه بعض مشاهد الاقتتال الداخلي، والتحايل، والفتن الاجتماعية بين فئات الغزيين. إنها ليست حرب تجويعٍ فقط، بل حرب وعي ونسيج اجتماعي.

لم تكن التجربة الغزية استثناءً، بل تأتي ضمن سلسلة ممتدة من استخدام التجويع كأداة استعمارية:

-1 التجويع المنهجي في غزة: في عام 2012، نُشرت معلومات بناءً على تسريبات لوثائق إسرائيلية من عام 2008، تتعلق بتقديرات احتياجات غزة من المواد الغذائية. الوثائق التي تم تسريبها تشير إلى أنه، في إطار الحصار الإسرائيلي المفروض على قطاع غزة، كانت هناك توصية بتوفير الحد الأدنى من الغذاء لضمان بقاء السكان أحياء، لكن دون تجاوز ذلك لتجنّب أية مساعدة إضافية يمكن أن تؤدي إلى تحسّن في الحياة المعيشية أو زيادة في السكان. (The Guardian)

-2 تدمير ممنهج للبنية الغذائية: عبر قصف الأراضي الزراعية وتقييد الصيد إلى مساحات ضيقة، تم تحويل قطاع غزة من بيئة منتجة إلى منطقة تعتمد على المعونات. هذا التدمير أدى إلى تفكيك الاعتماد الذاتي، وخلق تبعية غذائية تمثل أداة إضافية للضغط على السكان. (UN OCHA)

-3 نموذج مجاعة البنغال (1943): استُخدم التجويع كسلاح من الاستعمار البريطاني في الهند. خلال الحرب العالمية الثانية، حوّلت بريطانيا موارد الغذاء إلى جبهات الحرب، وتعمّدت تجاهل الحاجة المحلية، مما أدى إلى مقتل أكثر من 3 ملايين إنسان. (BBC Archive)

-4 غينيا بيساو تحت الاستعمار البرتغالي: استخدم الاستعمار البرتغالي سياسة الحصار الغذائي كأداة لإضعاف المقاومة المسلحة بقيادة حزب PAIGC. حيث قامت القوات البرتغالية بمنع دخول المواد الغذائية إلى المناطق المحررة، ودمّرت الحقول والمخازن، وقطعت طرق الإمداد، بهدف تجويع السكان المدنيين وكسر حاضنتهم الثورية. وقد وثّق باتريك شابال هذه الإستراتيجية باعتبارها جزءاً من الحرب النفسية والاقتصادية، التي استهدفت تعطيل النضال التحرري في مستوياته الاجتماعية والسياسية. (Chabal, 1983)

-5 فرنسا في الجزائر: استعانت السلطات الفرنسية بالتجويع كوسيلة لإجبار المجتمعات على الانصياع والتخلي عن دعم المجاهدين. في هذا السياق كتب فانون:

«سلاح المستعمِر هو الجوع. لا تفاوض مع الجياع. إنهم يُحكمون.» — فرانتس فانون، معذبو الأرض (The Wretched of the Earth)

لذلك أصبح جوهر التساؤل لدى الغزي عن المفاوضات لا «متى سوف يتم إيقاف الحرب؟»، بل «متى يمكن أن تدخل شاحنات المساعدات؟»، ليتم استبدال أيديولوجيا المقاومة بالبقاء والحياة؛ لأن الجسد البشري بات منهاراً، والروح تنفذ إليها مصطلحات هجينة عن تاريخها بجملة واحدة: «أنا جائع». وهذا ما أكده فانون: «عندما يحل الجوع محل الأيديولوجيا، تتشقق الروح.»

وهكذا، لا تكون المجاعة حالة طارئة أو نتيجة جانبية للحرب، بل تصبح أداة في جوهر الإستراتيجية الاستعمارية لإعادة صياغة الإنسان، وعبره المجتمع. حين يصبح الغذاء امتيازاً لا حقاً، يتحول الصراع من كونه صراعاً على الحرية إلى صراع على فتات البقاء، ويتم بذلك إخراج القضية من سياقها التحرري إلى سياق إنساني محض، مجرد من كل ما يحمل من أبعاد سياسية وهوياتية وتاريخية.

إن المجاعة في هذا السياق ليست فقط تجويع البطون، بل هي إعادة برمجة عقلية كاملة تُرغم الإنسان على إعادة تعريف نفسه وفق حاجاته البيولوجية، فتتراجع الأسئلة الكبرى، ويحل مكانها سؤال الغريزة: «كيف أُطعم أطفالي؟»، لا «لماذا أُحاصر؟»، ولا «من سرق أرضي؟».

وحين تسيطر هذه المعادلة، تُضرب المفاهيم الجوهرية لوجود الفلسطيني ومهمته الأساسية لتحرير الأرض، والقضاء على المحتل الذي هو أساس كل هذه المعاناة، أي كسر منطق العقل لصالح البطون الخاوية. وهنا تشق المقاومة طريقها من الجوع إلى الإدراك، وهي معركة لا تقل أهمية عن السلاح؛ فالوعي الثوري الفلسطيني أمام امتحان جديد، أشد قسوة، لكنه حتماً سيدخل ضمن إطار النضج الثوري الكامل لكل وسائل وأساليب المستعمِر.

وسط هذا الخراب المنهجي، يبقى للذاكرة دورها، وللوعي، إن لم يُقهر بصرياً وسمعياً ونفسياً، مقاومة من نوع آخر. إن الفعل الاستعماري حين يعتمد على التجويع كوسيلة لتفكيك البُنى الاجتماعية والنفسية، فإنه يراهن على موت الوعي الجمعي، لا فقط الجسد. وهنا تكمن المعركة الحقيقية: في الحفاظ على روايتنا، على مفرداتنا، على غضبنا الأخلاقي.

والمجاعة هنا ليست امتهاناً للكرامة الفلسطينية، بل سرديةً جديدة تُعلن بأن ضعف المحتل بدأ من استخدامه التجويع وسيلة بدلاً من الصواريخ والبنادق، وبأن الروح الغزية كانت متقدمة جداً في التجربة الفلسطينية. فهي لن تكون معركتنا الأخيرة، إنما المطلوب لاحقاً أن نُوجه الرؤية الوطنية لدينا نحو الحلول التي يمكن أن نعمل عليها في حال تكرر هذا الأمر.

«حين يدرك الجائع أن جوعه ليس صدفة، بل جزء من نظام قهر، يبدأ وعيه الحقيقي: لم يعد يسأل عن الخبز فقط، بل عن الظلم، عن من سرق وجوده، وعن الطريق لمقاومة ذلك.»

في غزة، لا تموت الأفكار بالجوع، بل تتحول، تتشكل من جديد. الغزي الذي يُدفع إلى التساؤل «من أوصلنا إلى هنا؟» قد يُجرّ إلى جلد الذات، نعم، لكن قد يُولد منه أيضاً وعي أشد صلابة، أشد شراسة، لأنه وعي ناتج عن التجربة، لا التنظير.

هنا فقط، نبدأ الحديث عن الغزي ما بعد المجاعة:

الغزي الذي لا يعود كما كان، لا أكثر صبراً، ولا أقل كرامة، بل أكثر حذراً، وأشد إدراكاً لحدود السقوط، وأقوى عزيمة في استعادة الإنسان من أنياب الجوع والخذلان.

وعلى ذلك كلّه، علينا أن ندرك أنه حتى في معركة الجوع هذه لا نُهزم حقاً حين نجوع، بل حين ننسى لماذا نقاوم.

لماذا لا يضع الفلسطيني بندقيته؟

الجواب يبدأ من أسطورة الشيبة»

في كل مرة سلّم الفلسطيني سلاحه، اختفى من المشهد وفي كل مرة حمله، استعاد اسمه

بيسان عدوان - كاتبة وباحثة فلسطينية

منذ أكثر من 150 عامًا، اخترع فلاح فلسطيني أسطورة «الشيبة» كي لا يُسلّم بارودته. واليوم، يواجه الفلسطيني السؤال ذاته: لماذا لا يضع سلاحه؟ بين ثورة 1936، وأوسلو، وصبرا وشاتيلا، و7 أكتوبر... كل مرة نُزع فيها السلاح، خسرنا البلاد، فمن فلاح اخترع وحشًا أسطوريًا كي يحتفظ ببارودته، إلى لاجئ سلّم سلاحه فذُبح في صبرا وشاتيلا، إلى ثائر فلسطيني يحمل المرتينة ويغني لحكيم أوغلو، إلى مقاوم في نفق يُعد قنبلته بيده... ليس هذا سردا تاريخيا فحسب، بل هو قراءة في متون التاريخ الفلسطيني المتصل منذ عقود ولا تزال الحكاية مستمرة فكلما علت الدعوات والتصريحات والمشروعات الخارجية أو حتى الفلسطينية تطلب من الفلسطينيين تسليم سلاحهم تحت ذرائع مختلفة ومتعددة ومتنوعة، يعاد إلى العقل الجمعي الفلسطيني القصة الكاملة للسلاح من خرافة تحرس القرية... إلى بندقية تحرس الذاكرة.

وسنرى في الأيام القادمة تأثير هذا الموقف لتلك المجموعة الهامة من الدول العربية والإسلامية على الموقف الدولي، وإذا ما كانت المزيد من البلدان العربية والإسلامية، وبلدان الجنوب العالمي بصفة عامة، سوف تنضم للبيان والمواقف التي عبر عنها، مما يعمق من ثقل ما يدعو إليه البيان على أرض الواقع.

ونريد -هنا- قراءة التحولات في بعض المواقف العربية من هذه المواجهة المحتدمة -على الأقل حتى تحرير هذه المقالة- والتذكير بوقائع وأحداث نتصوَّر أنها ستساهم، بصورة أو بأخرى، في حصول تحولات في الوعي السياسي العربي والإسلامي وحتى العالمي. وإذا كانت الوقائع التي يُراكمها الزمن خلال تعاقُب سنواته تبدو، في مظهرها العام، مجرّد أحداث عابرة، إلا أن بعضاً منها تكون له نتائج صانعة لجوانب من خياراتنا ومواقفنا في السياسة وفي الثقافة.

كما أننا؛ سنحاول التطرق لمسارات بعض الدول العربية التي تقيم علاقات تطبيع عربية -إسرائيلية، وكيف من الممكن تحول مواقف تلك الدول من مسألة التطبيع مع الكيان الإسرائيلي. وماهية الرؤية الإسرائيلية -الصهيونية للتطبيع عربيًّا، وكيف تستغل ذلك لتحقيق الأهداف الإسرائيلية المتعلقة بالصراع مع الفلسطينيين واحتواء النفوذ الإيراني في المنطقة في حال تفوقها بهذه المواجهة؛ وكيف سيكون مآلها المصيري في حال التفوق الإيراني؛ وهذا ما يظهر للمراقبين الدوليين. وبالتأكيد فإن التطبيع كمشروع ممل على العرب إنما يستهدف تحقيق شرعية الكيان الإسرائيلي -الصهيوني وضمان هيمنته في المنطقة العربية، من خلال تفكيك الثقافة العربية وإضعاف مؤسسات العمل العربي القومي واستبدالها بمؤسسات إقليمية يكون لهذا الكيان الصهيوني فيها نفوذ مهيمن، حيث نشأ تيار عربي براغماتي يقيم توجهاته إزاء المشروع من منظار نفعي

خالص دون النظر إلى الرموز القومية في الثقافة والحضارة و الهوية. ونحن –هنا– أمام فعلٍ يملك القدرة على وَقْف مسارات في السياسة وإطلاق أخرى.

وبالمقابل؛ عندما نرى أن الجانب الإسرائيلي الصهيوني ما زال يصر على همجيته ونازيته وساديته في التعامل مع الفلسطينيين في غزة، رغم انشغاله بالمواجهة مع إيران؛ إلا أنه يعمل على إجهاض المشروع الوطني الفلسطيني (المقاومة)، وهذا الأمر؛ وللأسف يرتبط بأنظمة عربية تقوم اليوم بأدوار ترتبط أساساً بمصالح قِوَى أخرى، تاركةً مختلف الطموحات والآمال العربية جانباً؛ خاصة بعد ارتفاع مؤشرات التطبيع مقابل الانخفاض الملحوظ في أسهم المساندة الفعلية للقضية الفلسطينية، فقد تَمَّ السكوت والصمت المطبق على الاختراق الإسرائيلي -الصهيوني الحاصل في غزة منذ ما يزيد عن ال 20 شهراً.

نحن متأكدون أن الشعوب العربية كشعوب؛ فهي ما تزال شعوب نقية من الشوائب؛ فتبقى فلسطين هي القضية المركزية التي توحد الشعب العربي بأكمله، منتظرين من حكوماتهم إعادة تفعيل مشروع العمل السياسي والاقتصادي والاجتماعي والتنموي والفكري في دعم القضية الفلسطينية. وخاصة بعد البطولات والتضحيات التي يصنعها ويسطرها

الشباب الفلسطيني المقاوم في غزة ومخيماتها؛ وفي مدن ومخيمات الضفة الغربية؛ منذ انطلاق طوفان الأقصى ومن قبله.

وهنا يقع على الدول العربية والإسلامية أن تنسى بعض الخلافات مع الجمهورية الإسلامية في إيران؛ وتحاول الخروج من بوتقة الهيمنة الأميركية والغربية والوقوف إلى الجانب الإيراني في هذه المواجهة الحاسمة؛ فعدو إيران وعدو الأمتين العربية والإسلامية هو هذا الكيان النازي السادي المجرم.

ويقع على القيادات العربية التأكيد أن المنطقة برمتها وعلى الصعد كافة، تمر بمنعطف خطير وظروف حساسة ودقيقة، وتتطلب قراءة عميقة وواعية لتداعياتها وأهدافها وآثارها القريبة والبعيدة، المرحلية والإستراتيجية، على الواقع العربي والإسلامي السياسي والاقتصادي والاجتماعي. ولعل من أهم القضايا التي تحتاج إلى إعادة نظر، هو طبيعة عمل المؤسسات العربية والإسلامية المشتركة.. إذ إننا نجد أن هيكلة هذه المؤسسات وطبيعة عملها وأدائها لا ترقى إلى مستوى الحدث اليومي أو التحدي الذي يواجه الواقع العربي والإسلامي.. بل في الكثير من الأحيان تكون طبيعة عمل هذه المؤسسات، أحد أسباب الاختلاف العربية والإسلامية. فبدل أن تتحول هذه الدول إلى حاضن حقيقي لكل أطراف الصراع القائم مع الكيان الإسرائيلي الصهيوني، وتحتضن المقاومة الوطنية الفلسطينية؛ من أجل النهوض بالعمل العربي الإسلامي المشترك، وقضيته المركزية.

فالتطورات الحالية التي تشهدها المنطقة اليوم متسارعة وخطيرة، إلا أنه ما يزال الأداء العربي والإسلامي الدبلوماسي والسياسي لا يرقى إلى مستوى التحديات التي تطلقها هذه التطورات.. وردود الأفعال التي يقوم بها النظامان العربي والإسلامي الرسميان، لا تمتلك إمكانية التأثير النوعي في مجريات التطورات والتحولات...

خاصة عندما نجد تمادي الكيان الصهيوني في إبادة المواطنين الفلسطينيين على أرض غزة؛ وتعمق مأزق هذه الجماعات حيث يمارس الكيان الصهيوني كل صنوف القتل والتدمير والإبادة والتهجير، ودول الوطن العربي بمؤسساتها وأطرها الوطنية والقومية تتفرج وتتعامل مع هذه الوقائع وكأنها نتيجة طبيعية لسوء الخيارات وعقمها التي تتبناها القيادة الفلسطينية الفاشلة في رام الله؛ دون أن تكلف حكومات الدول العربية نفسها عناء البحث عن رؤية مشتركة وإرادة قومية توظف كل الامكانات والقدرات المادية والسياسية للدفاع عن حقوق الشعب الفلسطيني؛ والتي في النهاية هي حقوق عربية وإسلامية وهي لا تستطيع أن تقوم بوظيفتها الإقليمية والقومية. حيث نجد أن واقعنا العربي بالأخص ينحدر إلى المزيد من التجزئة والتشظي والخلافات العميقة التي تتعدى بعض الأحيان الجسد الرسمي لتصل إلى الجسد الشعبي. وهذا الأمر يفاقم من أزمات الواقع العربي ومشكلاته، ويساهم في تباعد الخيارات والسياسات، مما يوفر لأعدائنا الفرصة السانحة للانقضاض علينا والاستفراد بنا وخاصة بعد هذه المواجهة مع الجمهورية الإسلامية في إيران.

وتثبت لنا الأيام؛ أننا نعيش في عالم لا يرحم، ولا مكان فيه للضعفاء، ولذلك إذا أردنا أن يكون لنا موقع تحت الشمس ونتمكن من الدفاع عن قضايانا العادلة، وعلى رأسها قضية فلسطين؛ وهي قضية الأمتين العربية والإسلامية بأسرهما؛ وإنجاز تطلعات وطموحات شعوبنا، نحن أحوج ما نكون اليوم إلى تفعيل دور المؤسسات العربية والإسلامية المشتركة. وفي إطار استعادة الاعتبار إلى المؤسسات المشتركة على الصعيد الوطني والإقليمي والقومي، لا بد من التأكيد على النقاط التالية: من الضروري بيان حقيقة سياسية ودولية وإنسانية، وهي أن استمرار حالة التجزئة والتشظي والتشتت العربي والإسلامي، يكلف جميع الدول الكثير من الأثمان السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدولية. إذ أن العالم الإنساني اليوم وبكل شعوبه وأممه يتجه بخطى متسارعة نحو التكتل والاندماج وزيادة وتائر التعاون والتضامن. وإننا كعرب ومسلمين إذا لم نخط الخطوات النوعية في هذا السبيل، فإن هذا يعني على المستوى العملي المزيد من الضعف والعجز وضياع الفرص والحقوق؛ بل سيؤدي إلى ضياع هويتنا العربية وعنوانها الإســـلامي أمام العالم. وهذا التطوير بطبيعة الحال، لا يتحقق دفعة واحدة، وإنما هو بحاجة إلى عمل متواصل ومتراكم، يتجه إلى تعزيز كل ما يفضي إلى المزيد من التفاهم والتعاون والتضامن في مختلف المجالات وعلى جميع المستويات.

وهذه الظروف تستدعي منا جميعاً العمل النوعي والإستراتيجي، الذي يعيد ترتيب وإصلاح البيت العربي والإسلامي والفلسطيني على وجه الأخص على الصعد كافة.

صرخة من خلف القضبان:
الأسرى الفلسطينيون
بين مطرقة الاحتلال وسندان الصمت الدولي

د. سعيد سلّام ـ مدير مركز فيجن للدراسات الإستراتيجية - أوكرانيا

إن قضية الأسرى الفلسطينيين تتجاوز مجرد كونها سجلات إحصائية أو أرقامًا عابرة؛ إنها قصة إنسانية عميقة تُروى فصولها الموجعة من خلف القضبان، حيث تصدح صرخاتٌ تطالب بالعدالة والكرامة. يواجه هؤلاء الأسرى نظامًا عقابيًا إسرائيليًا يزداد قسوة وعنفًا يومًا بعد يوم. هذه الانتهاكات ليست حوادث فردية معزولة، بل هي نمط ممنهج من التعذيب والمعاملة اللاإنسانية المتواصلة منذ عقود، وقد شهدت تصعيدًا غير مسبوق منذ أكتوبر 2023. إن هذا الواقع المُر يشكل جرحًا غائرًا في جبين الإنسانية والقانون الدولي، ويكشف بوضوح عن الصمت المطبق الذي يلف المجتمع الدولي تجاه هذه المعاناة المستمرة.

أصوات من الجحيم: شهادات أسرى ومحررين تكشف الفظائع

إن شهادات المعتقلين السابقين والمحررين حديثًا هي الدليل الأوضح على حجم الانتهاكات الجسدية والنفسية، وعلى صمودهم الأسطوري في وجه هذه الظروف المروعة التي يواجهونها داخل سجون الاحتلال. هذه الأصوات، التي تُسمع من قلب المعاناة، تكشف عن جانب مظلم من ممارسات الاحتلال لا يمكن غض الطرف عنه.

معتز عبيدات (37 عامًا)، على سبيل المثال، خرج من معتقل «كتسعوت» عاجزًا عن المشي دون عكاز بعد تسعة أشهر من اعتقاله،

قائلاً: «ضُربت بعصي حديدية، وكُسرت يداي وقدماي، وأُصبت بصدمات نفسية لم تُشف حتى اليوم». تُبرز شهادته حجم الأذى الجسدي والنفسي الذي يتعرض له الأسرى، والذي يترك آثاراً مستدامة تدمر حياتهم. أما فادي أيمن محمد راضي (21 عامًا)، المحرر من معتقل «سدي تيمان»، فقد وصف تعليق الأسرى في أوضاع ضغط وحرمانهم من النوم في غرفة «الديسكو» مع موسيقا عالية، بهدف «تدمير عقولنا». هذه الأساليب النفسية الوحشية تهدف إلى كسر إرادة الأسير وتجريده من مقاومته ووعيه.

ويُعدّ التجويع الممنهج أحد أساليب العقاب الجماعي، وهو ما أكده سامي جرادات (57 عامًا) الذي أُفرج عنه في فبراير 2025 ضمن صفقة تبادل، بعد أن فقد 30 كغم من وزنه بسبب «التجويع المتعمد» و»المعاملة النازية» التي تلقاها. من جانب آخر، وصف سامح الشوبكي (45 عامًا)، الذي اعتقل إداريًا لأكثر من عقدين، العزل الانفرادي قائلاً: «أعيش في طهارة العذاب؛ سجيني يُريني الموت يوميًا». فالاعتقال الإداري والعزل الانفرادي يمثلان انتهاكًا صارخًا للحقوق الأساسية ويزيدان من المعاناة النفسية للأسرى.

ولم تسلم الفئات الأكثر ضعفاً من هذه الانتهاكات؛ فقد وصف سعيد قنبوز (أفرج عنه بعد تسع سنوات من الاعتقال) الحرمان من العلاج الطبي والزيارات كجزء من «عقاب جماعي»، قائلاً: «عندما فتح باب الزنزانة أخيرًا، لم أصدق أني لا زلت على قيد الحياة. رغم الصدمة، ظل الأمل ينبض فينا». هذه الشهادة تعكس صمود الأسرى وقدرتهم على التشبث بالأمل رغم الظروف القاهرة التي يواجهونها. كذلك استهداف القاصرين بالتعذيب الممنهج يمثل انتهاكاً جسيماً لاتفاقيات حقوق الطفل والقانون الدولي، حيث أفاد حذيفة مرارة (17 عامًا)، وهو قاصر من رام الله، عن اعتقاله دون تهمة وتعرضه للضرب أثناء الاستجواب، إضافة إلى التجويع واستنشاق الغاز السام في الزنازين، مع انتشار الأمراض الجلدية بين الأسرى بسبب سوء النظافة. وأفادت الصحفية ربى عيسى (23 عامًا)، التي اعتقلت مرتين، بازدياد العزل والانتهاكات التي تستهدف الصحفيات والنساء بشكل عام بعد 7 أكتوبر 2023، مما يؤكد أن النساء والأطفال هم من الفئات الأكثر ضعفاً وتعرضاً للانتهاكات في السجون، وهو ما يتطلب حماية خاصة بموجب القانون الدولي.

ولم يسلم كبار السن من هذه الوحشية، حيث وصف محمود النابلسي (70 عامًا)، وهو معتقل مسن، ظروف احتجاز غير صحية أدت إلى تفشي الأمراض، قائلاً: «صدمتني وحشية التعذيب؛ هُدم بيتي وحُرمت الماء لأربعة أيام. جُرح صدري، وخُلتني أنسى معنى الماء». شهادته تبرز وحشية التعامل مع كبار السن داخل السجون، وتجاهل حقوقهم الإنسانية الأساسية. كما تحدث خالد النبريس عن الإهانات اليومية والتهديدات بالقتل كجزء من الروتين، ووصف ظروف البرد القارس تحت بطانيات مبللة وسط سخرية الحراس وهجمات الكلاب البوليسية. هذه الممارسات تهدف إلى الإذلال والتحقير الممنهج للأسرى بشكل يومي.

وتُبرز شهادات الأسرى المحررين في أعقاب اتفاق تبادل جزئي المعاناة المستمرة وتؤكد نمط الانتهاكات، مما يستدعي تدخلاً عاجلاً من المجتمع الدولي. فرأفت حمدونة وصف ما يجري في السجون الإسرائيلية بأنه «مجزرة بطيئة»، مؤكدًا أن سلطات الاحتلال تمارس انتهاكات ممنهجة تشمل العزل، الحرمان من العلاج، والإهمال الطبي، فضلًا عن الاقتحامات الليلية المستمرة التي تهدف إلى ترهيب الأسرى وإرهاقهم الجسدي والنفسي. بدوره، أكد حسام شاهين أن «الأسرى يعيشون معركة مستمرة للبقاء والصمود، وأن الاحتلال يحاول كسر إرادتهم بكل الطرق، لكنه يفشل في ذلك بفضل صمودهم ووحدتهم». وأضاف شاهين أن «ما يجري داخل السجون يعكس عقلية الاحتلال العنصرية التي تتعمد إذلال الأسرى الفلسطينيين وحرمانهم من حقوقهم الأساسية، سواء ما يتعلق بظروف الاحتجاز أو الزيارات أو حتى الطعام».

وقد روى محمد يحيى اللوح، المفرج عنه من سجن عوفر، تجربته المروعة قائلاً: «خلال 30 يومًا قضيتها هناك، كان ذلك أصعب أيام حياتي... ضربوا ظهري وباطني وعظامي، واستخدموا الصعق الكهربائي داخل أفواهنا.» هذه الشهادات تضع المجتمع الدولي أمام مسؤولياته تجاه هذه الجرائم البشعة. كما فقد أشرف المحتسب (53 عامًا)، وهو معتقل سابق، سمعه وتعرض لكسر في ضلوعه ويده، وأُرغم على الزحف نحو بيته بعد إطلاق سراحه بسبب فقدانه القدرة على المشي، قائلاً: «ضربوني على الرأس والصدر والظهر، وفقدت السمع في جهة». قصته تجسد الآثار الجسدية المدمرة للتعذيب الممنهج.

وأمضى أمير أبو هلل أكثر من عام في الاعتقال الإداري، وأُصيب بكسر في عموده الفقري. ووصف أن "دوالي الخصيتين ظهرت له بسبب الاعتداء الجسدي المتكرر"، وأن الاضطرابات النفسية واضطراب النوم يعكرانه منذ إطلاق سراحه. حالته الصحية تُظهر الإهمال الطبي المتعمد والعواقب طويلة المدى للتعذيب. وأخيرًا، وصف نائل البرغوثي، أحد أقدم الأسرى في العالم، التعذيب بـ»نهج انتقامي» يستهدف كرامة الأسير، مؤكدًا أن معركة الأسرى «ليست فقط معركة صمود فردي، بل معركة وعي وطني في وجه السجان وسياسات الاحتلال القائمة على النفي والتفتيت». هذه الرواية التاريخية تعكس عمق الصراع وأبعاده الوطنية، كما أشار محمود عيسى إلى أن الاحتلال يسعى من خلال سياساته التعسفية إلى كسر روح المقاومة داخل الأسر، لكنه أكد أن الأسرى الفلسطينيين حولوا السجون إلى

«مدارس وطنية»، ونجحوا في تحويل المحنة إلى منصة للنضال السياسي والتثقيف الوطني، وهو ما يجسد قوة إرادة الأسرى وقدرتهم على تحويل السجن إلى ساحة للنضال.

اعتداءات جنسية ومعاملة مهينة: وجه آخر للظلم المتأصل

لقد كشفت شهادات حصرية عن أشكال مروعة من الاعتداءات الجنسية والتحقير الممنهج داخل المعتقلات الإسرائيلية، مما يشير إلى أبعاد أعمق للجريمة التي تتجاوز مجرد العقاب. هذه الشهادات، التي تُدمي القلوب، تُلقي الضوء على المدى الذي وصل إليه هذا الظلم.

فقد نقل المحامي خالد محاجنة شهادة شاهد رأى أسيراً يُجبر على الجلوس على خرطوم مطفأة حريق، حيث تم إدخاله في فتحة الشرج ثم تفجيره داخله، والضحية ما زال في حالة حرجة حتى الآن. وفي شهادات أخرى، تم نقل العديد من الرجال إلى الغرف دون ملابس، حيث تم صعق أعضائهم التناسلية بشكل متعمد وبكل برودة، في ممارسات تنتهك أبسط معايير الإنسانية.

ولم تقتصر الانتهاكات الجنسية على الرجال، فقد روت أسيرة في معتقل الهشارون تُدعى (A. Sh) قائلة: «وضعونا في زنزانة مغمورة بالماء في البداية... وبعد ذلك خضعنا لتفتيش عارٍ، وواحدة من الحارسات ضربتني فيٍ وجهي بينما كنا نحتجز مسبقًا». وتتوازى مع هذه الشهادة رواية أسيرة أخرى (N. S) تعرضت للإهانة من ثلاث حارسات أثناء قيود اليدين والعيون، بما في ذلك عبارة: «هذا ليس وطنك، اخرجي منه!».

جميع هذه الشهادات تُؤكد بوضوح أن ما يحدث ليس حوادث فردية، بل هو جزء من سياسة ممنهجة لإذلال الأسرى وتجريدهم من كرامتهم الإنسانية.

شهادات المنظمات الحقوقية: أدلة قاطعة على الانتهاكات الممنهجة

لقد قدمت المنظمات الحقوقية الدولية أدلة قاطعة ومتراكمة تُثبت فظاعة الانتهاكات التي يتعرض لها الأسرى الفلسطينيون داخل المعتقلات الإسرائيلية، مؤكدةً أن هذه الممارسات ليست استثناءات فردية، بل هي سياسات ممنهجة ومروّعة تُدار بشكل متعمد. إن حجم الأدلة والشهادات يُجبرنا على مواجهة حقيقة مؤلمة حول واقع لا يمكن السكوت عنه.

فقد وثّقت هيئة شؤون الأسرى والمحررين إجبار الأسرى على النوم على الأرض دون فرش، والضرب المبرح خلال عمليات النقل والتنقل، فضلاً عن الاقتحامات الوحشية التي تتم بواسطة السلاح والكلاب البوليسية، حيث «يكسرون كل شيء أمامنا دون أي سبب». هذه الممارسات تُظهر مدى العنف اليومي الذي يواجهه الأسرى. من جهتها، كشفت منظمة أطباء من أجل حقوق الإنسان – إسرائيل (PHR–Israel) في تقريرها الصادر في مارس 2024 بعنوان «معتقل سدي تيمان: أوضاع احتجاز غير إنسانية»، عن موجة غير مسبوقة من التعذيب والحرمان بعد أكتوبر 2023. شملت هذه الانتهاكات اعتداءات جنسية، إذلالًا جسديًا، ومنعًا تامًا للعلاج الطبي. يُترك الأسرى لساعات طويلة دون طعام، ويُحرمون من النوم، وتُستخدم بحقهم أدوات التعذيب في ظروف وصفت بأنها «غير صالحة للبشر». وقد حذر خبراء مستقلون في الأمم المتحدة من أن هذه الأعمال في معتقل «سدي تيمان» ترسم صورة مروعة يتيحها الإفلات من العقاب، مطالبين إسرائيل بتطبيق نظام صارم للوصول إلى المعتقلين ورصد ظروفهم.

بالتوازي، وثّقت منظمة العفو الدولية (Amnesty International) في تقريرها الصادر في يوليو 2024 بعنوان «التعذيب والمعاملة السيئة في المعتقلات الإسرائيلية» ممارسات مهينة وغير إنسانية، بما في ذلك إجبار الأسرى على الركوع والغناء، الصعق الكهربائي، والتجريد من الملابس بشكل جماعي. وقد رصد التقرير حالات 27 من الأسرى المفرج عنهم – بينهم خمس نساء، و21 رجلاً، وصبي في الرابعة عشرة من عمره – تعرضوا لانتهاكات جسيمة، مما يؤكد منهجية التعذيب. كما كثّفت السلطات الإسرائيلية استخدام الاعتقال الإداري، وهو احتجاز تعسفي دون تهمة أو محاكمة، مع إجراءات طوارئ تُشرّع معاملة الأسرى معاملة لاإنسانية، في انتهاك صارخ للقانون الدولي.

من جانب الأمم المتحدة، أكد فولكر تورك، المفوض السامي لحقوق الإنسان، في بيانه أمام مجلس حقوق الإنسان في مارس 2025، أن «العدد الهائل من الفلسطينيين المحتجزين دون محاكمة، في ظروف مزرية، إلى جانب تقارير التعذيب وانتهاك ضمانات الإجراءات القانونية، يثير قلقًا بالغًا بشأن الطابع العقابي والاعتباطي لهذه الاعتقالات». وقد وثق مكتبه في تقرير صادر في يوليو 2024 «التعذيب المائي»، وإطلاق الكلاب، والحرق بالسجائر، واعتبرها جرائم حرب. وفي سياق متصل، صرّحت فرانشيسكا ألبانيز، المقررة الخاصة للأمم المتحدة، في بيان رسمي صادر في أغسطس 2024، بأن هذه الانتهاكات تمثل «نمطًا ممنهجًا من التعذيب يجب أن يُوقف فورًا»، مؤكدة أنها ترقى إلى جرائم ضد الإنسانية. وأضافت أليس جيل إدواردز، المقررة الخاصة المعنية بالتعذيب، في تقريرها الصادر في سبتمبر 2024، أن «ما يحدث داخل المعتقلات الإسرائيلية يشكل تهديدًا لمنظومة القانون الدولي»، مشددة على أن ممارسات التعذيب «جرائم دولية لا يمكن تبريرها». وأخيراً، وثّقت اللجنة الدولية للصليب الأحمر (ICRC) ظروف احتجاز لا تتوافق مع المعايير الإنسانية الأساسية، مع منع شبه دائم لزيارات العائلة والمحامين، وهو ما يُعد انتهاكًا صارخًا للقانون الدولي الإنساني. (يتبع)

لماذا تُنهك مصر وتنصب لها الفخاخ؟

رضي الموسوي ـ كاتب صحفي من البحرين

بينما تواصل قوات الاحتلال الصهيوني إبادتها الجماعية في قطاع غزة والأراضي المحتلة ويقرر الكنيست العنصري ضم الضفة الغربية والقدس الشرقية، يعمل الكيان على استكمال تفتيت الدول العربية، المحاذية لفلسطين وتلك البعيدة عنها، وذلك بهدف توسيع قاعدة التطبيع وفق ما يسمى بـ»الاتفاقيات الإبراهيمية»، التي أبرمت في العام 2020 مع أربع دول عربية هي الإمارات والبحرين والسودان والمغرب. ويسعى الكيان لفرض اتفاقيات مماثلة على كل من سوريا ولبنان ودول خليجية أخرى وعلى رأسها السعودية، في الوقت الذي يُحضِّر فيه لزيادة الضغوط الاقتصادية والسياسية على كل من مصر والأردن، باعتبارهما الوطن البديل لأهالي قطاع غزة، مستخدما في ذلك نفوذه في المؤسسات المالية الدولية التي تسيّرها الولايات المتحدة والدول الغربية المتحالفة مع الكيان في المجازر والتطهير العرقي والفصل العنصري. بيد أن دولة الكيان التي تتصرف بغطرسة وفوقية على كل شيء بما فيه القانون الدولي ولا ترى في الدول الأخرى إلا كيانات تابعة خاضعة لها وللدوائر الغربية، تجد الفرصة سانحة لفرض المزيد من شروطها وتطبيق معادلاتها الاقصائية لتشييد الشرق الأوسط الجديد بقيادة تل أبيب.

يستخدم الكيان سلاح التجويع ضد الدول العربية بطرق شتى كخيار إستراتيجي بعد أن فعّلهُ في قطاع غزة إلى الدرجة القصوى بمنعه المياه والطعام والدواء وكل ما له صلة بالحياة بعد أن دمر جل المؤسسات والبنى التحتية وقتل نحو 60 ألفا وجرح أضعافهم وطمر تحت الأنقاض آلاف ووضع مثلهم في الأسر. سلاح التجويع بدأ يعطي أُكله في دول عربية أخرى يسعى قادة الكيان لتركيع قياداتها وشعوبها، مبتدئا بتدمير الاقتصاديات والأوضاع الاجتماعية وإطباق الحصار عليها كلما سنحت الفرصة ووجد لذلك سبيلا. ولأن مصر هي الدولة العربية الأكبر من حيث عدد السكان وباعتبارها «دولة طوق»، فقد عمل الكيان على إحداث اختراقات كبيرة مستفيدا من معاهدة كامب ديفيد (1978) وملحقاتها، ومن تراجع أداء الاقتصاد المصري في السنوات الماضية والتبعات التي أدت إلى هذا التراجع ومنها تدهور سعر صرف العملة الوطنية (الجنيه) وتردي الأوضاع المعيشية وعلى رأسها مستوى المعيشة والبطالة والفقر. وفوق كل ذلك مشكلة المياه التي زادها سد النهضة الأثيوبي تعقيدا، حيث تشير العديد من المصادر إلى أن أياد صهيونية تعبث لخنق مصر مائيا وإنهاكها.

معضلة الاقتصاد والديون

يواجه الاقتصاد المصري مصاعب كبرى تحد من مواكبته لمتطلبات التنمية المستدامة والاستحقاقات المرحلية لبلد تعداده السكاني يصل إلى نحو 110 ملايين نسمة، أغلبهم يُصنف ضمن الفئات الشبابية المحتاجة للدراسة والعمل والسكن، وهذه أعباء جوهرية لا مناص من تلبيتها كشرط لاستقرار المجتمع وسلمه الأهلي. الصورة الأكثر وضوحا تتمثل في الضغوطات التي يتعرض لها الاقتصاد في مجال الدين العام الذي يعكس حالة الاقتصاد الكلي. يبلغ الدين الخارجي أكثر من 162 مليار دولار، وفوائده التي تلتهم نحو 80 بالمئة من إجمالي إيرادات الميزانية، في وقت يتوقع فيه صندوق النقد الدولي أن يصل الدين الخارجي إلى 200 مليار دولار بحلول 2030. ويبلغ الدين الداخلي 18.4 تريليون جنيه (الدولار الامريكي= 50 جنيها في المتوسط) اما بالنسبة للبطالة فيصل معدلها إلى أكثر من 6 بالمئة، وفق الإحصائيات الرسمية (أكثر من مليوني عاطل عن العمل)، فيما تقدرها مصادر أخرى بأعلى من هذا الرقم. وتشكل العمالة المهاجرة مصدرا مهما للعملة الصعبة، وتقدر أعدادها بأكثر من 11 مليون مصري حولوا نحو 30 مليار دولار خلال الفترة من يوليو2024 إلى ابريل 2025، محققة قفزة كبيرة في التحويلات بلغت أكثر من 77 بالمئة مقارنة بنفس الفترة من العام المالي الذي سبقه، الأمر الذي شكل جانبا إيجابيا في حصول البلاد على القطع الأجنبي من العملة، التي جاءت أيضا من قرض صندوق النقد الدولي بقيمة بلغت 8 مليارات دولار، فضلا عن 24 مليار دولار حصلت عليها الخزينة المصرية من أبو ظبي مقابل الاستثمار في منطقة رأس الحكمة.

ورغم محاولات ضبط المالية العامة وترشيد الإنفاق ورفع الدعم عن بعض السلع الرئيسية كالبنزين والسولار ومواد أساسية أخرى، فإن الاقتصاد المصري لا يزال يواجه تحديات كبيرة زادت تعقيدا مع تطورات الأوضاع الاقتصادية العالمية والحرب على إيران من قبل الكيان الصهيوني، والتي خسرت فيها البورصة 90 مليار جنيه، وتراجعت إيرادات قناة السويس بشكل حاد وبنسبة 54.1% لتسجل 2.6 مليار دولار في الفترة ما بين يوليو2024 إلى مارس 2025، نتيجة انخفاض أعداد السفن العابرة بنسبة 44.8% على خلفية التوترات في منطقة البحر الأحمر.

وتأتي نتائج حرب الرسوم الجمركية التي أشعلها الرئيس الأمريكي ضد العالم وخصوصا الصين، لتشكل عاملا سلبيا إضافيا ومرشحة لأن تشهد تداعيات كبرى على اقتصاديات العالم الثالث ومنها الاقتصاد المصري، ما يفتح الجدل مرة أخرى إزاء إمكانية البحث في تحقيق حلم السوق العربية المشتركة وتشكيل تكتل عربي قوامه نحو 400 مليون نسمة يمكنه من مواجهة جزء مهم من هذه الضغوطات.

سد النهضة والقضية الوجودية

في الثالث والعشرين من شهر يوليو/ تموز الماضي، وتزامنا مع مناسبة عزيزة على الشعب المصري والشعوب العربية، حيث تحل ذكرى ثورة 23 يوليو التي قادها الزعيم جمال عبد الناصر، صرح الرئيس التنفيذي لمكتب تنسيق سد النهضة الإثيوبي، أريجاوي برهي، لوسائل الإعلام الإثيوبية، بأن مشروع سد النهضة «خطوة أولى ضمن مسار طويل من التنمية الذاتية التي تقودها البلاد في قطاع المياه والطاقة (..) إن إثيوبيا لا يمكنها الاكتفاء بسد واحد فقط»، بل نحتاج إلى سدود تخدم أغراضاً أخرى، بما في ذلك الزراعة، وإن سد النهضة هو بداية تصحيح هذا المسار، وخطوة إستراتيجية نحو اللحاق بركب التنمية».. هكذا!!

هذا التصريح على خطورته الكبيرة، يؤكد على مشروعية وموضوعية القلق المصري على قضية وجودية بالنسبة لمصر والمصريين. فمصر «هبة النيل»، والتي تعتمد على مياهه بنسبة تصل إلى 90 بالمئة، تواجه هذا الكم من التحدي الكبير فوق الأزمات المتناسلة التي تتعرض لها البلاد في أكثر من موقع، ويتوجب البحث عن الدور الصهيوني في هذا الوضع الذي وصلت له مصر، حيث يؤكد التاريخ ضلوع الكيان في تجويع مصر من النوافذ الاقتصادية والمائية. فبعد أيام من عودة العلاقات الصهيونية الأثيوبية عام 1989، وصل إلى أديس أبابا وفد صهيوني مكون من 400 خبير في مختلف المجالات وأهمها مسألة مياه نهر النيل الذي يبلغ طوله نحو 7000 كيلومتر، والوجود العسكري الصهيوني بالقرب من باب المندب. وتشير المعلومات إلى أنه بين 1956 و1964 وضعت الإدارة الامريكية 17 مجلدا تحوي دراسات مائية وإستراتيجية حول إثيوبيا ونهر النيل تحت تصرف خبراء المياه الصهاينة، وفق كتاب أزمة المياه والصراع في المنطقة العربية للكاتب غسان دمشقية.

مسألة سد النهضة ليست قضية عابرة، بل هي قضية وجودية وتزداد حساسيتها كلما أقدمت أثيوبيا على خطوات منفردة تمس فيها الأمن المائي في كل من مصر والسودان. وفي خضم البحث عن مخارج للأزمات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في المنطقة برزت قضية سد النهضة الذي شيدته اثيوبيا على نهر النيل ويصب في كل من السودان ومصر. وتفيد دراسة صادرة عن جامعة «تكساس إيه آند إم» الأميركية، ونشرتها «الجزيرة نت» أن سد النهضة قد يتسبب في فقدان مصر لثلث مساحتها الزراعية سنويا خلال سنوات الجفاف. وقد تم ملء خزان السد على ثلاث مراحل بدأت في يوليو2020 وانتهت في اغسطس 2022، وغطى الخزان مئات الكيلومترات خلال ملئه. لكن الدراسة لاحظت «انخفاض في مساحة سطح خزان سد النهضة بنسبة 24 إلى 49% بعد المرحلتين الأولى والثانية، وذلك نتيجة لزيادة معدلات التسرب والتبخر في موقع السد».

وحذرت الدراسة «من أ استمرار عمليات ملء السد بالمعدلات الحالية خلال فترات الجفاف المستقبلية لعدة سنوات أخرى، وفي ظل ارتفاع معدلات التسرب والتبخر، فإن حصة مصر من مياه النيل قد تتراجع بنسبة تصل إلى 35.47%، مما قد يؤدي إلى فقدان نحو 33.14% من المساحات الزراعية سنويا». نشير إلى أن تكلفة سد النهضة الكبير بغت 4.8 مليار دولار، وهو مشروع كهرومائي ضخم، يمتد على طول نهر النيل لتوليد ما يكفي من الكهرباء لتزويد المنطقة بأكملها بالطاقة، التي من المقرر لها أن تنتج 6.4 ألف ميغا وات، وهذه تزيد بكثير عن حاجة اثيوبيا الحقيقية. لكن الخلافات محتدمة بين إثيوبيا ومصر حول الحصص المائية لكل من الدول المعنية، علما أن النيل تشاطئه عشر دول، فبالإضافة إلى الدولتين، هناك السودان، جنوب السودان (بعد الانفصال)، كينيا، أوغندا، تنزانيا، رواندا، بوروندي، وجمهورية الكونغو الديمقراطية.

لا شك أن الضغوطات الكبيرة التي تتعرض لها مصر بسبب ارتفاع الدين العام، وخصوصا الخارجي، يشكل لها قلقا مزعجا حول كيفية سداده، فضلا عن فوائده المتضخمة. المؤسسات الدائنة التي تحركها الدول الكبرى وعلى رأسها الولايات المتحدة، تدرك هذه الحقيقة، فتمارس ضغوطات مركبة في الجانبين الاقتصادي والسياسي، الأمر الذي بدأت الحكومة في التفكير لبيع بعض الأصول أو وضعها للاستثمار طويل الأجل، وهذا توجه قد لا يتوقف عند حد معين، ما يفتح ابوابا جديدة للضغوطات ويزيد من حجم الدين العام. وفي الجانب السياسي يتعرض قطاع غزة المحاذي لشبه جزيرة سيناء إلى حرب إبادة لم تتوقف منذ قرابة السنتين، وقد دخلت مؤخرا فصل التجويع حتى الموت ما يعتبر جرائم حرب بيّنة. إن الضغوطات الأمريكية التي يبشر رئيس إدارتها دونالد ترامب بتحويل القطاع الفلسطيني إلى منتجع سياحي بعد تفريغه من أهله، يعني عملية تطهير واقتلاع قسري وترحيل الفلسطينيين إلى جهة ما، حيث ترجح التوقعات أن تكون سيناء المصرية أول هذه الجهات. هذا السيناريو، إن حصل، فإنه سيضرب إسفينا في الاستقرار الاجتماعي والسلم الأهلي، وسيخلق معطيات لا يمكن توقع نتائجها السلبية الكبيرة.

نخلص إلى القول إنه وقبل اتفاقية كامب ديفيد كانت مصر تشكل العمود الفقري للصراع العربي الصهيوني، وعندما مورست عليها الضغوط وأنهك اقتصادها وأدخلت في دوامة الديون وبدأ حصارها مائيا بحبس مياه النيل، ولجت الأمة في مرحلة شديدة العتمة. وما يجري في قطاع غزة وعموم فلسطين من إبادة جماعية وتطهير عرقي وتجويع لم يشهد له التاريخ مثيلا، ليس معزولا عما يجري في المنطقة وفي مصر على وجه الخصوص، ولن تكون نتائجه محصورة في فلسطين، بل إن الكيان الصهيوني يُحضّر لما بعد غزة وجنوب لبنان وسوريا واليمن، والمؤشرات تؤكد أن الدولة المستهدفة بعد غزة هي مصر بعد أن يتم إنهاكها بالديون وإرباك الوضع الاقتصادي والسياسي والمائي. وهنا تكمن أهمية وحدة الجبهة الداخلية وإعادة الوهج للتضامن العربي الحقيقي بتشكيل الكتلة القومية التاريخية التي من شأنها فتح ثغرة في جدار الصمت والتخاذل الذي يقتل أهل غزة وعموم فلسطين. لكن، عندما تعجز أمة مترامية الأطراف عن إيقاف سياسة التجويع وتتمنع عن إدخال الخبز والماء والدواء إلى قطاع محاصر منذ ثمانية عشر عاما، فإن الخلل جوهري ولا بد من إصلاحه بشكل جذري قبل أن تحل الكارثة التي ستعم المنطقة ولن تُستثنى منها دولة عربية واحدة.

في الذكرى (75) لثورة (23) يوليو في مصر :
النظام العربي في إطار تبعيته لأمريكا
يتخلى عن قطاع غزة والقضية الفلسطينية

عليان عليان ـ باحث وكاتب سياسي ـ الأردن

في رحاب الذكرى أل (75) لثورة (23) يوليو (تموز)بقيادة خالد الذكر جمال عبد الناصر ندرك مجدداً حجم المأساة، التي تعيشها مصر والأمة العربية والقضية الفلسطينية ، جراء الارتداد عن مبادئها وإنجازاتها الوطنية والقومية والأممية ، ابتداءً من انقلاب 15 مايو 1972 مروراً بانقلاب السادات على خطة حرب تشرين 1973 ، ودخوله على خط التبعية لأمريكا مروراً بزيارة السادات إلى القدس عام 1977 وصولاً إلى توقيعه اتفاقات كامب ديفيد والمعاهدة مع الكيان الصهيوني عامي 1978-1979 التي أخرجت مصر من معادلة الصراع مع العدو الصهيوني ، حيث بات نهج من حكموا مصر بعده على ذات النهج السياسي والاقتصادي المرتد عن نهج الثورة سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وقومياً.

فلسطين تفتقد الثورة وقائدها

ونحن في فلسطين قضية الأمة المركزية وأم القضايا لثورة 23 يوليو ، نفتقد الثورة وقائدها وإنجازاتها ، حيث بتنا قبل وبعد معركة طوفان الأقصى ، نخوض معركتنا وحدنا مع العدو الصهيوني، بعد أن ألحقنا به في السابع والعشرين من أكتوبر 1973 أكبر هزيمة له في تاريخ الصراع العربي الصهيوني ، ولا زلنا نواجه عدواناً صهيوأمريكيا أطلسيا ، وحرب إبادة وتجويع غير مسبوقة في التاريخ القديم والحديث، يتصدى لها رجال المقاومة ببسالة منقطعة النظير ، وسط صمت المجتمع الدولي، الذي يكتفي ببيانات الاستنكار وبيانات توسل للعدو أن يوقف حرب الإبادة.

والأخطر من ذلك نعلمك عبد الناصر ، أن الأنظمة العربية لم تكتف بالتخلي عن القضية الفلسطينية ، بل إنها في هذه اللحظة من تاريخ الصراع ، تتراوح ما بين متواطئ أو متآمر على الأهل في قطاع غزة ، رغم حرب الإبادة التي أدت إلى ارتقاء وإصابة ما يزيد عن 200 ألف فلسطيني ، وحرب التجويع التي تفتك بالآلاف من أبناء القطاع ، ورغم صدور قرار من الكنيست الصهيوني بضم الضفة الغربية ، التي يستبيحها المستوطنون صباح مساء ويعيثون فيه قتلاً وتدميراً ، وسط صمت السلطة الفلسطينية الممعنة في التنسيق الأمني المذل.

النظام العربي الرسمي ما بين متواطئ ومتخاذل

واللافت للنظر يا قائد الأمة أن دولاً صديقة في أمريكا اللاتينية ، قطعت علاقاتها مع الكيان الصهيوني احتجاجاً على حرب الإبادة والتجويع ، وأن الدول الغربية رغم دورها الاستعماري فاض بها الكيل جراء حرب الإبادة، وباتت تهدد باتخاذ إجراءات ضد الكيان ، وأن شعوب الدول الغربية تنطلق في مظاهرات مليونية وترفع شعار الحرية لفلسطين ، بينما الأنظمة العربية في غالبيتها تراقب المشهد ولا تحرك ساكنا ، ولم تقم بأضعف الإيمان، مثل استدعاء سفراء الكيان الصهيوني في العواصم

العربية ، للإعراب عن الاحتجاج على حرب الإبادة والتجويع ، وتعاقب كل من يشترك في أية مسيرات داعمة لغزة.

وسبق أن عقدت الأنظمة العربية والإسلامية قمم رفع العتب ، وخرجت بتوصيات بوقف العدوان على غزة وإيصال المساعدات لأهلها ، لكنها رفضت استخدام أوراق الضغط لديها مثل التهديد بوقف المعاهدات أو إقفال السفارات الصهيونية في عواصمها .

والأخطر من ذلك أن الأهل في القطاع الأشم يذبحون من الوريد إلى الوريد، والنظام في مصر يرفض فتح المعبر ، رغم أن محور صلاح الدين الذي يربط مصر مع فلسطين معبر مصري فلسطيني وفق اتفاق 2005، ورغم أنه اتفاق ملحق باتفاقيات كامب ديفيد ، كما أن الوثائق كشفت حقيقة أن دولاً عربيه بعينها تخندقت في خندق العدو الصهيوني ، منذ يوم السابع والعشرين من أكتوبر المجيد ، حين أبلغت وزير الخارجية الأمريكي السابق «توني بلينكن» بضرورة التعجيل في القضاء على حماس والمقاومة في قطاع غزة ، وهذا ما كشفه الصحفي الأمريكي الاستقصائي «بوب وود وورد» في كتابه بعنوان « الحرب».

حول مدى راهنية ثورة يوليو

بعد مرور (75) عاماً على ثورة يوليو (تموز) 1952، يدور الجدل حولها وحول الفكر القومي عامة ، ففي حين يرى البعض أن الثورة لا تزال راهنة في عناوينها ومبادئها الرئيسية وإن كانت بحاجة إلى إجراء تعديلات عليها، في ضوء المتغيرات الراهنة، بحيث لا تمس البعد القومي لها كإطار بمضمون تقدمي في السياق الإستراتيجي، يرى البعض الآخر من قوميين وماركسيين، الذين غادروا النهج القومي والتقدمي، واندغموا في إطار الفكر النيوليبرالي، أن ثورة يوليو والنهج القومي باتا من الماضي، في ظل العولمة وتحول العالم إلى قرية صغيرة ،متجاهلين حقيقة أن العولمة الراهنة في أساسها الاقتصادي هي عولمة إمبريالية بثالوثها: «صندق النقد والبنك الدوليين ومنظمة التجارة العالمية» والأفعى السامة ممثلةً بالشركات متعددة الجنسية.

الإجابة على السؤال أعلاه، يقتضي (أولاً) العودة إلى مبادئ الثورة ومرتكزاتها التي شكلت مبرراً لها في الانقلاب على النظام الملكي في مصر، والتحول إلى ثورة بمضامين وطنية وقومية وطبقية، والإجابة على أسئلة محددة بشأن راهنيتها، وإمكانية تطبيقها في مصر وغيرها من الدول العربية.

ويقتضي (ثانياً) عدم التعامل مع ذكرى الثورة، كمناسبة لاستذكار التاريخ المجيد لها فحسب بل التعامل معها بوصفها محطة لمراجعة مخرجات هذه الثورة، والبناء على فكر ومنجزات خالد الذكر جمال عبد الناصر، في سياق نضالي، يستهدف التخلص من حالة الردة التي قادها الرئيس الراحل أنور السادات في انقلاب 15 مايو 1971، وما أفرزته من خراب سياسي واقتصادي واجتماعي، تم تتويجه باتفاقات كامب ديفيد 1978 وبالمعاهدة مع الكيان الصهيوني 1979 -تلك الاتفاقات التي التزم بها نظام مبارك والنظام الحالي -رهنت مصر بما تمثله من ثقل جيوسياسي وقومي وديمغرافي وإقليمي ودولي إلى إقليم تابع للرجعية العربية، ومرتهن لدى الكيان الصهيوني وللإمبريالية الأمريكية، وما زالت مفاعيلها القاتلة قائمة حتى اللحظة الراهنة.

الإجابة على سؤال راهنية الثورة، يقتضي التوقف ابتداءً أمام المبادئ الستة التي طرحتها الثورة عام 1952 وطورتها عبر قوانين يوليو الاشتراكية عام 1961 وطبقتها على أرض الواقع وهي: القضاء على الإقطاع/ القضاء على الاستعمار/ القضاء على سيطرة رأس المال على الحكم/ قامة حياة ديمقراطية سليمة/ إقامة جيش وطني قوي/ إقامة عدالة اجتماعية.

هذه المبادئ في التقدير الموضوعي لا زالت راهنة، فهي وإن قدمت المبررات لقيامها ضد النظام الملكي، فهي تقدم ذات المبررات للثورة ضد نظام كامب ديفيد بامتداداته حتى اللحظة بعد أن تم الارتداد عليها من قبل نظام السادات، وبقية حلقات كامب ديفيد الحاكمة في مصر. فالملكيات الكبيرة عادت للإقطاع بعد ارتداد السادات ومن خلفه عن قوانين الإصلاح الزراعي، والاستعمار عاد إلى مصر من خلال نهج التبعية، ورأس المال بات هو الحاكم من خلال قوى الكومبرادور وممثليها في السلطة، والديمقراطية القائمة في مصر اليوم هي ديمقراطية ليبرالية زائفة لا ترتكز على الديمقراطية الاجتماعية، والجيش الوطني وإن كنا لا يمكن أن نشك في وطنيته، بات جهازاً مهنياً في يد القوى الطبقية الحاكمة، ناهيك أنه بات يشكل ثقلاً ذي مغزى في الاقتصاد المصري، والعدالة الاجتماعية تبخرت في ظل الانحسار الهائل لدور القطاع العام والتوزيع البائس للثورة بعد التخلص من النهج الاشتراكي الذي أرسته ثورة 23 يوليو بقيادة عبد الناصر.

ولم تضرب مبادئ يوليو الستة فحسب، بل صفيت أيضاً قوانين يوليو الاشتراكية وتطبيقاتها وما نجم عنها من تنمية مستقلة وطبقة عاملة مصانة حقوقها، وتصنيع ثقيل لتصنيع آلات وماكينات المصانع الاستهلاكية، للتخلي عن استيرادها من الخارج، والتنمية المستقلة ضربت ببيع مصانع القطاع العام للقطاع الخاص وتصفية الإصلاح الزراعي وصفيت كذلك منجزات بيان (30) مارس بعد حرب 1967، والذي كان في محصلته «ثورة في الثورة».

وفي التقدير الموضوعي أن مهمة البناء على تجربة 23 يوليو في مصر في السياقين الوطني المصري والقومي العربي ، وفي سياق اعتبار القضية الفلسطينية قضية مركزية للأمة العربية ليست مهمة الناصريين – على اختلاف تشكيلاتهم الحزبية – فحسب، بل مهمة كل القوى التقدمية في مصر والوطن العربي، من أجل التخلص من نهج التبعية، وإعادة الاعتبار لدور مصر القائد للأمة العربية، دور "إقليم القاعدة لحركة التحرر العربية" الذي أرساه خالد الذكر جمال عبد الناصر.

المأزق الخليجي.. بين السيادة المغتصبة والرؤية المتهاوية

مسعود أحمد ـ صحفي وكاتب سياسي من عُمان

كشفت الحرب الإسرائيلية-الأمريكية الأخيرة ضد الجمهورية الإسلامية الإيرانية عن عمق الأزمة التي يعاني منها النظام الرسمي العربي عمومًا، والخليجي على وجه الخصوص. وهي أزمة لم تعد خافية على أحد، بل باتت جلية للعيان. فبدلًا من أن تؤدي الدول العربية دورها الطبيعي كقوة إقليمية فاعلة، تحولت أراضيها إلى ساحات مفتوحة للصراعات، تُخترق أجواؤها ليلًا ونهارًا بالصواريخ والطائرات المسيرة، بينما تُطلق المضادات الجوية من قواعد عسكرية أجنبية منتشرة على أراضيها.

هذا الواقع يثير تساؤلات جوهرية حول مفهوم السيادة الوطنية، ذلك المفهوم الذي بُنيت عليه أنظمة الحكم، وسُنت من أجله القوانين، وسُخرت له الجيوش والأجهزة الأمنية. إلا أن الأحداث كشفت زيف الرؤية التي سادت لعقود في السياسة والثقافة والإعلام، تلك الرؤية التي أخفت التبعية تحت شعارات وطنية براقة ثبت فشلها الذريع. ولم تعد البيانات الإنشائية أو الإدانات الرسمية قادرة على إقناع أحد، لا في الداخل ولا في الخارج. في المقابل، أكدت الوقائع صدق الرؤية التي تبنتها القوى الثورية والمثقفون الوطنيون، الذين نادوا بإنهاء الوجود العسكري الأجنبي، وتحرير القرار السياسي والثروات الوطنية من السيطرة الإمبريالية الكولونيالية. ووفقًا لهذا الواقع، لم يعد مقبولًا الاستمرار في تبرير وجود القواعد الأجنبية، في الوقت الذي تتجه فيه شعوب العالم نحو تصفية الاستعمار والتخلص من آخر معاقل النفوذ الأجنبي. من هذا المنطلق، تطرح قضية التحرر الوطني الديمقراطي نفسها بقوة أمام جميع الوطنيين. وعلى ضوء التحولات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية الواسعة، تبدو الظروف الموضوعية والذاتية مهيأة، أكثر من أي وقت مضى، للتحرر من الهيمنة الاستعمارية. غير أن تحقيق هذا الهدف يتطلب شرطين أساسيين: إرادة سياسية حقيقية، وإطارًا وطنيًا جامعًا قادرًا على تعبئة الجماهير فكريًا وسياسيًا وتنظيميًا، وتوجيهها نحو تطلعاتها في الحرية والاستقلال والتقدم الاجتماعي. ورغم ما تواجهه هذه اللحظة التاريخية من تحديات، فإنها تظل مؤهلة لظهور مثل هذه الأطر الوطنية. وعلى الرغم من الحاجة إلى توافر عدد من الشروط الذاتية، فإن إمكانية تحقيق هذه الأهداف باتت أكثر واقعية، لا سيما في ظل تنامي وعي قطاعات واسعة من الجماهير الخليجية بخطورة استمرار الوجود الأجنبي من جهة، وإفلاس الخطاب الرسمي من جهة أخرى. وقد أصبحت هذه الجماهير أكثر قدرة على الربط بين الأزمات الاقتصادية والاجتماعية وبين استمرار التبعية والهيمنة الأجنبية. ولا شك أن تناقضات الواقع ومبررات الدفاع عن الذات تشكل عناصر مساعدة لصياغة مشروع تحرري حقيقي، خصوصًا أن الذرائع التي سُوقت لتبرير الوجود الأجنبي كانت تهدف في جوهرها إلى حماية النظم السلطوية، التي تحرص القوى الإمبريالية على دعمها وتعزيزها وإشراكها في المنظومة الرأسمالية الاستغلالية كولاء للشركات المتعددة الجنسيات لضمان تنفيذ أجنداتها، واستغلالها كأدوات لخدمة مصالحها، وتوفير غطاء سياسي واجتماعي يسهل نهب الثروات والسيطرة على المواقع الإستراتيجية. ومع ذلك، لم تعد هذه الأنظمة قادرة على الدفاع عن خياراتها السياسية كما كانت في فترات سابقة، إذ تتضح في كل محطة تاريخية وظيفتها الحقيقية المتعارضة مع مصالح الشعوب. ومن الطبيعي أن توفر هذه المعطيات أسلحة مادية ومعنوية إضافية للجماهير، تضعها وجهًا لوجه أمام الاستحقاقات الإستراتيجية الكبرى، بحيث يُعاد تكوين السلطة السياسية وفق الإرادة الشعبية، ومعبرة عنها ضمن منظومة ديمقراطية حديثة تكرس خياراتها في هوية النظام السياسي والاقتصادي والاجتماعي المعبر عن مصالحها المادية والروحية. ولا ريب

أن هذه الرؤية تتطلب حزمة متكاملة من الإجراءات غير القابلة للتجزئة: دساتير عصرية، حريات ديمقراطية، قوى سياسية وطنية، وعدالة اجتماعية تضمن الكرامة الإنسانية والسيادة الشاملة. أما ما دون ذلك، فستبقى الأوطان تُدار وفقًا للمصالح الشخصية، عبر تحالفات طبقية وعشائرية تمارس أشكالًا من الحكم القهري والاستبداد السياسي، الذي لا يملك أفقًا حقيقيًا للاستمرار مهما طال أمده. ومن المتوقع أن تنعكس التفاعلات الراهنة ونتائجها على الواقع الاجتماعي والسياسي بشكل مكثف، وأن تفرض مساحات جديدة لفتح نقاشات وطنية صريحة، بعيدًا عن التزييف الإعلامي والسياسي، وتسمية الأشياء بمسمياتها، وإعادة تعريف مفاهيم الدولة والسيادة والاستقلال، وكيفية صيانة الكيان الوطني دون التنازل عن السيادة أو الارتهان للمشاريع الاستعمارية. ومن البديهي القول إن معضلة الواقع الخليجي تكمن في غياب حركة وطنية تقدمية تمتلك برنامجًا واضحًا، وأهدافًا محددة، وآليات فعّالة تُفضي إلى بلورة مشروع وطني متكامل، قادر على بناء تحالفات اجتماعية واسعة تستند إلى أسس موضوعية تنبع من المصالح الإستراتيجية العليا للجماهير، بما لا يترك مجالًا للبس أو الغموض. إن هذا الفراغ يسمح للأنظمة المتواطئة مع المشروعين الإمبريالي والصهيوني بالاستمرار في أداء دورها التقليدي في التضليل، وإجهاض أي توجهات وطنية حقيقية. ولا يمكن، بطبيعة الحال، فصل الأزمة الخليجية عن المأزق العربي العام، إذ إن معالجتها لن تكون ممكنة إلا ضمن إطار قومي أوسع وشامل. وعلى الرغم من الاختلالات البنيوية والضغوط المستمرة، لا يزال الرهان قائماً على وعي الجماهير الشعبية، ويقظتها، ووحدتها التنظيمية، باعتبارها القوة الحاسمة في معادلة التغيير. كما يُعول على صوت الوطنيين الشرفاء، الذين، رغم القيود المفروضة على الحياة الحزبية ومصادرة الفعل السياسي الديمقراطي، يواصلون نضالهم، من أجل فتح أفق ديمقراطي تقدمي يعيد الاعتبار للحركة الوطنية، ويؤسس لمسار ايديولوجي وسياسي بديل.

سلاح المخيمات الفلسطينية في لبنان هوية نضالية وأجندات سياسية

حمزة البشتاوي - كاتب وإعلامي فلسطيني ـ لبنان

يعود الوجود الفلسطيني في لبنان إلى نكبة العام 1948 وتهجير الفلسطينيين قسراً من ديارهم، بحيث توجه نحو 100 ألف منهم باتجاه لبنان الدولة المجاورة لفلسطين، ويقدر عددهم اليوم وفق بيانات وكالة الأونروا بنحو 450 ألف، ولكن بيانات صدرت عن لجنة الحوار اللبناني الفلسطيني قالت بعد إحصاء أجرته بشكل مشترك مع دائرة الإحصاء المركزي الفلسطيني إن عدد اللاجئين الفلسطينيين في لبنان يبلغ 175 ألف نسمة.

وفي ظل الأوضاع السياسية والأمنية على مستوى لبنان والمنطقة وتفاقم الحالة المأساوية التي يعيشها اللاجئون الفلسطينيون في المخيمات، على صعيد الحرمان من الحقوق الاجتماعية والإنسانية والقانونية والمعيشية التي تزداد صعوبة، طرحت مسألة السلاح الفلسطيني في المخيمات، وهو الذي كان مرتبطاً لعقود بـ (اتفاق القاهرة) الذي وقعته منظمة التحرير الفلسطينية مع الدولة اللبنانية في العام 1969، وقد سمح هذا الاتفاق لفصائل الثورة الفلسطينية، بالتنقل داخل الأراضي اللبنانية والتسلح ضمن المخيمات وتولي شؤونها المحلية والأمنية، والكفاح المسلح ضد الاحتلال الإسرائيلي انطلاقاً من جنوب لبنان.

وفي العام 1987 ألغى لبنان اتفاق القاهرة دون إيجاد بديل له، رغم الضرورة والحاجة المشتركة لتنظيم أوضاع اللاجئين الفلسطينيين في لبنان، بما يخدم العلاقات الأخوية بينهم،

وذلك عبر سلوك طريق الحقوق والواجبات وهو الطريق الأسهل لتنظيم كل ما يتعلق بالوجود الفلسطيني في لبنان كرزمة واحدة، وليس فقط موضوع السلاح الذي يجري الحديث عنه وسط تحديات معقدة، وضرورة أن يكون للدولة اللبنانية حقها في فرض سيادتها على كامل أراضيها، وهذا الأمر لا يتعارض مع إعطاء الفلسطينيين في لبنان حقوقهم على المستوى الإنساني والاقتصادي والسياسي، بما يضمن حقهم بالنضال من أجل العودة إلى ديارهم في فلسطين.

وطرحت مسألة السلاح الفلسطيني في المخيمات، بشكل حاد منذ زيارة الرئيس محمود عباس إلى لبنان في 21 أيار الماضي، وسط تساؤلات جوهرية حول الأجندات السياسية والدور الخارجي في هذه المسألة التي تستدعي أولاً التوصل إلى موقف وطني موحد يرفض مشاريع التصفية ويحصن المخيمات، خاصة مع الإشارة بأن مسألة السلاح جاءت في توقيت ملتبس، ودون طرح مشروع متكامل اجتماعي، وإنساني، وأمني، وسياسي، يعيد تنظيم الوجود الفلسطيني في لبنان، من خلال حوار يستند إلى تفاهمات أساسها احتضان المخيمات وليس تفكيكها، وحماية اللاجئين الفلسطينيين وهويتهم الوطنية التي يتمسكون بها لمواجهة كافة مشاريع التوطين والتهجير.

وبعيداً عما حصل من تحديد جداول زمنية لتسليم السلاح، دون تحديد ما هو السلاح وما هي آلية تسليمه، إضافة لعدم وجود تفاهمات فلسطينية مشتركة، تم التأجيل لأسباب تقنية وفق ما أعلن، وكذلك لأسباب تتعلق بأوضاع داخلية في صفوف حركة فتح والتي أدت إلى صدور قرارات وتغييرات طالت عدد من مسؤولي الحركة في الساحة اللبنانية، وفي مقابل ما حصل من التباسات في الساحة الفلسطينية، قدمت فصائل فلسطينية رئيسية، كالجبهة الشعبية وتحالف القوى الفلسطينية إضافة للقوى الإسلامية، انطلاقاً من ضرورة الوصول إلى تفاهمات لا تتعارض مع السيادة اللبنانية وحقوق اللاجئين، تصوراً دعته فيه إلى إجراء حوار لبناني فلسطيني مشترك، ذي طابع سياسي بين لجنة رسمية لبنانية وهيئة العمل الفلسطيني المشترك التي تجسد الموقف الفلسطيني الموحد، وذلك من أجل العمل على إقرار ومنح اللاجئين الفلسطينيين في لبنان الحقوق الإنسانية، والتمسك بوكالة الأونروا كشاهد على حق العودة وقضية اللاجئين، ودعم بقائها واستمرار عملها، وتأخذ رؤية هذه الفصائل بعين الاعتبار، عودة الحديث عن السلاح الفلسطيني في المخيمات، باعتباره من أكثر الملفات حساسية والحديث في شأنه، لا يزال محفوفاً بالكثير من التحديات الأمنية والسياسية.

وإضافة لهذه الرؤية حول تنظيم وضبط السلاح في المخيمات، يوجد لدى الناس أيضاً رؤية تعتبر فيها السلاح المرتبط بالوعي والفكرة، هو روح مقاومة متجذرة وهوية راسخة وإرث نضالي مستمر، ومرتبط أيضاً بالأمل والقدرة على الصمود، وذلك بعد أن جربوا التخلي عن السلاح بعد الاجتياح الإسرائيلي عام 1982، ومغادرة مقاتلي الثورة الفلسطينية لبيروت مقابل تعهد (إسرائيل) بعدم الاعتداء على المدنيين، وعدم المس بمخيمات اللاجئين، وذلك بضمانة أمريكية مباشرة عبر الوسيط الأميركي في ذلك الوقت فيليب حبيب، ورغم ذلك ارتكبت القوات الإسرائيلية وعملاؤها، أبشع مجزرة في التاريخ وهي مجزرة صبرا وشاتيلا، كما اجتاحت قوات الاحتلال مدينة بيروت بشطريها الشرقي والغربي وفعلت ما فعلت قبل أن يعاود اللبنانيون استئناف المقاومة.

وليس بعيداً عما حدث في لبنان في العام 1982 فإن (إسرائيل) تخرق اتفاق وقف إطلاق النار المبرم مع لبنان يومياً على الرغم من عدم تعرضها لأية هجمات منذ شهور عديدة، كما أن القوات الإسرائيلية تستبيح سوريا أرضاً وجواً منذ بداية الحرب على غزة وحتى الآن، وخلافاً لاتفاق الهدنة المبرم سنة 1974، وذلك دون أن يكون ثمة هجمات مصدرها سوريا، بل لا يوجد أصلاً فى سوريا أي سلاح للمقاومة ولا أية فصائل تنشط هناك. وفي الضفة الغربية ثمة مثال أكثر وضوحاً إذ تستبيح القوات الإسرائيلية أراضي الضفة منذ العام 2002 عندما حاصرت مقر المقاطعة وظل الرئيس ياسر عرفات بداخله حتى استشهد اغتيالاً بالسم الإسرائيلي، والحال ذاته حتى اليوم في الضفة، إذ ليس فيها صواريخ ولا هجمات ولا ما يهدد الإسرائيليين ومع ذلك فإن العمليات العسكرية هناك مستمرة منذ عدة شهور.

الشواهد التاريخية كثيرة في هذا المجال ويعتقد الكثيرون من الناس غير المطمئنين لدعوات سحب السلاح أنه في اللحظة التي ستسلم فيها السلاح فإن مشهد بيروت في أواخر العام 1982 قد يتكرر مرة أخرى.

تداعيات العدوان الصهيوأمريكي على إيران والإقليم !..

محمد صوان ـ كاتب سياسي فلسطيني ـ تركيا

توقف العدوان الصهيوأمريكي على إيران، أو « حرب ال12 يوماً » بإعلان وقف إطلاق نار بصورة مفاجئة.. وفور وقف القصف المتبادل، شرعت مراكز البحث والاستقصاء بتحليل وقراءة مشاهد الحرب وتداعياتها على الإقليم والعالم، في محاولة لسبر كينونة المشهد المستقبلي على الصعيدين الإقليمي والأمني !..

القراءة الأولية تشير إلى أن أي طرف لم يتمكن من توجيه الضربة الحاسمة إلى خصمه، فقد تمكن العدو الصهيوأمريكي من تدمير قسم كبير من قدرات إيران النووية والصاروخية، من خلال إلحاق أضرار كبيرة بالمنشآت النووية في مفاعلات «نطنز وفوردو وأصفهان»، وفي بداية الأمر لم تكن الضربات «الإسرائيلية» بالقوة المطلوبة لتدمير تلك المفاعلات مما استدعى تدخّل الولايات المتحدة الأمريكية بصورة مباشرة، عبر استخدام قنابل شديدة التطور خارقة للتحصينات، تحت الأرض لنسف بنية المفاعلات من جذورها!.. بيْد أن هذا لم يصل إلى مرحلة الإجهاز على البرنامج النووي الإيراني بصورة كاملة، أو تحطيم القدرات الصاروخية الإيرانية، فضلاً عن فشل إسقاط النظام في طهران كما راج في تصريحات الصهاينة وحلفائهم الأمريكان أثناء أيام الحرب !..

وبالمقابل تمكنت إيران من الثبات والصمود في مواجهة العدوان الصهيوأمريكي، واستيعاب المفاجأة في الضربات «الإسرائيلية» وتحطيم نظرية «الردع الإسرائيلي» وأمطرت المدن في فلسطين المحتلة من شمال البلاد إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها، بوابل من الصواريخ البالستية بمشهد نادر الحدوث في تاريخ «كيان الاحتلال الصهيوني»، رغم أنف «القبة الحديدية» التي لم تنجح بوقف انهمار الصواريخ الإيرانية داخل عمق «كيان الاحتلال» مما دفع مئات الآلاف من المستوطنين إلى البقاء في الملاجئ ساعات طويلة مع دويّ صفارات الإنذار بشكل دائم، ومع حالة شلل أصابت مرافق الحياة في معظم المغتصبات الصهيونية !..

- الاستدارة الإيرانية نحو الداخل :

من المتوقع أن تلتفت الحكومة الإيرانية إلى الداخل الإيراني لتدارك خسائرها ولملمة أوراقها المبعثرة، بعد اهتزاز حلمها في بناء مشروعها النووي الذي أنفقت عليه أموالاً طائلة خلال العقدين الماضيين، وبعد التراجع الذي أصاب حلفاءها في عدد من البلدان العربية.. لقد تمدد النفوذ الإيراني في الإقليم بصورة ناعمة وهادئة عبر الهيمنة وعبر نسج تحالفات مع ركائز نخبوية وكيانات سياسية كانت علاقتها بطهران قائمة على التحالف، وبما عرف بـ «محور المقاومة» بيد أن التكلفة فاقت بكثير العوائد .. وهو ما يستتبع مواجهة الحكومة الإيرانية لأسئلة وجودية كبرى في الداخل الإيراني.. مثل الأسس الأيديولوجية الصلبة التي قام عليها «نظام الجمهورية الإسلامية» منذ نشأته عام 1979 واستمد منها شرعيته طوال العقود الماضية.. ومثل المواجهة المفتوحة مع «الشيطان الأكبر» وضرورة التصدي لقوى الاستكبار الدولية، والإنفاق

على برنامج التسلح النووي، ودعم الحلفاء في بعض البلدان العربية على حساب المشروعات التنموية !..

منذ وقف إطلاق النار والجدال محتدم ويدور حول العودة إلى المسار الدبلوماسي، واستئناف المفاوضات حول البرنامج النووي.. لكن اللافت أن هذا يأتي مصحوباً بصخب لفظي متعدد الأطراف، ويتمثل بالتراشق المتبادل بين المسؤولين الإيرانيين ومسؤولي الوكالة الدولية للطاقة النووية، فبعد نعتها بسيل من الاتهامات وتوفير المبررات للعدوان الصهيوأمريكي على إيران بسلوكها «الهدّام» بحسب تعبير الرئيس الإيراني بزشكيان، أعلنت إيران رسمياً تعليق التعاون مع وكالة الطاقة الدولية، بموجب قانون أقرّه البرلمان الإيراني في خطوة تصعيدية فاقمت التوتر بين إيران والوكالة من جهة، وإيران وأمريكا وأوروبا من جهة أخرى، حيث توالت التصريحات الغربية المستنكرة للخطة الإيرانية، وامتدادها إلى روسيا والصين اللتين تحتفظان بمسافة كبيرة عن دول حلف شمال الأطلسي «الناتو» غير أنهما حذرتا طهران من مغبة «تقليص» التعاون مع وكالة الطاقة الدولية !..

· هل تعود «إسرائيل» إلى الحرب مجدداً ؟ :

ذكرت صحيفة «وول ستريت جورنال» الأمريكية يوم 2025/7/12، أن الرئيس ترامب أعرب عن أمله في أن لا تشن المزيد من الهجمات على إيران قائلاً: «لا أرغب في فعل ذلك» غير أن نتنياهو أخبره في زيارته الأخيرة للبيت الأبيض أنه «في حال استأنفت إيران سعيها نحو امتلاك سلاح نووي، فإن حكومته ستشن المزيد من الضربات العسكرية».. وجاء في تصريح لمستشار نتنياهو الشخصي رون درايمر: «أن إسرائيل قادرة على منع إيران من الانطلاق نحو امتلاك قنبلة نووية على المدى القصير، عبر مواصلة العمليات السرية التي تستهدف كبار العلماء النوويين وغيرهم من القادة «!.

يذهب بعض المحللين والمهتمين إلى القول: «إن الخطر الذي يواجه ترامب في سعيه للوصول إلى حل دبلوماسي يتمثل في إسرائيل القادرة على تعطيل أي حل لا يناسبها، عبر لجوئها لخطوات تصعيدية، وفرض رؤيتها». وقال غابرييل نورونا المستشار السابق في إدارة ترامب الأولى « -2017 2021 «: «أعتقد أن ترامب يريد أن تنتهي مشكلة إيران، وأن لا يكون هناك تخصيب جديد، مقابل المرونة في قضايا أخرى».. ورأت صحيفة «وول ستريت جورنال»:

«أن رفض طهران طلب ترامب التخلي عن التخصيب، واستئناف أنشطتها النووية ، يعني أن تجدد إسرائيل ضرباتها، وربما تشاركها الإدارة الأمريكية، مما يهدد بقاء النظام الإيراني نفسه «!.

بدوره أعلن المرشد الإيراني علي خامنئي، على منصة إكس يوم 2025/7/11: «وجّهت إيران صفعة قوية لأمريكا، وهاجمت إحدى قواعدها المهمة في المنطقة وهي قاعدة العيديد، وألحقت بها أضراراً»، معتبراً ذلك ليس حادثاً صغيراً، بل كبير ويمكن أن يتكرر» وأضاف أن «إيران يمكنها الوصول إلى أماكن ومراكز أمريكية مهمة في المنطقة واتخاذ إجراءات ضدها عندما ترى ذلك ضرورياً» وكانت دولة قطر قد أدانت الهجوم الذي استهدف قادة العيديد الجوية من الحرس الثوري الإيراني، واعتبرته «انتهاكاً صارخاً لسيادتها ومجالها الجوي» وأكدت قطر عقب الضربة يوم 2025/6/23: «أنها تحتفظ بحق الرد المباشر بما يتناسب مع شكل هذا الاعتداء السافر وبما يتوافق مع القانون الدولي».

· انفتاح طهران على الحل الدبلوماسي :

في موازاة ذلك ورغم انفتاح طهران على الحل الدبلوماسي ومطالبتها بضمانات بألا تتعرض لمزيد من القصف، مقابل استئناف المفاوضات، نقل موقع أكسيوس الأمريكي يوم 2025/7/12 أن الرئيس الروسي بوتين أبلغ الرئيسين ترامب وبزشكيان أنه يدعم فكرة «الاتفاق النووي» الذي لا تستطيع طهران بموجبه تخصيب اليورانيوم، وفي الوقت الذي تدافع فيه موسكو علناً عن حق طهران بالتخصيب، اتخذ الرئيس بوتين - في السر – موقفاً أكثر صرامة في أعقاب العدوان الصهيوأمريكي على إيران، ووفق ثلاثة مسؤولين أوربيين تحدثوا لـ «موقع أكسيوس» أن «موسكو شجعت طهران على الموافقة على عدم تخصيب اليورانيوم»، إذ أعرب الرئيس بوتين عن هذا الموقف في مكالمات هاتفية مع الرئيس الفرنسي ماكرون، وبحسب نفس المصدر أنه: «في حال عقدت المفاوضات، فإن عدم التخصيب على الأراضي الإيرانية، سيكون أحد المطالب الأمريكية».. علماً أن إيران تصر على الاحتفاظ بالقدرة على التخصيب بموجب أي اتفاق، وبحسب «موقع أكسيوس» فإن المسؤولين الروس أكدوا دعمهم لصفقة «صفر تخصيب» إلى الجانب الإيراني عدة مرات في الأسابيع القليلة الماضية، وبحسب مفوّضة الشؤون الخارجية في الاتحاد الأوربي: «أن الرئيس بوتين يدعم التخصيب الصفري، وشجع طهران على العمل من أجل جعل المفاوضات مع واشنطن أكثر ملاءمة» غير أن الإيرانيين قالوا: «إنهم لم يفكروا في الأمر!»

· خلاصة القول :

تظل عوامل المواجهة العسكرية بين طهران وتل أبيب قائمة بصورة كاملة، وفي مقدمها البرنامج النووي الإيراني الذي يمثل محور الصراع، مما يشير إلى أن هذه المواجهة التي انتهت باتفاق هش للهدنة، وغير واضح المعالم، وغير معلوم البنود، ويمكن اعتبار كل ما حدث جولة، ربما تتلوها جولات لاحقة، قد تكون أكثر شراسة وأشد عنفاً، في صراع مستعر ومفتوح من شأنه تحديد مصير ومستقبل المنطقة والإقليم لعقود قادمة، لقد تفجّر هذا الصراع في الأساس من أجل مد مظلة النفوذ، والهيمنة على مقدرات المنطقة والإقليم لتحديد اللاعب الإقليمي الأقوى، في ظل غياب كامل، وعجز شديد على التأثير في مجريات الصراع، ومحاولة تحجيم آثاره، من أصحاب الأرض والأوطان الأصليين، الذين يغطّون في سبات عميق، أو اكتفوا بالجلوس على مقاعد المتفرجين، أو بإطلاق هتافات المشجعين في أفضل الأحوال !..

هندسة الشرق الأوسط الجديد تحت مطرقة التغيير

د. علي زيدان – باحث وكاتب سياسي من لبنان

منذ انتهاء المواجهات الحربية في جنوب لبنان بين الكيان الصهيوني وحزب الله اللبناني، وتوقيع اتفاق وقف إطلاق النار تصاعدت تصريحات رئيس حكومة الكيان الصهيوني عن الشرق الأوسط الجديد، وأن الوقت قد حان لهذا التغيير المنتظر. لقد ترافقت هذه التصريحات بهجمات عسكرية صهيونية غير مسبوقة، استهدفت المقاومة في لبنان وإيران وسوريا واليمن بالإضافة إلى حرب الإبادة المستمرة في غزة ومناطق الضفة الغربية المحتلة. وينبغي القول إن الكيان الصهيوني حقق إنجازات مهمة خلال هذه المعارك بدعم أمريكي وغربي مباشر وغير مباشر وصمت عربي إن لم يكن أكثر.

الجدير بالذكر أن الحديث عن الشرق الأوسط الجديد والتغييرات المنشودة ظل مجرد حديث غير قابل للتحقيق، بسبب وجود قوى المقاومة، خصوصاً الدور المحوري الذي قام به حزب الله في لبنان والمنطقة. لقد أشار لذلك بوضوح السفير مارتن أنديك في محاضرة له بأستراليا عام 2006، حيث قال إن فشل مخططات الإدارة الأمريكية في تغيير الشرق الأوسط وفرض التحولات الكبرى خلال حرب لبنان الثانية عام 2006 يعود إلى وجود حزب الله في لبنان ومواجهته لهذا المشروع[1]. غير أن تطور الأحداث في المنطقة العربية وتسارعها رسم مجرى آخر، وبرز إلى العلن مصطلح الربيع العربي، الذي سعت من خلاله مجموعات غير متجانسة للمطالبة بالحرية والديمقراطية والتغيير في أنظمة الحكم. وقد تطورت هذه المطالب في عدد من الدول العربية إلى ثورات مسلحة مدعومة من تحالف تقوده الإدارة الأمريكية يضم معظم الدول الغربية، وتركيا وبعض الدول العربية. وينبغي القول إن هذا التحالف الأمريكي الصهيوني قد شكل القوة الدافعة وراء العديد من هذه الثورات وذلك بهدف إعادة ترتيب المنطقة بما يضمن أمن الكيان الصهيوني وتفوقه الإقليمي، ناهيك عن السيطرة على مصادر الطاقة والاقتصاد. في هذه المرحلة أيضاً ساهم حزب الله، وبدعم إيراني وروسي، في مواجهة مشروع التغيير ذاك، خصوصاً في سوريا، وإفشال مخططات التقسيم والتجزئة، وأعاد خلط الأوراق والخرائط مرة أخرى. وهكذا يُمكن القول إن المقاومة اللبنانية ساهمت بإفشال مخططات الربيع العربي المزعوم. وعلى هذا الأساس، ظل التحالف الأمريكي الصهيوني يعتبر أن المقاومة اللبنانية هي القائد الفعلي لجبهة المقاومة والمحرك الرئيس في مواجهة المشروع الصهيوني الأمريكي في المنطقة، والعقبة الرئيسة أمام تحقيق المشاريع المطروحة لتغيير الشرق الأوسط الجديد. لذلك بات من الواضح أن ما تهدف إليه الحرب على الجانب اللبناني هو إضعاف حزب الله والمقاومة التي تهدد أمن الكيان الصهيوني وتشكل داعماً رئيساً للمقاومة الفلسطينية في غزة. والتي كانت حرب الإسناد الأخيرة أحد وجوهها. لقد ترافقت الحرب العسكرية على لبنان مع ضغوط سياسية واقتصادية هائلة دفعت البلاد نحو الهاوية، وذلك بهدف تحريض المجتمع المحلي ضد المقاومة وكسرها، وإعادة ترتيب المنطقة. لقد استمرت الحرب حتى الآن من طرف واحد، حيث ما زالت طائرات الكيان الصهيوني ومسيراته الحربية تجوب الأجواء تقصف وتدمر أي أهداف يُعتقد أنها تخص المقاومة على طول الأراضي اللبنانية وعرضها، وتستهدف المقاومين وتغتالهم وذلك دون احتجاج ومعارضة، بالرغم

من اتفاقية وقف إطلاق النار، التي بقيت حبراً على ورق، برعاية الولايات المتحدة وفرنسا وبعض الدول العربية التي تمثل دور شاهد لا يرى ولا يسمع. في سوريا كانت المنهجية مختلفة تماماً، إذ تم استخدام الفوضى الهدامة كأداة للتغيير، من خلال التدخلات الخارجية ودعم الجماعات المختلفة ما أدى إلى تفتيت الدولة السورية وإضعافها بشكل كبير، ومحاولة تقسيمها إلى مناطق نفوذ تخدم مصالح الكيان الصهيوني. وقد تطورت هذه المحاولات إلى الوضع القائم كما يجري الآن من فتن طائفية وعشائرية، وتدخل صهيوني مباشر من خلال إعلان الحماية للطائفة الدرزية العربية وربطها بالطائفة الدرزية داخل الكيان الصهيوني. وقد شمل التغيير الإستراتيجي تركيبة النظام السياسي وتفكيك الجيش. هذا التغيير دفع الكيان الصهيوني لاتخاذ خطوات أوسع لتغيير شامل في المنطقة، شمل تدمير منشآت الجيش ومقدراته العسكرية والإستراتيجية، وأكثر من ذلك إثارة الفتن المذهبية والطائفية التي تهدف إلى تفتيت الدولة السورية وتجزيئها إلى دويلات متناحرة، تكون فيها الغلبة للكيان الصهيوني. بالإضافة إلى ذلك، فإن الاستهداف العسكري المباشر لإيران ومحاولات قلب النظام بات يُعتبر هدفاً مركزياً في أجندة الشرق الأوسط الجديد، خاصة وأن إيران هي الداعم الرئيس لجبهة المقاومة في المنطقة والتي تعارض الهيمنة الأمريكية الصهيونية. لذلك فإن الحرب على إيران جاءت تتويجاً للعقوبات الاقتصادية الخانقة، وتحت شعار تقويض برنامج الصواريخ الباليستية والبرنامج النووي، وترافقت مع اغتيال قادة وعلماء بارزين، إلا أنها تهدف في الأساس إلى تغيير التحالفات وموازين القوى في المنطقة، وإعادة تشكيلها بشكل جذري. الجدير بالذكر هنا، أن الكيان الصهيوني وحلفاءه كانوا ينظرون إلى قوى المقاومة في المنطقة كوحدة واحدة متماسكة، ينبغي تفتيتها والتعامل مع كل قوة على انفراد. لقد نجح التحالف المعادي عملياً في هذه الإستراتيجية، وكان لها الأثر الأكبر على قوى المقاومة، وكانت حسابات قوى المقاومة السياسية لا تتطابق مع المتطلبات الميدانية. هذه الهجمة الشرسة كشفت نقاط الضعف الكثيرة التي شابت تحالف قوى المقاومة، ما عَرّضها إلى ضربات عسكرية مفاجئة في لبنان وإيران وسوريا واليمن، وأدت إلى خسائر كبيرة وحيّدت معظم تلك القوى باستثناء اليمن، التي ما زالت قواتها تساهم في فرض الحصار على الكيان الصهيوني، واستهداف مواقعه الإستراتيجية كلما سنحت الفرصة. هذه الأحداث المركبة بدأت ترسم منحنىً جديداً للتغيير في الشرق الأوسط، ترافق مع دعاية واسعة من الكيان الصهيوني بأنهم يغيرون الشرق الأوسط إلى الأبد، ويرسمون عالماً جديداً تسود فيه العدالة والحرية والديمقراطية، وذلك برعاية ومشاركة أمريكية وعربية. أمام هذا الواقع الجديد، كيف ينظر التحالف الأمريكي الصهيوني إلى خارطة الشرق الأوسط الجديد؟ لا شك أن هذه الأحداث والمعارك العسكرية المتسارعة هنا وهنالك تهدف إلى إعادة تشكيل الخارطة الجيوسياسية للمنطقة بما يعزز وجود ونفوذ الكيان الصهيوني، حيث أن الحديث السابق عن الشرق الأوسط الجديد لم يعد مجرد دراسات وتنظيرات في دوائر القرار الصهيوني الأمريكي. بل أصبح أمراً واقعاً يجري العمل على تنفيذه تحت مطرقة التغيير التي تضرب بقسوة تاركة خلفها صراعات مريرة وتحالفات جديدة وتوازنات بين قوى مختلفة عما كان شائعاً منذ زمن قريب، وأن هذا العمل العسكري هو الأداة الرئيسة لهندسة الشرق الأوسط الجديد. في قلب هذا التغيير، وتداعيات حروبه في المنطقة، يبرز من جديد مفهوم تحالف الأقليات[2] كأحد الأدوات الإستراتيجية التي تُعيد رسم المشهد. والجدير ذكره أن هذا المفهوم يعود إلى عشرينات وثلاثينات القرن الماضي حين سعى منظرو الحركة الصهيونية إلى بناء جسور وتحالفات مع الأقليات العرقية والدينية في المنطقة، بهدف تجزئة الدول العربية الكبرى ودعم الحركات الانفصالية وتوفير حلفاء محتملين في مناطق إستراتيجية يمكن استخدامها في الوقت المناسب، والتاريخ القريب حافل بهذه الأمثلة. على سبيل المثال، دعم الحركات الانفصالية في السودان والعراق وغير ذلك. من دون أدنى شك فإن هذه الإستراتيجية تُشكل خطراً على وحدة الدول المستهدفة، وتؤدي إلى مزيد من التقسيم والصراعات الداخلية. والجدير ذكره أيضاً أن هذا المفهوم يتماهى مع الطروحات التي قدمها المستشرق برنارد لويس لتقسيم المنطقة وفقاً لأسس مذهبية ودينية وهو ما تبناه وروج له المحافظون الجدد في الإدارة الأمريكية.

اليوم، تقع منطقة الشرق الأوسط بتقسيماتها القديمة التي رسمتها اتفاقيات سايكس بيكو تحت مطرقة التغيير وتقف على مفترق طرق حرج جداً، حيث تتم هندستها بأدوات عسكرية وحشية غير مسبوقة. ودون أدنى اعتبار للقيم الإنسانية في تجويع وإبادة المدنيين العزل في قطاع غزة. وفي هذا الإطار فإن آفاق المرحلة الجديدة ترسم العديد من الاحتمالات أهمها:

أ. استمرار الصراع مع الكيان الصهيوني وحلفائه من خلال صمود المقاومة الفلسطينية في غزة والضفة أمام محاولات فرض النفوذ وإحداث تغيير في موازين القوى.

ب. تحالفات جديدة وغير مستقرة، حيث تبرز إلى الوجود قوى انفصالية جديدة تجد نفسها حليفة للكيان الصهيوني في مواجهة تهديدات مشتركة، والعكس صحيح. بروز تحالفات إقليمية جديدة، مثل التطبيع الأخير بين إسرائيل وبعض الدول العربية، يعكس هذا الواقع المتوتر والمتغير.

ج. ظهور كيانات سياسية مستقلة أو شبه مستقلة نتيجة للتدخلات الخارجية المستمرة.

لا شك إن عملية ولادة الشرق الأوسط الجديد وفقاً لمصالح التحالف الأمريكي الصهيوني هي عملية معقدة سوف تستغرق وقتاً ليس قصيراً ولا يمكن التنبؤ بمستقبله. غير أن المنطقة سوف تبقى مضطربة إلى أن يُمنى المشروع الصهيوني وحلفاؤه بالهزيمة الحتمية.

Martin Indyk. Is a "New Middle East"[1] Possible? Lowy Institute for International Policy. www.Loweyinstitute.org. Aug. 2006.

[2] رؤوفين إرليخ. المتاهة اللبنانية، سياسة الحركة الصهيونية ودولة إسرائيل تجاه لبنان (1918 – 1958). تعريب محمد بدير. طبعة جديدة 2024.

مشروع نتنياهو/ترامب- سايكس/ بيكو جديد

أحمد عويدات - كاتب فلسطيني - السويد

ما بدأ في غزة لن ينتهي عند حدود غزة أو الضفة الغربية. هذه حقيقة لا تحتاج إلى تمحيص أو تحليل، ولا أدلة دامغة أو براهين ساطعة، فالتاريخ الصهيوني مليء بها، وتصاريح قادة الكيان ملأت الأسماع ضجيجا بها، ونفثوا سمومهم على كل الصفحات والشاشات والمنصات المحلية والإقليمية والعالمية؛ بأن تهديد الأمن الوطني والقومي العربي والإقليمي، وتفتيت الأمة إلى كيانات وإمارات طائفية، وأهمها اجتثاث الوجود الفلسطيني هو صلب ما يدور في فلك السياسة الترامبيّة النتنياهويّة.

فالقتل قصفاً وتجويعاً وحصاراً، وبكل أشكال الإبادة، ليس الهدف فحسب، بل هو الأداة الأولى التي يسعى مشروع ترامب / نتنياهو - وبمعونة وتخاذل وصمت حكامنا الأفاضل الغارقين بالترف والعيش الرغيد بينما يموت أطفال غزة تجويعاً - الوصول إلى ذلك المشهد الجيوسياسي، والذي يضمن مصالحهم التوسعية والاستعمارية في المنطقة.

الواضح تماما أن التاريخ يعيد نفسه، ولكن بأسماء وتواريخ، وربما مشاهد وأحداث جديدة. والذي يبدو أننا سنترحم على سايكس الإنكليزي وبيكو الفرنسي، مهندسي الاتفاقية التي سميت باسميهما قبل 100 عام لأن القادم أسوأ. فإذا كانت اتفاقية سايكس بيكو قد أفضت إلى تقسيم المنطقة، التي وُرثتْ عن السلطنة العثمانية بعدما ضعفت، إلى كيانات وطنية وقومية حملت أسماء الدول العربية التي نشهدها اليوم ؛ فإن توم براك المبعوث الأميركي لسورية - أو ربما الحاكم العسكري الجديد للمنطقة، ولو مؤقتا - كشف عن تقسيمٍ جديدٍ لبلاد الشام؛ يقوم على أسس طائفية ومذهبية وعرقية ناسفاً بذلك تلك الحقبة من عهد الدول الوطنية والقومية ومؤسساً بتصريحاته الغريبة العجيبة، بوحي من إدارته، لإقامة كانتونات طائفية ومذهبية وعرقية، والتي لن تقتصر على الدول العربية الحالية فحسب، بل ستشمل دول الإقليم مثل إيران وتركيا أيضا. وهذا لن يتم بسهولة، وبجرّة قلم، بل عبر افتعال معركة هنا ومعركة هناك، بل حروب قد تكون طاحنة تعقبها تسويات، وهُدن بين ملوك الطوائف، وسيسبق ذلك ماكينة إعلامية هائلة ستروج إلى ثقافة الانقسام والتفتيت تحت شعار حقوق الأقليات؛ تمهيدا لتصبح الطائفية العابرة للحدود أقرب بكثير من الانتماء الوطني والقومي في هذه الدول وهي الحل الأمثل – برأيهم - للسلم الأهلي والاستقرار؛ مثال ذلك شيعة لبنان والعراق وإيران، ودروز سورية ودروز فلسطين والكيان، و سنة تركيا وسوريا والسعودية.. هذا ما ستسعى إلى تنفيذه الدوائر الأميركية والإسرائيلية والغربية، بعد أن أوجدت أرضية خصبة له بعد بث بذور التفرقة والانقسام والتفتيت المجتمعي في المنطقة، وهذا من شأنه أن يسهم في تحقيق أهداف سياساتهم، وجعل المنطقة سوقا استثماريا للنهب الاستعماري الصهيوني الغربي الجديد، ويذهب بالقضية الفلسطينية إلى مهاوٍ سحيقةٍ من التجاهل والتهميش ثم النسيان ؛ وهذا في واقع الأمر هو التماهي الحقيقي مع المصالح الأمريكية التي ترى بالتقسيم وتهميش القضية

مرحلة مفيدة قد تمتد إلى عقود عديدة ؛ يصبح بها المواطن العربي، الذي كان يبحث عن فتات لقمة العيش، غريباً لا يحمل هويةً وطنية في كيانات ممزقة، أصبحت فيها الطائفية هي الحاكمة وهي الانتماء، وتصبح دولة الكيان مستقرة وآمنة، ومستغلة لخيرات المنطقة اقتصادياً وتجارياً وسياحياً، وسط بيئة صاخبة من الاحتراب الطائفي والمذهبي البيني، تعمل «إسرائيل» على تأجيج ناره كلما خمدت.

إن المتابع للسياسات الأميركية بإداراتها المتعاقبة، ديمقراطية أو جمهورية، والإدارة الإسرائيلية بكل أطيافها اليمينية واليسارية والمتطرفة الدينية يلمس أن تباشير هذا المشروع التقسيمي بدأت مع شمعون بيريز، رئيس وزراء دولة الكيان آنذاك حينما أطلق ما سمي «الشرق الأوسط الجديد» وما تبعه من اتفاقات وادي عربة، والاتفاقات الإبراهيمية التطبيعية مع دول الخليج والمغرب، وما رشح عن مشروع قناة بن غوريون، وطريق الحرير، وممر داود مؤخراً ؛ كلها تصب في قناة المشروع الجديد الذي أعلن عنه مراراً وتكراراً بنيامين نتنياهو، تحديداً من على منصة الأمم المتحدة، عندما تحدث عن محور «اللعنة» ومحور «النعمة»، وعرض لذلك الخريطة الخاصة بهذا المشروع ؛ والتي يضعها الجندي الإسرائيلي على ذراعه، والتي تشمل جزء من مصر وسيناء وغزة والضفة الغربية والأردن وسوريا، والعراق، حتى تصل «إسرائيل الكبرى» إلى وسط المملكة السعودية، ومنها إلى آسيا وأوروبا وبمشاركة الهند، كما يرغب ويخطط له ترامب ؛ لتقويض الطرق والخطط الصينية

للتجارة مع العالم.

وعليه، فإن كل هذا ما هو إلا نتائج لمقدمات، اشتد وقعها وكُشفت حقيقتها منذ 22 شهراً، ولكنها كانت قد بدأت منذ عقود ؛ عندما غيّر الكيان من تكتيكاته الدبلوماسية من «الأرض مقابل السلام» - التي دفع ثمنها إسحاق رابين، رئيس الوزراء آنذاك، والذي تم اغتياله - إلى «السلام مقابل السلام»، والآن في عهد نتنياهو «السلام مقابل الاستسلام». وهذا ما يجري في غزة الآن لإخضاع المقاومة على طاولة مفاوضات الدوحة من خلال تكثيف الضربات والغارات الجوية ضد المدنيين، ومنع المساعدات والإمعان، في سياسة التجويع والحصار ؛ لفرض واقع جديد تُمكّن المفاوض الإسرائيلي من إحداث خرق لصالح دولة الكيان، وهذا ما ما يجري ،أيضا، في لبنان ؛ حيث تجاوز كل خطوط ونقاط اتفاق وقف إطلاق النار وقرار ١٧٠١. والخضوع ذاته طُلب أيضا من الإدارة السورية في لقاءات باكو عاصمة أذربيجان، حيث لم تقبل دولة الكيان إلا إذعان الدولة السورية إلى شروطها، فقامت بتحريك شرذمة ميليشياوية من الطائفة الدرزية في جنوب سوريا ضد الدولة، والمكونات المجتمعية السورية الأخرى، وقامت بضرب مواقع ومناطق حساسة في العاصمة السورية دعماً لهؤلاء في مواجهة الدولة، وإثارة فتنة طائفية جديدة نتج عنها مئات الضحايا. حتى بالنسبة للولايات المتحدة تغيّر مفهوم السلام، وقد غاب الحديث عنه في مفردات الدبلوماسية الأمريكية، ولم نعد نسمع شيئاً عن دولة فلسطينية في عهد ترامب الحالي، ولم نسمع شيئاً فيما أقرته القمم العربية من مبادرة حل الدولتين في أروقة الإدارة الأميركية، التي على العكس وجّهت انتقادا حادا لما كان مزمعا عقده من مؤتمر في نيويورك، حول حل الدولتين، ترعاه كلٌ من فرنسا والمملكة السعودية، كما لم تعجب الإدارة الأمريكية تصريحات ماكرون الأخيرة للاعتراف بالدولة الفلسطينية في سبتمبر القادم.

إن هذه التغييرات التكتيكية السياسية تندرج في الإطار العام للإستراتيجية الإسرائيلية منذ تأسيس الكيان وطورتها الصهيونية الدينية المتطرفة، ممثلةً بنتنياهو وجناحيه بن غفير وسموتريتش ؛ هذه الإستراتيجية التي ما انفك الصهاينة بكل أطيافهم الدعوة إلى اجتثاث الوجود الفلسطيني، وإنهاء القضية الفلسطينية على حساب دول الجوار، إما بالتوطين أو التهجير أو الضم ؛ وذلك باستثمار الحالة الطائفية والمذهبية والعرقية التي يسعى إليها قادة الكيان مع الإدارة الأمريكية إلى تكريسها في المنطقة. وما تصويت الكنيست الإسرائيلي مؤخراً، بأغلبية ٧١ صوتا لفرض السيادة الإسرائيلية على الضفة الغربية وضمها، إلا امتداد وتكريس لهذه الإستراتيجية التوسعية العدوانية العنصرية الإحلالية . وقد سبق ذلك قانون القومية اليهودية، وقانون منع قيام دولة فلسطينية مستقلة، وقانون ضم القدس والجولان، واجراءات تهويد القرى والبلدات العربية، ومصادرة الأراضي، وتدمير مخيمات اللاجئين في طولكرم وجنين ونابلس، وتجاوز اتفاقات أوسلو مع السلطة، وما رافق ذلك من اعتداءات المستوطنين الممنهجة والمتكررة على السكان الآمنين العرب وممتلكاتهم.

وهنا، يبرز التساؤل، لماذا حدثت كل هذه المتغيرات والتطورات ؟ هل هناك خللٌ في ميزان القوى لصالح دولة الكيان والولايات المتحدة؟

في واقع الحال، استطاعت «إسرائيل» والولايات المتحدة نتيجةً لبعض الأخطاء الإستراتيجية التي ارتكبتها بعض القوى في المنطقة مثل إيران وحزب الله والسلطة الفلسطينية من تقويض بل تطويع المنطقة لحساباتها، ومن لم تقوضه عسكرياً من دول الطوق، فإن إمكانية تقويضه اقتصادياً وسياسياً ممكنة جداً لاحقاً. ولعل في تصريح اللواء غيورا آيلاند، رئيس مجلس الأمن القومي الإسرائيلي السابق ما يؤكد هذه الحقيقة : « لو أن حزب الله دخل المعركة في السابع من أكتوبر لكان اللقاء مع حماس في تل أبيب». والعامل الأهم في هذه المعادلة، هو التعامي عن جرائم الإبادة الجماعية والتطهير العرقي، الذي تمارسه القوات الغازية الإسرائيلية ؛ الذي تمثّل بالصمت والتخاذل العربي والإسلامي والغربي، والذي شكل غطاء لدولة الكيان في استمرار حربها الإجرامية على الشعب الفلسطيني في غزة والضفة الغربية. والذي أخذ أحيانا أشكال التعاون عند البعض، والمطالبة بالقضاء على المقاومة بوصفها إرهاباً تهدد عروشهم ومصالحهم ؛ ما شكل تماهياً مع أهداف نتنياهو والإدارة الأمريكية.، كما لجأ هؤلاء إلى تقويض حركة الشعوب من التحرك لنجدة أهلنا في غزة وإيصال المساعدات الإغاثية لهم باستثناء أعداد قليلة مغاربية من ذوي النخوة والذين تعرضوا للضرب والإهانة من قبل بلطجية حفتر والسيسي، بينما شكلت المظاهرات المليونية الحاشدة في العواصم الغربية والاعتصامات في الجامعات والأكاديميات العالمية عاملاً محرجاً لهذه الأنظمة، وكشفت عن الهوة السحيقة بين الطبقة السياسية الحاكمة والفئات المجتمعية المختلفة ؛ إذ لم يجرؤ زعيم عربي واحد على المطالبة بفرض عقوبات على الكيان، بينما ذهبت أصوات أوروبية، وأخرى أمريكية لاتينية أبعد من ذلك، حيث قطعت بعضها العلاقات مع دولة الكيان، وتم طرد السفراء الصهاينة، وما البيان الذي أصدرته بريطانيا و 25 دولة مؤخراً إلا يصب في هذا السياق ،حيث طالبت هذه الدول بإدخال المساعدات فورا، ووقف إطلاق النار، وإنهاء الحرب، بينما لم تبادر الدول الإسلامية والعربية المطبعة إلى مجرد سحب سفرائها أو قطع علاقاتها الدبلوماسية أو التجارية والاقتصادية مع الكيان، بل عمدت إلى قمع شعوبها، ومنعها من أي تحرك يفضي إلى كسر الحصار، وإنهاء معاناة شعبنا التي فاقت كل المعايير الأخلاقية والإنسانية والدينية. إنه من المخجل والعار أن ترى تظاهرات إسرائيلية ترفع صور أطفال مجوّعين. وآخرين استشهدوا نتيجة سوء التغذية وعدم توفر الأدوية، بينما فرغت شوارع العواصم العربية من أي تحرك يُذكر سوى القليل منه في المغرب العربي واليمن. واللافت حقاً أن تبادر عشرات الألوف من العشائر العربية لنجدة بعضها من إخوانهم في السويداء السورية، بينما يتعرض أكثر من مليوني غزاوي إلى التجويع والتهجير والإبادة في غزة. وبدت فرانشيسكا ألبانيز، ممثلة حقوق الإنسان الأممية في الأراضي المحتلة، وكأنها الناطق الرسمي باسم الشعب الفلسطيني وباسم أهلنا في غزة، وبسبب مواقفها فُرضت عليها عقوبات أمريكية، بينما غاب الناطق العربي الرسمي للتعبير عن ما يُرتكب من مجازر وإبادة في غزة.

والعامل الثالث في اختلال موازين القوى لصالح دولة الكيان الولايات المتحدة، هو عجز العالم ممثلاً بهيئاته، ومنظماته الأممية عن تنفيذ القرارات الصادرة عنهم ؛ خاصة تلك التي طالبت باعتقال نتنياهو كمجرم حرب مع وزير دفاعه، وفشل المنظومة

الدولية بوضع قرارات الأمم المتحدة موضع التنفيذ ؛ خاصة تلك التي تتعلق بفك الحصار عن غزة، وإدخال المساعدات الإنسانية، وتفعيل البروتوكول الإنساني.

في نهاية المطاف، قدر هذه الأمة أن تواجه المخطط تلو الآخر، ولكن هذا الاستحقاق الآن يشكل أكبر وأخطر تحدٍ يواجه الأمة وشعوب المنطقة برمتها وعليه فإن المطلوب أولاً من أحرار الأمة والعالم - وبنداءٍ أخير قبل فوات الأوان - نصرة أهل غزة بفك حصار التجويع وإدخال المساعدات الإنسانية واللوجستية للمشافي، ودعم صمود المقاومة ؛ لأن هزيمة مشروع ترامب نتنياهو يبدأ من غزة. ثانيا، تكثيف المطالبات الدولية بوقف إطلاق النار وإنهاء الحرب واستخدام أدوات الضغط الحقيقي على الكيان وتفعيل العقوبات الاقتصادية والسياسية عليه. ثالثا، وقف كل أشكال التطبيع مع دولة الكيان، وسحب السفراء، ووقف كل العلاقات معها. رابعاً، تجاوز حالة الانقسام الفلسطيني، وإيقاف العمل باتفاقيات أوسلو، ووقف أي شكل من أشكال العلاقة مع الكيان الصهيوني والعودة إلى اتفاق بكين بين كافة فصائل العمل الوطني. خامساً، العمل على إنجاز مصالحات وتفاهمات تفضي إلى مزيد من اللُحمة المجتمعية، وتفويت الفرصة على المتربصين والقائمين على زرع الفتن والانقسامات الطائفية والمذهبية والعرقية، وهذا لا يتم ألا بنشر ثقافة التسامح والعيش المشترك والعدالة، والمساواة بين أبناء الوطن الواحد، و تعزيز الانتماء الوطني والقومي. سادساً، تفعيل قرارات الشرعية الدولية لحل القضية الفلسطينية حلاً عادلاً يضمن الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني، وعلى رأسها إقامة دولته المستقلة على ترابه الوطني، ورفض كل أشكال التهجير والتطهير العرقي، وتفعيل قرارات محكمة العدل الدولية والجنايات الدولية وتقديم المجرمين الصهاينة إلى العدالة.

من نافل القول، إذا كانت النتائج تلزم المقدمات حسب القاعدة الفلسفية الشهيرة، فإن الانقسام والفتن المجتمعية الطائفية والمذهبية والعرقية والصراعات الداخلية، هي مقدمات لمشروع ترامب نتنياهو الجديد، الذي يفضي إلى التقسيم والهيمنة الاستعمارية ؛ فالأجدر بنا أن نتجاوز هذه المقدمات؛ حتى لا تلزم تلك النتائج، سيما إننا في معركة وجود أو لا وجود.

(To be, or not to be).

«ألبانيز» والعقوبات الأميركية

منى عباس فضل ـ باحثة وكاتبة سياسية ـ البحرين

جاء اليوم الذي بتنا فيه شهودًا على ظاهرة مرعبة تتعلق بعدالة القانون الدولي والتي يُستوجب الوقوف عندها. إنها قضيّة جوهريّة ذات دلالات على التكوين البنيوي للإمبرياليّة المتوحشة وتمدّد نفوذها؛ وبما تُعبر عنه من أزمات أخلاقيّة واجتماعيّة واقتصاديّة وسياسيّة وذلك لارتباط شركاتها ومؤسساتها بمنظومة كيان العدو الصهيوني وآلته الأمنية والعسكرية.

الظاهرة المرعبة تتمثل في قضيّة المقررة الخاصة للأمم المتحدة المعنية بحقوق الإنسان في الأراضي الفلسطينية المحتلة «فرانشيسكا ألبانيز» التي فرضت عليها الإدارة الأميركيّة «عقوبات» لا لسبب سوى أنها مارست عملها وحكّمت ضميرها ومبادئها ووثقت تفاصيل الحرب و«الإبادة الإسرائيليّة للفلسطينيين في قطاع غزة» منذ أكتوبر/ تشرين الأول 2023، هذه الحرب التي تسببت بسقوط أكثر من 58 ألفاً و677 شهيدًا فلسطينيًا و150 ألف جريح أغلبهم أطفال ونساء وألقت فيها 125 طنًا من متفجرات دمرت 88 بالمئة من القطاع وخسائر تفوق 62 مليار دولار وتهجير مليوني مدني وكوارث مجاعة ستخلدها ذاكرة التاريخ.

ألبانيز لم تكتفِ في توثيقها الجرائم الإسرائيليّة في تقرير أو اثنين؛ إنما عدة تقارير أحدثها قدمته الشهر الماضي إلى مجلس حقوق الإنسان، اتهمت فيه أكثر من 60 شركة عالميّة من بينها شركات أسلحة معروفة كـ«لوكهيد مارتن الأمريكيّة» و«ليوناردو الإيطاليّة العاملة في الفضاء والدفاع والأمن»، و«كاتربيلر تي»، فهي ضالعة في تزويد إسرائيل بأسلحة ومعدّات تُسهل استخدام أدوات المراقبة، وتدعم مشروعها الاستعماري في تهجير الفلسطينيين واستبدالهم؛ ما يعني تحملها المسؤوليّة القانونيّة بإلحاق الدمار بغزة وتجويع أهلها وانتهاكات حقوق الإنسان فيها. المقررة لم تكتفِ بوصف المأساة وإنما طالبت بملاحقة الجهات والشخصيات الضالعة في جريمة الإبادة. ومنه يبقى السؤال مفتوحًا عن تداعيات هذه العقوبات وآثارها؟

التداعيّات

لا شك أن التداعيّات خطيرة ويمكن استنباطها من ردود الأفعال الشديدة التي عبر عنها وزير الخارجية الأميركي في وصفه جهود ألبانيز بغير الشرعيّة والمخزيّة لحثها المحكمة الجنائية الدوليّة على التحرك ضد مسؤولين وشركات ومديرين تنفيذيين أميركيين وإسرائيليين.. قال: لا تسامح مع حملتها بعد الآن من حرب سياسيّة واقتصاديّة على الولايات المتحدة وإسرائيل مؤكدًا مواصلتهم لاتخاذ أي خطوات ضروريّة، وأنهم سيقفون دائمًا مع شريكتهم إسرائيل في الدفاع عن النفس». الأخطر منه تهديدات البعثة الأميركيّة في الأمم المتحدة ومطالبتها بإقالة ألبانيز من منصبها متهمة إياها بـ «معاداة السامية» ومحذرة من أن عدم إقالتها سيضعف الأمم المتحدة وسيتطلب اتخاذ إجراءات جادة على سوء سلوكها، كما اتهمتها بتحريف مؤهلاتها وترخيصها المهني. الجدير بالذكر أنه سبق للولايات المتحدة أن فرضت عقوبات على أربع قاضيات في المحكمة الجنائية، على خلفية قضايا مرتبطة بمذكرة توقيف لنتنياهو ووزير دفاعه السابق، تحظر عليهن دخول الولايات المتحدة وتجميد أي أصول يملكنها فيها.

مقابل ذلك توالت الانتقادات الدوليّة

على لسان مسؤولي الأمم المتحدة كـ«ستيفان دوجاريك» الذي وجد إن استخدام العقوبات أحاديّة الجانب ضد المقررين الخاصين أو أي خبير أو مسؤول آخر في الأمم المتحدة يعد «سابقة خطيرة» و«أمراً غير مقبول»، موضحًا بأن هؤلاء لا يقدمون تقاريرهم إلى الأمين العام، وليس لديه سلطة عليهم أو على عملهم، وعليه يحق للدول الأعضاء التعبير عن آرائها والاختلاف مع تقاريرها، فيما أبدى رئيس مجلس حقوق الإنسان «يورغ لاوبر» أسفه قائلاً: «إن السيدة ألبانيز تم تعيينها بواسطة مجلس حقوق الإنسان، وإن المقررين الخاصين يُعدون أداة أساسيّة للمجلس في أداء ولايته المتمثلة في تعزيز وحماية جميع حقوق الإنسان في جميع أنحاء العالم، داعيًا إلى الامتناع عن أي أعمال ترهيب أو انتقام ضدهم»؛ أما المفوض السامي «فولكر تورك» فقد حث على التراجع الفوري عن العقوبات، وتوقف الهجمات والتهديدات ضد المقررين وضد مؤسسات كالمحكمة الجنائيّة الدوليّة.

إسكات الضمير

من جهتها رأت «ليز ايفنسون» من هيومن رايست ووتس: «أن الولايات المتحدة تعمل على تفكيك المعايير والمؤسّسات التي يعتمد عليها الناجون من الانتهاكات الجسيمة وإن فرض العقوبات محاولة لإسكات خبيرة أممية عن أداء عملها، والتحدث عن الحقيقة بشأن الانتهاكات الإسرائيليّة ضد الفلسطينيين، داعية الحكومات والشركات إلى عدم التواطؤ، وشدّدت على أهميّة مقاومة الدول الأعضاء في الأمم المتحدة والمحكمة الجنائية بقوة للجهود السافرة من الحكومة الأميركيّة لمنع العدالة في أسوأ الجرائم في العالم، وأن تدين العقوبات المشينة المفروضة على «ألبانيز»، أما الرئيس السابق للمنظمة وصف العقوبات: «بأنها محاولة لردع الملاحقة القضائيّة لجرائم الحرب الإسرائيليّة والإبادة الجماعيّة في غزة».

المرصد الأورومتوسطي لحقوق الإنسان بدوره ندد بالعقوبات واعتبرها مؤشرًا خطيرًا على انحراف السياسة الأميركيّة تجاه منظومة حقوق الإنسان ولردع من يكشف تواطؤها في جرائم الاحتلال ضد المدنيين في غزة، كما إنه يمثل تهديدًا لاستقلاليّة عمل المقررين الأمميين، وجدّد دعمه لألبانيز ولمواقفها داعيًا إلى تحرك دولي عاجل لحماية المنظومة الحقوقية من الضغوط السياسيّة التي تقوّض دورها الرقابي والأخلاقي.

في السياق أصدر «المنتدى التونسي للحقوق الاقتصادية والاجتماعية» بيانًا ندد فيه بالعقوبات وذكر بأنها محاولة لإسكات صوت الحق وكسر شوكة الضمير العالمي وأن استهداف ألبانيز يمثل اعتداءً صارخًا على صوت الحق داخل منظومة العدالة الدولية التي فشلت في تحمل مسؤوليّاتها كاملة تجاه فضح الجرائم المرتكبة في الأراضي الفلسطينية. وأكد بأنها مارست دورها بمهنيّة وشجاعة واضعة الحقيقة أمام العالم: إن الاحتلال ليس فقط غير قانوني، بل يقوم على منظومة أبارتهايد وإبادة ممنهجة لا يمكن السكوت عنها.

ألبانيز تتحدى

«فرانشيسكا ألبانيز» لم تصمت إزاء الحرب عليها وعلى مواقفها واعتبرت فرض العقوبات أسلوب من «أساليب ترهيب مافياويّة.. وقالت بثقة؛ «أنا منشغلة بتذكير الدول الأعضاء بالتزاماتها وقف ومعاقبة الإبادة الجماعيّة، ومن يستفيد منها..» وأضافت: «يستحق المواطنون الإيطاليون والفرنسيون واليونانيون أن يعلموا أن كل عمل سياسي ينتهك النظام القانوني الدولي، يُضعفهم ويعرضنا جميعًا للخطر.. وطالبت هذه الدول بتقديم توضيحات حيال سماحها بتوفير مجال جوي آمن لنتنياهو المطلوب للعدالة الدوليّة لارتكابه جرائم حرب»، منوهة بأنها تواجه الآن تجميد أصولها وقيودًا محتملة على السفر، وحذرت بأنها سابقة «خطيرة» للمدافعين عن حقوق الإنسان في جميع أنحاء العالم، إذ لم تعد هناك خطوط حمراء، إنه أمر مخيف، ربما يمنعني ذلك من التنقل، سيكون له تأثير على الأفراد الذي يتعاملون معي، لأنه بالنسبة للمواطنين الأمريكيين أو حامل البطاقة الخضراء، سيكون هذا الأمر إشكالاً كبيرًا»، واعتبرت إن العقوبات بحقها مصممة لإضعاف مهمتها، لكنها وبإصرار أكدت استمرارها بما تقوم به وإن شكل ذلك تحديًا لها.

إلى هنا لا عجب إن انطلقت حملات التضامن من أحرار العالم ومنظماته الحقوقيّة لمساندة فرانشيسكا ألبانيز ومعلنة رفضها للعقوبات الانتقاميّة ودوافعها السياسيّة، ولا مبالغة إن رشحوها لنيل جائزة نوبل. إن «ألبانيز» في هذا الزمن الكالح تمثل نموذجًا للمصداقيّة المتبقية من القانون الدولي؛ ودعمها ومساندتها في حقيقته استنكارًا لجريمة الإبادة وتضامنًا ودفاعًا عن حق الفلسطينيين في الحياة والحرية والعدالة.

خلاصة الأمر؛ هذه العقوبات تكشف عن مدى تآكل مصداقيّة المنظمة الدولية وعجزها بل وفشلها في الحفاظ على أمن الأبرياء ومنع وقوع حروب التطهير العرقي وجرائم الإبادة، وهي حلقة من حلقات الترهيب السياسي ومحاولة لإفلات الاحتلال من المساءلة على جرائمه الأكثر همجيّة ووحشيّة ضد الإنسانيّة، كما أنها انعكاس لهيمنة نفوذ الدول الكبرى الشريكة في الإبادة، فضلاً عن أن الفساد الرسمي الذي أصبح شرعيًا في الولايات المتحدة وبما يفسحه من مجال للشركات التي كشفت المقررة كيف تتربح من الدم الفلسطيني والمعاناة اليوميّة لأهل غزة وتهجيرهم وتجويعهم تحت الحصار والعدوان، إنها جزء من نظام إمبريالي متوحش وهي ذاتها التي تتبرع وتمول حملات الأقليّة الانتخابية وتوصلها إلى سلطة القرار لتمارس أساليبها القذرة في مواجهة العدالة الدوليّة وفرض نفوذها؛ إنها معركة أخلاقيّة تستخدم فيها الأسلحة الأميركيّة والأوروبيّة كأدوات قتل وتدمير وبكثافة في إبادة المدنيين الفلسطينيين جماعيًا، ما يجعلهم شركاء لإسرائيل في جريمة التطهير العرقي والإبادة الجماعيّة.

ملامح اهتزاز العلاقة الأمريكية – الإسرائيلية وكيفية استغلالها

د. محمد عياش – كاتب وباحث سياسي

القيمة السامية الممتدة في الانتماء لسؤال الضحية... الفاتورة الحالية مهولة جداً وغير مسبوقة ويصعب حصرها في الأرواح والدماء والممتلكات، وإن لم يكن مقابلها دولة واستقلال فهذا يعني أن هذا الشعب هو زمرة القوم الضائعين التائهين بلا جدوى... "شعب بلا دولة هو شعب يقع في الفراغ ويُنثر في الهواء"...

كوارث وقضايا تحظى باهتمام الرأي العام العالمي وبالتالي المجتمع الدولي، وهذا الاهتمام يمثل فرصة لأصحاب تلك القضايا، وهناك كوارث وقضايا لا تحظى باهتمام الرأي العام العالمي فتجد أن جميع ملفاتها مهملة وكوارثها تتفاقم، كما حدث في أمثلة كثيرة في أفريقيا وآسيا...

لا يوجد واقع سياسي سهل، كل أزمة تأتي معها فرصة، رفع مستوى ودرجة نشاط التشبيك السياسي والدبلوماسي مع الأطراف الإقليمية العربية والأوروبية والدولية ذات العلاقة لقطع خطوات نحو مزيد من الاعتراف الغربي بالحقوق المشروعة للشعب العربي الفلسطيني، وحسابات الممكن المتغير... السياسة حضور وتفاعل ومشاركة.

اعتبر الباحثون مؤتمر بلتيمور الصهيوني في 11 مايو / أيار 1942، بداية مرحلة جديدة في العلاقات الأمريكية – الصهيونية، وأخذت هذه العلاقات تتطور بسرعة خلال عقد الأربعينات ولم تكن الحركة الصهيونية تتوقع أن يتسع القاموس السياسي والعسكري والاقتصادي والروحي الأمريكي، ليستوعب سرعة مفردات الإستراتيجية الصهيونية وطرقها في التعامل مع العالم لجهة الهيمنة وفرض القوة بكل السبل، فقد نمت العلاقات وتطورت بسرعة كبيرة إلى مرحلة التبني الأمريكي لما تريد الصهيونية العالمية تحقيقه. ومن أبرز معالم هذا التوثيق تعاطف الحزبين، الجمهوري والديمقراطي.

التقت الأهداف الأمريكية مع الأهداف الصهيونية للمرحلة المقبلة، والتي إرهاصاتها ومؤشراتها بدأت بالظهور، نتيجة المناخ العام السائد ورائحة الحرب العالمية الثانية على أبواب القارة العجوز، بينما عين اليهود على الدولة التي ستمسك بزمام الأمور، وبالتالي فإن نقل الأموال الصهيونية من هذه القارة إلى الولايات المتحدة، وتحقيق المبدأ القائل والقائم على القوة والثروة، فالقوة تحمي الثروة، والثروة تضمن بقاء واستمرار القوة. بالفعل خرجت الدول الغربية منهكة ومستنزفة اقتصاديا وبشرياً والدمار في كل مكان، لتذهب تلك القوة الإمبراطورية برمتها إلى الولايات المتحدة، حيث اليهود ضمنوا مكانا لهم ولأموالهم، بعد التسلل والولوج، وإقناع المسؤولين بضرورة التحالف الإستراتيجي، وأن الحزبين الكلاسيكيين يختلفان في كل شيء، ويتفقان على إسرائيل ومتطلباتها التي لا تنتهي، وهذا هو بيت القصيد الصهيوني.

تسلل المشروع الصهيوني من خلف هذه القوى المتصارعة والمتحاربة، والذي وجد بالولايات المتحدة ضالته، بأنها التي ستساعد اليهود بإقامة "دولتهم" على أرض فلسطين، وذلك نتيجة لحجم الجهد الإعلامي المزيف الذي مارسه اليهود على المواطن الأمريكي، بأحقية اليهود بأن يكون لهم وطن؛ على خلفية استغلال حالة الضعف والشرذمة وتعب الجماهير العربية من التخلص من الاستعمار، بينما وقعت فلسطين ببراثن اليهود الطامعين إلى ما هو أبعد ، فواشنطن سارعت للاعتراف بالكيان الصهيوني لأنها وجدت فيه قاعدة متقدمة لها في الشرق الأوسط الحيوي، أو كنزا حقيقيا كما وصفها الرئيس الأمريكي الأسبق رونالد ريغان، ومنذ ذاك الوقت، واشنطن تنفذ وتدعم الكيان الصهيوني بكل أنواع السلاح، ناهيك عن

الاتفاق الإستراتيجي الموقع عام 1956، عندما وقع أيزنهاور اتفاقية ترتكز على بندين أساسيين أولهما، التعاون التقني والعسكري والمادي، وثانيهما التعاون في مجال الذرة .

أعتقد أنني قدمت صورة واضحة عن بداية الكيان الصهيوني، والعلاقة العضوية، وبالتالي أجمعت مراكز البحوث والتحليل وعلى رأسها كبار الشخصيات وجهابذة التحليل والتدقيق بهذه العلاقة التي تكاد تكون فريدة من نوعها والتي اتسمت بكثير من الأخذ فقط دون العطاء، وأقصد أخذ الصهاينة من واشنطن بلا رقيب ولا حسيب وجفاف العطاء الصهيوني الذي يتعامل مع الشعب الأمريكي على أنه مجرد رقم أو دافع ضرائب، وبالتالي فإن الدارسين والباحثين تعبوا وقد أصابهم اليأس بأن يلمسوا أو يعتقدوا في سرهم ونجواهم، أن هذه العلاقة ممكن لها أن تتحول إلى علاقة عكسية.. أي ظهور اختلافات تتحول إلى خلافات ممكن أن تضع حداً فاصلاً في العلاقة والتي من خلالها تعتبره واشنطن خطاً أحمر، وعلى الكيان أن يحترم هذا الخط ويراعي مشاعرها أو على الأقل أن يشكرها شكر الحامدين لا الحالمين أو المتطفلين المتنكرين .

اعتقدت إسرائيل بوصول الرئيس الأمريكي دونالد ترامب للمرة الثانية إلى البيت الأبيض، أنها قادرة على تحقيق حلمها النهائي وذلك على وقع الاعترافات السابقة لترامب سواء بنقل السفارة الأمريكية إلى القدس أو الاعتراف بالقدس عاصمة أبدية للكيان وبعض القرارات المجحفة بحق الفلسطينيين والضغط على المنظمات الإنسانية التي تساعدهم ؛ ظنت أن وصول ترامب للمرة الثانية، استكمالاً لمشروعها التصفوي للفلسطينيين وطردهم خارج فلسطين مع التوسع شمالا وجنوبا، وشرقا وغربا، مع احتمالية التطبيع عبر القوة والتخويف مع بعض الدول العربية التي لم توقع إلى هذه اللحظة وعلى رأسها المملكة العربية السعودية، والذي عكّر صفو الأحلام والأراجيف والأسمار الصهيونية، طوفان الأقصى في السابع من أكتوبر/ تشرين الأول 2023، أي قبل وصول ترامب إلى البيت الأبيض ببضعة شهور.

هذا الحدث العالمي، كسر هيبة الكيان الصهيوني الذي إلى هذه اللحظة، يفقد توازنه، وكشف عن وجهه القبيح والبشع وإعلانه الحرب على غزة وشعبها المحاصر والمجوّع، ما هي إلا محاولة بائسة ويائسة، وأن الزوال الحتمي بدأت ملامحه ومرتسماته.. إذ كان الكيان يستمد قوته واستمراره من حبلين، الأول قوة الردع وسرعة إنجازه للمعارك، والحبل الثاني، الدعم المطلق من الدول الغربية وعلى رأسها الولايات المتحدة، والذي بدأ يشتد أكثر وأكثر إيذاناً بالانقطاع لهول المجازر والإبادة الجماعية التي ترتكبها الآلة العسكرية الصهيونية. أما اليوم ومع التطور الرهيب للتكنولوجيا والأقمار الصناعية ووسائل الإعلام التي أصبحت متناول الجميع، والفضائيات التي فضحت وعرّت زيف الكيان الصهيوني القاتل والمجرم بحق الأطفال والشيوخ والنساء، وتحرك كبريات الجامعات الأمريكية والغربية وظهور الحقيقة وجلائها بفعل التزوير والتحريف وحرفه للحقائق باتجاهه، والاتكاء على نظرية معاداة السامية، حتى هذه التهمة أصابها الوهن والضعف لما يشاهده العالم من هولوكوست حقيقي مباشر .

حتى كتابة هذا المقال، لا تزال المقاومة تسجل على العدو المدجج بأعتى أنواع السلاح والمدعوم براً وبحراً وجواً، صوراً بطولية يعجز عن وصفها المبدعون في الأفلام والقصص الخيالية، وسط تطور تكنولوجي عسكري موصول بالأقمار الصناعية واستخدام أجهزة توضع على الشجر والحجر، وحتى وسط الركام لمعرفة كيفية تحرك المقاومة، وعجز الكيان على تحديد الأسرى ومكان وجودهم، وهو المصدوم برؤية الأبطال وسياراتهم ذات الدفع الرباعي ونظافتها وجاهزيتها، كل هذا زاد من حنق الكيان .

حالة الاهتزاز التي أصابت العلاقات الأمريكية الصهيونية، بدأت مع أول طلقة من طوفان الأقصى، إذ تعتقد واشنطن أن إسرائيل قادرة على كشف المخططات والمؤامرات التي تحيط بها من كل جانب، وبالتالي فإن واشنطن بعد هذه النكسة فقدت ثقتها بالردع الصهيوني حسب زعمهم ، لذلك عززت علاقاتها مع السعودية، وتالياً مع الجمهورية العربية السورية التي تصر على دعمها ومساندتها لتقف من جديد، ترامب لم يخف انزعاجه من نتنياهو عندما قصفت طائراته مقر رئاسة الأركان السورية، ووصفته الصحف بأنه الولد الذي يعبث ويكسر دون مراعاة الكبار، على ما أعتقد أن ترامب قرأ من بعيد أن الكيان يعاني حالة من الوجود، بل حتمية سقوطه أخلاقيا وانكشافه للعالم الذي تجوب عواصمه بالمسيرات المؤيدة للقضية الفلسطينية .

اليوم ومع تعنت الكيان الصهيوني، وتنفيذ مشاريعه الإحلالية سواءً في غزة، أو الضفة الغربية، يتوحد العالم، ويستنكر هذه الهمجية، وخصوصا سياسة التجويع لأكثر من مليوني إنسان، وربما الانزعاج الأمريكي يتحول إلى نزاع وهذا مؤكد لأن إسرائيل تغامر بسمعة الولايات المتحدة.. في الماضي مجرد نقد إسرائيل سراً أو علانية يطير رأس الناقد إما جسديا أو سياسيا، أما اليوم فإن ترامب كسر هذه القاعدة وهذا التابو، أصبحت الاحتجاجات في الجامعات أكبر دليل وعليه يبعث الأمل في تغيير الرأي العام الأمريكي ورؤيته للحقائق وإماطة اللثام والغشاوة الصهيونية.

في نهاية المطاف لكل أمة خطوطها العريضة في التعامل مع العالم، في الحالة عند الولايات المتحدة، وصول ترامب فرصة حقيقية وثمينة للعرب لتعزيز العلاقات الاقتصادية ومدى حاجة الغرب للعرب، واستغلال هذه الحالة متوقف على ضمير الدول العربية التي إن أرادت أن تمتلك زمام المبادرة وتخفيف الآلام والعذابات للأخوة في فلسطين ولبنان وسوريا... عليها أن تضع شروطا لطبيعة العلاقة، وأن تكون معلنة للشعوب العربية التي تغيرت وتحولت من مجرد أرقام ومستهلكين إلى صناع قرار وصناع محتوى سياسي واقتصادي وديني ..

الشرخ الحريدي-العلماني: هل تبقى إسرائيل دولة واحدة؟

نبال عمر - كاتبة صحفية فلسطينية ـ سورية

تشهد إسرائيل في هذه المرحلة صدعاً داخلياً متسارعًا في بنية حكومتها الائتلافية بقيادة بنيامين نتنياهو، وذلك على خلفية انسحاب أهم الأحزاب المتحالفة معه، وفي مقدمتها «يهدوت هتوراه» بجناحيه ديغل هتوراه وأغودات إسرائيل و«شاس» المتمسكين بالهوية الدينية في إسرائيل.

هذا الانسحاب لم يكن مفاجئاً بقدر ما كان متوقعًا بعد تصاعد الخلافات حول مسألة التجنيد الإجباري للحريديم، وهي القضية التي فجّرت صراعًا طويل الأمد بين التيارات العلمانية والدينية داخل الكنيست والمجتمع الإسرائيلي.

فلطالما شكّل الإعفاء من الخدمة العسكرية للحريديم مادة جدل سياسي واجتماعي، وها هي اليوم تتحول إلى مفجّر فعلي لأزمة تهدد استقرار النظام الحاكم.

في خلفية المشهد، تقف المحكمة العليا الإسرائيلية التي أقرت بأن الامتيازات الممنوحة لطلاب المدارس الدينية تُعد انتهاكًا لمبدأ المساواة، مما فرض على الحكومة التعامل مع إرث من الإعفاءات التاريخية التي كرّستها الحكومات المتعاقبة.

ورغم محاولات نتنياهو لاحتواء الغضب الحريدي، فإن الضغط الشعبي والعلماني، مدفوعًا بتعبئة إعلامية مكثفة، وضعه أمام خيارات صعبة: إما الخضوع لمطالب العلمانيين وتعديل القانون، أو مواجهة انهيار حكومته.

ولأن البقاء في الحكم عند نتنياهو مقدم على أي اعتبار آخر، فقد حاول كسب الوقت بتأجيل القرارات وتقديم مقترحات توافقية، لكنها لم تُرضِ أحدًا .

هنا جاء قرار الانسحاب من الائتلاف ليكشف عمق الأزمة ولم يكن الأمر مجرد خلاف قانوني، بل امتد ليعبّر عن شرخ ثقافي واجتماعي داخل إسرائيل، بين دولة تريد أن تكون يهودية وديمقراطية، لكنها تفشل في إدارة هذا التناقض البنيوي.

اللافت أن أزمة الائتلاف لم تتوقف عند الحريديم فقط، بل أثّرت على مجمل التوازنات السياسية. فالأحزاب اليمينية المتطرفة التي دعمت نتنياهو سابقًا بدأت هي الأخرى تشعر بالقلق من تنازلاته المتكررة، بينما وجدت المعارضة، بقيادة يائير لابيد، في الأزمة فرصة لتقويض شرعية الحكومة والمطالبة بانتخابات مبكرة.

في هذا السياق، تبدو إسرائيل عالقة في حلقة مفرغة من التوازنات غير المستقرة، حيث لا يمكن لأي حزب أن يحكم بمفرده، ولا يمكن لأي ائتلاف أن يصمد طويلًا دون تنازلات مكلفة.

ومما يزيد المشهد تعقيدًا أن هذه الأزمة الداخلية تأتي في وقت تخوض فيه إسرائيل حربًا دامية في غزة، وسط انتقادات دولية متصاعدة وعزلة دبلوماسية متنامية.

التحالفات داخل الكنيست ليست مجرد ترتيبات عددية، بل تقوم على أساس أيديولوجي متباين إلى حد التناقض.

فأن تجمع تحت مظلة واحدة حزباً دينياً يرفض الدولة الصهيونية عمليًا، وآخر علمانيًا يؤمن بدولة يهودية ذات طابع غربي، هو مغامرة محكومة بالانفجار، وهذا ما حدث فعلاً.

من منظور موضوعي، يمكن القول إن الأزمة الحالية هي نتاج تراكمي لعقود من التغاضي عن التوترات الكامنة بين مركّبات الهوية الإسرائيلية.

فالدولة التي وُلدت من رحم مشروع صهيوني علماني، لم تتمكن من صياغة علاقة مستقرة بين مؤسساتها الحديثة ومجتمعها الديني التقليدي. والخط الفاصل بين الدولة والدين بقي غامضًا، ما أدى إلى ولادة نظام سياسي هش، لا يحسم القضايا الخلافية بل يؤجلها ويؤطرها ضمن تسويات وقتية.

ورغم أن نتنياهو قد يُعرف بمرونته السياسية وقدرته على النجاة من أزمات متعددة، إلا أن قدرته على ترميم الائتلاف هذه المرة تبدو محدودة.

فقد خسر عنصر الثقة لدى شركائه، كما أن محاولة استبدال الحريديم بحلفاء جدد ليست سهلة في ظل موازين القوى داخل الكنيست.

في الوقت نفسه، فإن المؤسسة الأمنية الإسرائيلية تراقب الأزمة بقلق.

إذ أن انعدام الاستقرار السياسي يضعف قدرة الحكومة على اتخاذ قرارات إستراتيجية تتعلق بالجبهات الخارجية، كما أن الانقسام الداخلي قد ينعكس على الجبهة الداخلية من حيث الانضباط العام وثقة الجمهور.

وفي المحصلة، فإن تفتت الائتلاف في إسرائيل لا يمثّل مشكلة عابرة أو خلفية مرتبطة فقط بموقف ديني محدد، بل هو مرآة لأزمة عميقة في مسار النظام السياسي الإسرائيلي بنفسه.

فالعلاقة المشتبكة بين الدين والدولة، والقدرة على بناء ائتلاف متوازن يمثّل قوى متنافرة، تظلان عاملين مفصليين في مسار كل حكومة قادمة.

مع تصاعد الضغوط الدولية والعزلة المتنامية لإسرائيل بسبب حرب غزة، فإن السياسة الداخلية تعكس أيضاً التقاطع الخطير بين القضايا الأيديولوجية والقرار العسكري والأمني.

فهل يمكن لحكومة منقسمة ومفقودة السند التشريعي أن تواجه حرباً وصراعات دولية متسارعة؟

الإجابة مازالت غامضة، ولكن ما هو واضح أن نظاماً سياسياً يعتمد على مفاوضات دينية واصطفافات انقسامية لن يكون قادراً على الثبات في وجه العواصف القادمة. وحتى لو تجاوزت الحكومة هذه الأزمة مؤقتًا، فإن الأسئلة البنيوية حول مستقبل النظام السياسي الإسرائيلي ستظل قائمة، وتنتظر لحظة الانفجار التالية لتعود إلى الواجهة من جديد.

وهكذا، فإن ما نراه اليوم ليس فقط أزمة ائتلاف، بل أزمة هوية، أزمة تعريف لماهية إسرائيل: دولة دينية؟ أم دولة ديمقراطية؟ أم خليط متوتر لا يهدأ؟ وفي هذا التوتر الدائم يكمن مأزق إسرائيل الداخلي الأكبر.

من العصبية إلى الجيوبوليتيك: كيف تدير «إسرائيل» خطوط النار في جنوب سوريا؟

عزيز موسى – كاتب وباحث في الشؤون الدولية والأمنية

شكّل اندلاع النزاع والاشتباكات في محافظة السويداء السورية في الفترة بين 12-19 تموز 2025 إلى تصعيد غير مسبوق بين مجموعة من الفصائل منها من يتبع لشيخ عقل طائفة الموحدين الدروز حكمت الهجري، وأخرى تتبع للبدو والعشائر بما أدى إلى انفجار حاد على صعيد المنطقة الجنوبية على خلفية حملة من التحشيد والتجييش ظهر بها الدور الكبير لعصبيات ما دون الدولة (الدينية، العشائرية) وخطورتها في عملية الاستثمار السياسي، مما أعاد بدوره رسم معادلات القوة والنفوذ في معارك أدت إلى تصاعد حدة الضغوط على الإدارة السورية وزيادة حجم التحديات التي تعاني منها وانكشاف حجم الضعف البنيوي والهشاشة الموصوفة في الحالة السورية على الصعيد الأمني والعسكري بشكل خاص إضافة للشروخ الاجتماعية وغياب القدرة على ضبط الاشتباكات التي وصلت مستويات غير مسبوقة حيث بلغ عدد الضحايا بالمئات والمهجرين نحو 93 ألفاً الذين نزحوا بغالبيتهم تجاه محافظة درعا، فضلاً عن مستوى الانتهاكات والعمليات الإجرامية الواسعة التي ارتكبت بحق المدنيين .

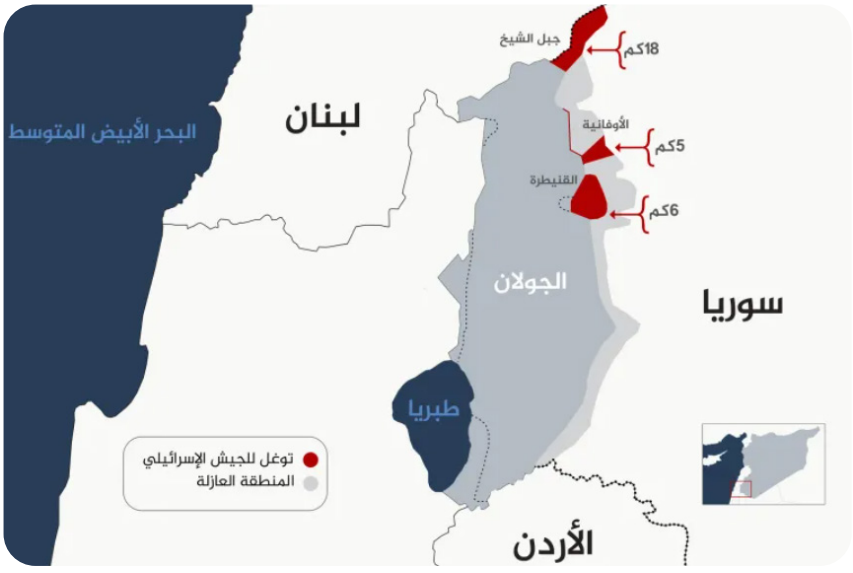

الأخطر في هذا الحدث هو الاستغلال الإسرائيلي المباشر والذي تمثّل بتصوير إسرائيل على أنها « حامية للمكون الدرزي» في جنوب سوريا وهو ما صرح به وزير الدفاع الإسرائيلي «يسرائيل كآتس» سابقاً بأن العمل سيستمر على حماية ما وصفه «بالأخوة» الدروز في جنوب سوريا وفق مبدأ « حلف الدم» الذي يعود إلى روايات إسرائيلية توراتية تستخدم البعد الديني في تحقيق أهداف سياسية وأمنية، في مؤشر لمخطط أبعد من أن يكون حماية لمكونات سورية أصيلة، وأقرب لما يمكن أن تعمل عليه تل أبيب تجاه فرض خرائط نفوذ جديدة، في محاولة لإعادة إنتاج الفوضى في المشهد السوري بما يتوافق ومصالحها، التي ترتكز على ما تراه بأهمية فكرة التقسيم وسحب عناصر القوة التي قد تحاول سوريا امتلاكها خدمة لأهداف أمنها الحيوي.

ترتبط أهم الأهداف التي تسعى إسرائيل إلى تحقيقها في سوريا بالبعد الأمني والمجال الحيوي والتي تتمثل بما يلي: أولاً- فرض منطقة عازلة على امتداد الجنوب السوري بالكامل يتيح حرية التحرك الإسرائيلي وإقامة منطقة نفوذ متقدمة ترتبط بالقواعد التي تم إنشائها سابقاً في جبل الشيخ وريف القنيطرة.

ثانياً- العمل على إيجاد طريق يمتد من مجدل شمس في الجولان المحتل مروراً بالقنيطرة وريف درعا وصولاً إلى السويداء، والضغط باتجاه فتح معبر مباشر بين الأردن وسوريا من جهة الحدود مع السويداء لتحقيق عنصر الوصول الكامل إلى المنطقة.

ثالثاً- العمل على استثمار حالة من الصراع بين المكونات السورية على أسس طائفية وإظهار محدودية سيطرة الإدارة السورية وحجم الهشاشة باستهداف مراكز حساسة في العمق السوري والتي كان أهمها مبنى هيئة الأركان السورية في العاصمة دمشق، في رسالة واضحة من تل أبيب بتقديم نفسها كطرف فاعل في إطار ما يشبه الوصاية على محافظة السويداء التي حافظت على تماسك نسبي في النسيج الاجتماعي، و بقيت لعقود خارج دائرة التطرّف والانقسام الحاد، لكنها في لحظة ما ضمن ما يمكن تسميته باستثمار إقليمي هادف، يقف في صدارته مشروع إسرائيلي يدرك تماماً أهمية اللعب في الهوامش الطائفية والتشقق الاجتماعي السوري.

هنا يتجلى الدور الإسرائيلي بشكل غير مباشر، لكنه واضح في مآلاته لطالما سعت تل أبيب إلى تفكيك الأطراف السورية وتحويلها إلى جيوب غير مستقرة يسهل التأثير فيها، تحديداً في المناطق الحدودية أو القريبة من الجولان المحتل، إذ أن السياسة الإسرائيلية وفقاً لما كشفته تقارير استخباراتية ومواقف سياسية متكررة، سعت إلى تحييد المكون الدرزي السوري عن محيطهم الوطني، سواء عبر تحفيز تيارات «الحياد الإيجابي»، أو استثمار شعورهم بالخوف من التطرّف.

«خطة ينون» التفكيك الناعم عبر الفوضى المدارة

ما حصل في الجنوب السوري هو جزء من خطة أوسع تم طرحها عام 1982 من قبل « أوديد ينون» مستشار رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق أرئيل شارون، والتي تقضي بضرورة تقسيم سوريا واجتزائها إلى دويلات على أسس طائفية وإثنية بما أسمته (دولة سنية، دولة علوية- دولة كردية، دولة درزية) بما يضمن بدوره الحماية الأمنية في الجبهة الشرقية وإمكانية إقامة إخضاع هذه الدويلات لاحقاً للنفوذ الإسرائيلي، في المقابل فإن الاستثمار في مأساة السويداء لا يقتصر على الجانب الأمني أو الجيوسياسي فقط، بل يمتد إلى خلق واقع حدودي هش يسمح لها بالقيام بعمليات نوعية دون مقاومة، ويعزز من فكرة أن «الاستقرار الإسرائيلي» لا يأتي إلا في ظل «لا استقرار عربي» ومحاولة تفكيك مفهوم الدولة القومية، فحين يتم الإشغال بالملفات الداخلية، وتُستنزف الدماء في صراعات بينية، فإن ذلك يؤدي إلى هدوء الجبهة.

هذا المخطط يعمل بتفاعل مباشرة مع حجم التشقق والشروخ الاجتماعية المتزايدة في سوريا والتي تؤدي بدورها إلى تعميق الأزمة وحالة الفوضى، في ظل الضعف الأمني والعسكري وشيوع الفصائلية في انتماءات الجماعات الضيقة التي ترسخ حالة من الانقسام وارتكاب الانتهاكات والعمليات الإجرامية، بالتالي فأن الاستثمار الإسرائيلي يتجاوز الحسابات الأمنية التقليدية، ليرتقي إلى مستوى هندسة الواقع السياسي والمجتمعي في الجبهة الشرقية. فزرع حالة «الهشاشة الحدودية» في الجنوب السوري يوفّر لإسرائيل هوامش مناورة أوسع، ومساحات عملياتية أقل تكلفة دون الحاجة لاجتياح شامل أو مواجهة مباشرة، وتُسهّل هذه البيئة المفككة تنفيذ عمليات خاصة أو هندسة تحالفات محلية مع جماعات متعددة، كما إن مايحدث ليس أزمة محلية أو احتجاجات معزولة، بل فصل جديد من مشروع استراتيجي طويل الأمد، يرمي إلى تحويل إلى إيجاد حزام أمني خامد، وجبهة منسية، وساحة مشوشة تُهدر الموارد والطاقات في صراعات داخلية، وهو ما يتم محاولة احتوائه بجهود سياسية وأمنية ورعاية أمريكية والتي كان آخرها في اجتماع باريس الذي عُقد في 24 تموز 2025 في محاولة التوصل إلى تفاهمات أمنية سورية – إسرائيلية يراد بها التهدئة وإيجاد صيغة لاتفاق مستدام يُوقف من جهة احتمالية عودة اندلاع الصراع في الجنوب السوري، ومن جهة أخرى تسعى من خلاله إسرائيل إلى استحصال مكاسب متنوعة ضمن بنية شديدة التعقيد.

استمرار حالة التفكك البنيوي في سوريا وتبني سياسات بعيدة عن المشاركة الحقيقية إضافة للضعف المجتمعي التي تعاني منه مختلف المكونات يدفع باتجاه خطر حالة الانقسام وإيجاد سيناريوهات قد تودي إلى شرذمة اجتماعية وديمغرافية قبل أن تكون جغرافية من خلال إما استدامة الفوضى في البلاد وبالتالي فقدان السيطرة والدخول في حالة التفكك، أو الذهاب نحو تهدئة شاملة تضبط الصراعات الطارئة وتضمن عدم توسعها، إضافة أو الذهاب لازدياد التدخل الخارجي الذي يؤدي إلى تعقيد الأوضاع ويدفع بعيداً عن حالة الاستقرار المشروطة للانفتاح الدولي والإقليمي الأوسع، وهذا يشترط بالضرورة أن تقوم الإدارة السورية بعملية تصحيح كبرى للمسارات على المستوى الأمني والسياسي بما يفيد في عملية بناء الدولة المدمرة والابتعاد عن نقاط الاشتباك الخطيرة.

الضفة الفلسطينية ومعادلة الصراع مع العدو الصهيوني

بسام عليان - كاتب اجتماعي وباحث سياسي فلسطيني - سورية

رغم محاولات العدوّ الصهيوني المتواصلة لإخماد أيّ فعل مقاوم للاحتلال في الضفة الفلسطينية، إلاّ أن المشهد الوطني الفلسطيني المقاوِم للاحتلال ما زال هو السائد، يدعم المقاومة ويحتضن المقاومين، ويرفض الاحتلال البغيض. وما زالت الضفة الفلسطينية، كما غزة، تُقلق الاحتلال وتُقلق جيش الاحتلال المكوَّن من عصابات المستوطنين. وما زالت فلسطين كلها، والفلسطينيون، يُقلقون قيادة الاحتلال الإجرامية والإرهابية.

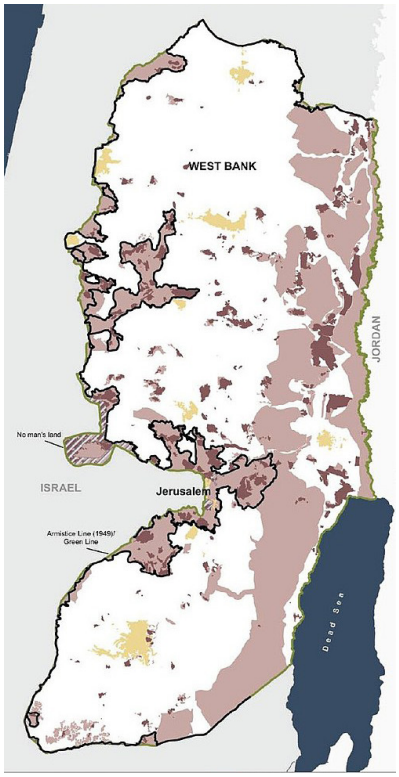

فأيّ متابعٍ أو مراقبٍ للممارسات الصهيونية العدوانية الإجرامية الإرهابية التي يقوم بها جيش الاحتلال في مخيمات وبلدات ومدن الضفة الفلسطينية من تدمير وهدم وقتل وتهجير للعائلات الفلسطينية، وهدمٍ للمنازل، ونهبٍ للأموال، والمقتنيات، وحاجات الشعب الفلسطيني، يعي تمامًا سياسة العدوّ الصهيوني الذي يحتلّ الأرض الفلسطينية منذ أكثر من ٧٧ عامًا، والذي يخطط لتهجير الفلسطينيين، وإجبارهم على مغادرة أراضيهم، وإبعادهم عن تراب وطنهم، وإلغاء هويتهم الفلسطينية، وإبادة من تبقّى منهم، كما يحصل في غزة الفلسطينية.

إن هذا الاستهداف الصهيوني المُمنهج للشعب الفلسطيني يدخل ضمن بنية الاستعمار الصهيوني الإمبريالي الاستيطاني، ومخططه الإرهابي الإجرامي، الذي يضع ضمن أولوياته الاستيطانية الاستعمارية الصهيونية تهويد الضفة وتهجير مواطنيها.

وقبل ذلك، قام جيش الاحتلال الصهيوني بتدمير ٥٣١ قرية وبلدة فلسطينية، وتم تهجير أهلها من خلال الهجمات العسكرية الإرهابية اليهودية الصهيونية، وها هم اليوم يقومون بالعمليات العسكرية نفسها في مخيمات ومدن غزة والضفة الفلسطينية، فغزة ومنذ السابع من تشرين الأول ٢٠٢٣، تم تدمير أكثر من ٨٠٪ من بنيانها ومنشآتها ومؤسساتها، وتم تدمير القطاع الصحي والتعليمي كاملًا، وتم تهجير أكثر من مليونيْ فلسطيني، وتجويعهم، وقتل أكثر من مئة ألف وجرح وإصابة أكثر من ثلاثمئة ألف.

وفي الضفة الفلسطينية، قام جيش الاحتلال بحصار المخيمات والمدن والبلدات الفلسطينية، وخاصة في شمال الضفة، وقامت جرافات الاحتلال بهدم منازل الفلسطينيين اللاجئين في مخيمات جنين وبلاطة ونابلس والخليل، والقتل، والقبض على عدد من المقاومين، واعتقلت جزءًا منهم، وقامت بإعدام عددٍ منهم بدمٍ بارد أمام أعين أهليهم، متصوِّرةً أنّها بهذا العمل تستطيع محاصرة المقاومة وردع الحاضنة الشعبية للمقاومة.

وهذا الكيان الغاصب وجيشه الإرهابي يحاولان خلق حالة من الرعب عند الفلسطينيين من أجل إجبارهم على مغادرة أراضيهم قسرًا، وهم يقلّدون ما أُشيع عن المحرقة النازية المزعومة، وللأسف، الإنسانية العالمية صامتة ولا تحرّك ساكنًا إزاء هذا الإجرام الصهيوني الممنهج الذي يُمارَس ضد الفلسطينيين، وضد الشعب الفلسطيني، وضد الطفولة الفلسطينية البريئة، وضد التلميذ والطالب الفلسطيني، وضد المرأة الفلسطينية.

هذا الاحتلال الصهيوني، الذي يشكّل ثكنة عسكرية للغرب الرأسمالي الإمبريالي ولأمريكا الصهيونية، يحاول أن ينال من فلسطين ومواطنيها الأصليين، متناسيًا أنّ هذه الأرض الفلسطينية العريقة هزمت الصليبيين، وهزمت المغول، وهزمت نابليون، فهذه الأرض القديمة والعريقة ستظل فلسطينية كنعانية، ترفض أي احتلال، وترفض أي هيمنة، وترفض وجود أيّ كائن يريد أن يحوّل هذه الأرض إلى مستعمرة دائمة له. والفلسطينيون في هذه الأرض، وعلى هذه الأرض، لن يستسلموا أمام هذا الجيش الاحتلالي الإرهابي، وسيظلون يقاومون، سواء في غزة البطلة أو في مدن ومخيمات الضفة الفلسطينية الصامدة.

ومهما حاول العدوّ الصهيوني من هدمٍ للمنازل والبيوت في الضفة الفلسطينية، وإجبار أهلها والمواطنين الفلسطينيين على مغادرة أراضيهم قسرًا، فلن يُفلح في هذه الإجراءات، مهما بلغ من القوّة والعنف والعدوان والإرهاب والإجرام. فسيظل الفلسطيني متمسكًا بأرضه، ومتمسكًا بهويته، وستظل الحاضنة الشعبية للمقاومة متماسكة ومتراصة.

ونعود ونقول، إنّ أيّ متابعٍ أو مراقبٍ لما يجري الآن في غزة وفي الضفة، يرى أنّ هناك ارتفاعًا ملحوظًا في العمليات الفدائية الوطنية الفلسطينية، وفي أعمال المقاومة الوطنية الفلسطينية بجميع أشكالها. وهذا يدل على أنّ هناك التفافاً فلسطينياً مقاوماً، يعبّر عن إرادة الشعب الفلسطيني وانتمائه الأساس إلى فلسطين الأرض والهويّة.

القاموس اللغوي للإبادة الجماعية
تحليل اجتماعي- سياسي للخطاب الغربي

أنمار رفيدي ووسام رفيدي ـ كاتبان وباحثان فلسطينيان

- المصدر: (مجلة الجنوب/ العدد الأول – صيف -2025 المجلة الفلسطينية للدراسات التحررية 14 تموز 2025)

تتناول هذه الدراسة الخطاب الغربي فيما يتعلَّق بالحرب على قطاع غزة، إذ إنه يستخدم قاموساً لغوياً تتمثَّل أبرز صياغاته في: «حق «إسرائيل» في الدفاع عن نفسها،» و«لا لوقف إطلاق النار،» و«ضمان إدخال المساعدات الإنسانية،» و«حماية المدنيين.» فما يبدو تناقضاً فيه (بين «المعونات الإنسانية وحماية المدنيين،» و«حق إسرائيل في الدفاع عن نفسها» و«لا لوقف إطلاق النار») هو تناقض شكلي صيغ بهدف التمويه بغية استمرار الإبادة الجماعية بحق الشعب الفلسطيني. وقد اعتمدت الدراسة «منهج» ميشيل فوكو في تحليل الخطاب بغية كشف المعنى المضمَّن في هذا الخطاب، وبالتالي إثبات وقوفه دون لَبس مع الإبادة الجماعية. إن هذا مؤشر على عمق التلاقح الأيديولوجي بين مشروع «الرجل الأبيض الغربي» في العالم و«المشروع الصهيوني في فلسطين» في صيغة سافرة غير مسبوقة، حيث يعكس انحياز الدول الغربية إلى الإبادة الجماعية للشعب الفلسطيني، ومشاركة بعضها في الإبادة فعلياً، كأمريكا وبريطانيا وألمانيا، الجذر العنصري المشترك بين الرجل الأبيض الأوروبي الاستعماري والرجل الأبيض الاستعماري الصهيوني الأشكنازي، والذي لا يمكن تمويهه بخطاب مخادع حول «المعونات الإنسانية» و«حماية المدنيين.»

مقدمة

في الثامن من تشرين الأول/ أكتوبر من العام 2023، أعلن وزير الحرب الصهيوني يوآف غالانت فرض الحصار الشامل على قطاع غزة واصفاً سكانه بـ «الحيوانات البشرية.»[1] أما في العام 2022، فقد وصف جوزيف بوريل، ممثل الاتحاد الأوروبي، أوروبا بـ«الحديقة»، مقابل وصف بقية العام بـ«الأدغال»، حيث قال إن «الأدغال يمكن أن تغزو الحديقة، وعلى البستانيين أن يتولوا أمرها [...] على البستانيين أن يذهبوا إلى الأدغال، على الأوروبيين أن يكونوا أكثر انخراطاً مع بقية العالم، وإلا فإن بقية العالم سوف تغزو أوروبا.»[2] وفيما بعد، لم ينفعه التبرير حين قال «البعض أساء تفسير الاستعارة على أنها «مركزية أوروبية استعمارية.»[3] لا تتفق هذه الدراسة معه ولا تسيء فهمه، بل ترى في مقولته تعبيراً حقيقياً عن الأيديولوجيا الأوروبية في تعاطيها مع العالم غير الأوروبي، وفي الحالة قيد الدراسة مع فلسطين، ومع «إسرائيل» بوصفها مشروع «الرجل الأوروبي الأبيض،» إذ يأتي غالانت وبوريل من جذر واحد، وهو العنصرية الأوروبية البيضاء.

تلاحظ هذه الدراسة العلاقة بين المشروع الصهيوني، كمشروع استعماري استيطاني، والمشروع الاستيطاني الأوروبي، الذي كانت إبادة السكان الأصليين أداته التنفيذية. وهي علاقة تأكَّدت باعتبار الوليد الصهيوني من العرق الأبيض ذاته، ويحمل السمات الأيديولوجية ذاتها، وحتى الثيمات ذاتها.

في هذا السياق، تُظهر قراءة تاريخ الاستعمار الصهيوني الحضور الدائم والنشط للدول الاستعمارية الداعمة لتحقُّق المشروع الصهيوني. ففي كتابه حول الإبادة الجماعية في فلسطين، يسرد إيلان بابيه حضور هذه الدول في وقائع «اليوم الأول» حيث «غادر البريطان يوم الخامس عشر من أيار من العام 1948، وأعلنت الوكالة اليهودية فوراً قيام الدولة اليهودية في فلسطين، باعتراف من الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي.»[4] وقبل ذلك فإن كل وقائع العلاقة بين المستعمرين البريطانيين والحركة الصهيونية واضحة في خدمتهم لمشروع إقامة «وطن قومي لليهود في فلسطين.» [5] في السياق ذاته، يحلل إدوارد سعيد جوانب مهمة لتصريح بلفور، تدلل على أن التصريح صدر عن قوة أوروبية، حول أرض غير أوروبية، دون الأخذ بالاعتبار وجود السكان الأصليين أو رغباتهم، حيث «وعدت» هذه القوة الأرض ذاتها لمجموعة أجنبية لكي تستطيع هذه المجموعة جعل هذه الأرض «وطناً قومياً لليهود.»[6]

أما بالنسبة للمؤسسات الدولية وقراراتها وموقف الكيان الصهيوني منها، فقد اتخذت مجموعة من القرارات بحق فلسطين لم ينفِّذ الكيان أياً منها. ولو فحصنا مثلاً النص والخطاب، بالمفهوم الفوكوي لهما في القرارات الدولية، يمكن ملاحظة كونهما أداة حاسمة لفهم العلاقة بين المحكي والـمُنتج في إطار علاقات القوة. وحتى اللحظة، تساهم القرارات الدولية في «تغذية الصراع بطريقة مباشرة أو غير مباشرة.»[7] فقرار 242 يعتبر الحالة المثلى للتحليل لما هو مكتوب وللصياغات اللغوية وأثرها على أرض الواقع. [8]

على مدى التاريخ، استخدم الأوروبيون كلاً من الاستيطان والإبادة الجماعية للأعراق بشكل منظم. [9] في الأمريكيتين وأستراليا ونيوزيلندا على سبيل المثال، يرصد التاريخ في سجل الرجل الأبيض إبادة قبائل وشعوب بأكملها من السكان الأصلانيين. لم يتوقَّف الاستعمار عند هذا الحد من الإبادة الجسدية، بل ألحق بها الإبادة الثقافية، [10] والتي لا بدَّ منها لتيسير الاستيطان، إذ يستحيل إحلال مجموعة من المستوطنين في أرض ليست أرضهم، إلا بترحيل السكان الأصليين أو إبادتهم. [11]

استناداً إلى ذلك، تنطلق هذه الدراسة من اعتبار الحرب على غزة حرب إبادة جماعية كما جرى تعريف الإبادة الجماعية في الجمعية العامة للأمم المتحدة. [12] هنا، نلاحظ، بشكل أوَّلي، ما يبدو وكأنه تناقض بين موقفين تميَّز بهما الخطاب الغربي حيال هذه الحرب: فمن جهة، الدعوة لإدخال المعونات، ومن جهة أخرى، تأييد استمرار الحرب بما يعنيه ذلك من مباركة للإبادة.

ولذا، تتمثَّل إشكالية هذه الدراسة في الكشف عن شكلية هذا التناقض في الخطاب الغربي ذي العلاقة، لإثبات أن خطاب «المعونات» و«حماية المدنيين» ليس سوى غطاء لدعم استمرار حرب الإبادة. فالموقف الغربي فيما يتعلق برفض وقف إطلاق النار، أي باستمرار الإبادة، لا يأتي من خلفية الموقف اللحظي المرتبط بالحرب فحسب، بل هو أساس لما نعتبره تماثلاً أيديولوجياً ما بين أيديولوجية الرجل الأبيض الأوروبي الاستعماري، أي الثيمات التي استند إليها في مشروع الاستعمار، بما شملته من إبادة الشعوب الأصلانية، والتي تقف على رأسها مقولات مثل «الرسالة الحضارية» و«النقاء العرقي» و«أرض الميعاد» و«شعب الله المختار،» وما بين أيديولوجية الحركة الصهيونية في فلسطين. ما يعني أن التطابق في المواقف يتجاوز حدود المصالح ليتجاوز حدود التماثل إلى حدود التطابق الأيديولوجي.

تستخدم هذه الدراسة منهجية تحليل الخطاب الغربي بحسب المفهوم الفوكوي للخطاب Discourse Analysis، وبحسب آلياته القائمة على تفكيك الجزيئات التي تؤلِّفه، ثم إعادة تركيبها بغية الوقوف على المعنى الكامن فيه. ولعلَّ هذا يقتضي، وببعض التجاوز لفوكو، ربط ذلك الخطاب بالكلية المحيطة به والمؤثرة فيه، أي الكلية الأيديولوجية المتمثِّلة بخطاب الرجل الأبيض الأوروبي ومقولاته الأيديولوجية.

يصبح من الضرورة تحليل الخطاب الغربي، لا في اللحظة الراهنة فحسب، بل بالرجوع أيضاً إلى أسس نشأته لفهم مآلاته المعاصرة. وتبعاً لاستخدام فوكو مفهوم «الخطاب» للإشارة إلى نظام

من المعارف والممارسات المشروطة تاريخياً التي تنتج المعرفة والتصورات، ويشير عبر استخدامه إلى «الممارسات التي تشكِّل بشكل منهجي الأشياء التي يتمُّ الحديث عنها،» [13] سيتمُّ تحليل مجموعة من التصريحات الصادرة عن ممثلي الاتحاد الأوروبي والدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية في المؤتمرات الصحافية وغيرها، وكذلك مواقف هؤلاء في المحافل الدولية. ولأغراض تدعيم التحليل، تستفيد الورقة من المصادر الأولية للبيانات حول العدوان، مثل المؤسسات المحلية كالجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني ووزارة الصحة الفلسطينية، والمنظمات الدولية كمنظمة الأغذية العالمية ومنظمة الصحة العالمية ووكالة الأونروا.

منابع الأيديولوجيا الصهيونية

تأصيل أيديولوجية الرجل الأبيض

«أنت مدعو للمساعدة في صناعة التاريخ [...] هذا ليس ضمن خطك المعتاد، فهو لا يتعلق بأفريقيا، إنما بقطعة من آسيا الصغرى، وهو لا يتعلق بالإنجليز بل باليهود. ولكن لو كان هذا في طريقك، لكنت فعلت ذلك الآن. فلماذا أتوجَّه إليك إن كان هذا أمراً خارج خطك المعتاد؟ كيف حقاً؟ لأنه شيء استعماري.» [14] بهذه الكلمات، التي خاطب بها ثيودور هرتزل مؤسس الصهيونية، المستعمر الإنجليزي سيسل رودس، عرَّف هرتزل الصهيونية بارتباطها الوثيق بالاستعمار الأوروبي.

لم تبخل الدراسات المختلفة في تتبُّع تشكُّل الأيديولوجيا الصهيونية منذ أواسط القرن التاسع عشر، واكتشاف منابعها. ولعل عبد الوهاب المسيري من أكثر الباحثين الذين قضوا سنوات في ذلك، حيث أشرف على إعداد موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية. يرى المسيري أن التتبُّع التاريخي لنشأة فكرة القومية اليهودية يعود إلى أحد أهم النماذج القومية للمؤرخ سيمون دوفنوف الذي أشار إلى اليهود كـ «قومية في الشتات.» انطلق دوفنوف من افتراض مبني على «وجود وحدة بين الأقليَّات اليهودية المنتشرة في العالم، لكن الوحدة لا تحب التنوُّع.» ولذلك يرفض الصهاينة «الحل الاندماجي» بل «يتَّفقون على ضرورة» إعادة توطين «اليهود خارج روسيا،» في حينه. حقيقة، لم تلقَ دعوة إنهاء أزمة الشتات، عبر حركة الاسترداد [15] ترحيباً عالياً من جهة اليهود، وبقيت «مسعى غير يهودي بالدرجة الأولى،» [16] وهذه حيثية مهمة في سياق المحاججة بأن الدولة اليهودية هي مشروع صهيوني للرجل الأبيض الأوروبي، قبل أن تكون مشروعاً يهودياً.

كما يشير المسيري إلى الجانب الأكثر أهمية في سياق نقاش الدولة اليهودية وعلاقتها بالإبادة الجماعية، وهو «الغيتو» كون الانعزالية هذه بالضرورة ترفض كل ما هو غريب في الحيِّز، وتكنُّ عداءً شديداً لـ«الآخر» الذي قد ينتهك هذه العزلة ما قد يقودها إلى اتباع أساليب «متطرفة» للحفاظ عليها، ومنها الإبادة الجماعية. لقد نشأت هذه التجمعات اليهودية بعد ازدياد نفوذ البرجوازية المسيحية في المدن الكبرى في أوروبا، ما دفع اليهود إلى خلق منعزلات في مجتمعات شرق أوروبا بشكل «طوعي» والتي امتلكت قواعد تنظيمية وإدارية وقانونية خاصة بها، احتضنت اليهود ومنعتهم من الإقامة أو العمل خارجها. [17] إن هذه «الطوعية» لا تحيل إلى اضطهاد عرقي لليهود لدفعهم للانعزال كما ذهب المسيري، وكما الادعاء لتبرير هجرة اليهود واستيطانهم في فلسطين. إن أطروحة المسيري حول «الطوعية» هذه إطلاقية في غير محلها، فهذا الفهم لا يدعمه التاريخ الملموس، ذلك أن الانعزال اليهودي في أوروبا، يلقي بظلاله على هدف الإبادة الجماعية للشعب الفلسطيني في سعي اليهود لبناء دولتهم، أو الغيتو الخاص بهم.

في مقابل المسيري، يتضح من مقولات صبري جريس أن التاريخ يعجُّ بالإجراءات والقوانين والمؤسسات المعادية لليهود والتي انتشرت فترة الهيمنة السياسية للكنيسة في أوروبا- ما قبل الثورة الفرنسية والثورات البرجوازية عموماً وتشكيل الدول الليبرالية. [18] وعلى ذلك، يمكن الافتراض أن القمع دفع السلطات السياسية والدينية لعزل اليهود، ما خلق مع مرور الوقت نزعة متزايدة لدى اليهود، لا للتمسُّك بالغيتو باعتباره أرضية الحفاظ على الثقافة والموروث الديني الهويَّاتي، والذي، لطبيعته تلك، لن يخلو من العنصرية، شأنه شأن كل الهويات المنغلقة على الذات.

إن الانعزال التاريخي هذا لا يمكن أن يفهم بشكل منعزل عن الإبادة المستمرة منذ العام 1948، ومروراً بالعام 1967، أو الذي يحصل بشكل مستمر عبر سلسلة طويلة من السنين والذي يسميه بابيه «الإبادة التدريجية»Incremental Genocide، وهو مفهوم استخدمه بالتحديد لوصف السياسة «الإسرائيلية» تجاه قطاع غزة منذ العام 2006. [19] أما «الترحيل الصامت»، بحسب إيليا زريق، فيعني ترحيل الفلسطينيين عبر خلق ظروف صعبة تدفعهم إلى الهجرة. [20] واليوم تتكرر تصريحات المسؤولين الصهاينة في ظل حرب الإبادة عن «الهجرة الطوعية» و«المؤقتة» للفلسطينيين من غزة، [21] فـ«الطوعية» في ظل الإبادة تغدو قسرية بالضرورة.

لقد كان جريس محقّاً حين أشار إلى أن نظام الغيتو الذي وضعه الأوروبيون يعمل لـ «خدمة المسيحية» ولـ «اتقاء شر اليهود»، غير أنه في نهاية المطاف، ساعد اليهودية بتلك القيود على الاحتفاظ بجوهرها خلال تقلبات القرون الوسطى. [22] يمكن الافتراض ببساطة أن دفع اليهود نحو الغيتو كان بمثابة تعزيز لهوية يهودية منعزلة ثقافياً ورافضة للاندماج، وبالتالي كان الغيتو بمثابة الحصن الثقافي، بحيث اعتبره جريس بمثابة «أرضية صالحة للعمل بين يهود الغيتو المتدينين والمنغلقين على أنفسهم.»[23]

إن الغيتو، وباعتباره «الأرضية

الصالحة،» كان هو ذاته أرضية صالحة لما ندعوه «التلاقح البنيوي بين النص الديني والأيديولوجية الصهيونية» بغية تشكيل قومية متخيَّلة تجمع المجموعات اليهودية المتفرِّقة، والموحَّدة على أساس الثقافة والهوية الدينية التي شكَّلها الغيتو، وملاحقات تمتد إلى مئات السنين. [24] كان من الواضح أن ثقل الانعزالية الثقافية لليهود في الغيتو، أقوى تأثيراً من مساعي الاندماج التي افتتحتها إعلانات الثورة الفرنسية. [25] وكان شلومو ساند قد تتبع في مؤلفيه اختراع شعب إسرائيل واختراع أرض إسرائيل الورشة الثقافية الصهيونية، كتمهيد للمؤتمر الصهيوني الأول للقيام بعملية التلاقح بين النص الديني والفكر القومي الأوروبي لبعث المولود الجديد، ومشروعه بدولة لليهود. [26]

أما المنبع الآخر والمهم فهو اللحظة التاريخية في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، والتي وفَّرت الظروف الملائمة لبلورة الحركة الصهيونية سياسياً. فتلك اللحظة التي تميزت بتسيُّد مفهومَي القومية والدولة، طرحت بقوة فكرة القومية والدولة اليهودية، وبتأثير ذلك التلاقح مع الثيمات الدينية، وخاصة ثيمة «أرض الميعاد» التي استخدمها الصهاينة كثيمة توجيهية لمشروع سياسي، وجدت تأييداً واسعاً في العديد من الأوساط البروتستانتية. [27]

وبغض النظر عن النقاش حول الحامل الطبقي لمشروع الحركة الصهيونية، سواء أكانت الطبقة الوسطى اليهودية كما يذهب عزمي بشارة، [28] ويتَّفق معه صبري جريس، [29] أو الرأسمال اليهودي الكبير كما يذهب مثلاً يوري أيفانوف، [30] فإن المؤكَّد تاريخياً لدى الباحثين، هو نشأة الحركة والأيديولوجية الصهيونيتين متأثرة بتلك اللحظة التاريخية التي طرحت وبقوة فكرة القومية والدولة، والتي احتضنت مشاريع الرجل الأبيض الأوروبي الاستعمارية.

الدولة اليهودية: مشروع الرجل الأبيض

«نحن في فلسطين، لا نرى حتى التمسك بالشكل في استثارة رغبات السكان الحاليين في فلسطين، لا ريب في أن الصهيونية، سواء أكانت على حق أم على باطل، سواء أكانت طيبة أم شريرة، عميقة الجذور في تقاليدنا، في حاجاتنا الراهنة، وآمالنا المقبلة، وهي أكثر أهمية لنا من رغبات السبعمئة ألف عربي الذين يقيمون الآن في البلاد العريقة.»[31] بهذه الكلمات عبَّر اللورد آرثر بلفور عن العلاقة بين الصهيونية وبريطانيا فيما يتعلق بفلسطين. وارتباطاً بذلك، فقد وصف بشارة الصهيونية على أنها «تمثل أوروبا أمام الشرق،» وبذلك «تسنح لها الفرصة التي طالما تاقت لها بأن تصبح أوروبية.» [32] كما يصف زريق الاستيطان، في فلسطين، على أنه «إعادة إنتاج النماذج الأوروبية لمجتمع المستوطنين في أراضٍ جديدة يُزعم أنها غير مأهولة.»[33]

نحن هنا أمام مفارقة. فقد تشكَّلت الصهيونية في رحم مشروع الرجل الأبيض الغربي، وبالتالي يمكننا وصف الصهيونية بأنها مشروع أوروبي في الشرق، إذ كانت المادة البشرية لكيانها في البدايات يهود أوروبا، أي اليهود الأشكناز، ولم يعيروا الانتباه لليهود الشرقيين إلا لاحقاً مع حاجتهم للأيدي العاملة الرخيصة. نحن إذاً أمام معضلة مركبة: مشروع صهيوني أوروبي غربي أشكنازي بامتياز، يستند إلى موروث ديني توراتي شرقي، وإلى مادة بشرية أوروبية بيضاء، ويقيم دولته في الشرق.

إن حجم التناقضات التي تتضمنها هذه المعضلة هي بالضبط ما يجعل الوجود الصهيوني في فلسطين غريباً وغير متَّسق مع التاريخ وحقائقه.

يعتبر المسيري أن التاريخ الفكري الأوروبي وفَّر الظروف المواتية للصهيونية للتحوُّل من «مجرد فكرة إلى منظمة مهيمنة على اليهود في العالم، ثم إلى دولة ذات قوة عسكرية ضخمة.» [34] والمسيري هنا يستحضر حركة الاسترداد المسيحية التي طالبت بإعادة اليهود إلى «موطنهم الأم» ليتسنَّى للحركة التبشيرية التبشير بالمسيح عبر تجميع اليهود في مساحة محدودة. [35] وهنا يلقي الفكر الاسترادادي ظلاله على الكيان الصهيوني كمشروع للرجل الأوروبي، فالاستراداديون ينظرون إلى اليهود على أنهم «جماعة يمكن توطينها في فلسطين، أو غيرها من الأماكن، لخدمة المصالح الاستعمارية.» [36] أما ساند، فيرى أنه تمَّ اختراع فكرة «عودة اليهود» بهدف «إثارة تعاطف العالم الغربي، وبالتحديد البروتستانتي، من أجل تبرير مشروع استيطاني جديد.»[37]

وعلى ذلك، يمكن وضع اليد على العلاقة البنيوية بين اليهود وبعض التفسيرات الدينية البروتستانتية، خاصة أن ما يجمع بينهما هو النص التوراتي للطرفين. فـ «أرض الميعاد» و«عودة المسيح» و«شعب الله المختار» و«الإبادة العرقية» هي ثيمات أربع وفرت الأرضية لتلك العلاقة، وقد بيَّنها بوضوح منير العكش في مؤلفاته حول مشروع الرجل الأبيض، إذ استخدمت الحركة الصهيونية في فلسطين الثيمات ذاتها التي استخدمها المستعمرون البيض في الأمريكيتين. [38]

يؤطِّر العكش «فكرة أميركا» في سياق «فكرة إسرائيل» التوراتية، محدداً ثلاث مهمات أساسية لتحقيق هذه الفكرة والتي لا يمكن تحقيقها إلا بالعنف، وهي: «احتلال بلاد الآخرين، واستبدال سكانها بسكان غرباء، واستبدال ثقافتها وتاريخها بثقافة المحتلين الغرباء وتاريخهم.» [39] ويمكننا هنا رؤية التلاقي بين مشروع أميركا والمشروع الصهيوني المستند إلى «فكرة إسرائيل» التوراتية.

حتى اللحظة، لا يزال الكثيرون ينظرون إلى مشروع الاستيطان الصهيوني بارتباطاته الدينية- السياسية مع المشروع الأوروبي. [40] لذلك، يربط ساند بين العداء الصهيوني لهجرة اليهود لأمريكا، قبل الهولوكوست وبعدها، والدفع بالهجرة لفلسطين. [41] وهذا يعني أن ذات السياسة التي اعتمدها الصهاينة بالترحيب بالغيتو باعتباره الكنز الثقافي للدفع بالهجرة لفلسطين، تتكرر هنا في العداء للهجرة لأمريكا. وأكثر من ذلك، فإن المنطق يقتضي الإشارة إلى خدمة المحرقة النازية لمشروع الحركة الصهيونية في رفع نسبة الهجرة لفلسطين، وعلى هذا الصعيد يورد إيفانوف في كتابه وقائع كثيرة حول تعاون الصهاينة مع النازيين بهدف تسهيل الهجرة. [42]

وقد لعبت بريطانيا الدور المركزي في تشكيل دولة الكيان ويبرز ذلك عبر عدة أحداث تاريخية مهمة، منذ تصريح بلفور وحتى تسليم فلسطين للعصابات الصهيونية في العام 1948. [43] كما لعبت فرنسا دوراً لا يستهان به في توطين اليهود في فلسطين، وذلك منذ العام 1798 حين تمَّ طرح فكرة توطين اليهود في فلسطين، [44] وفي العام التالي اقترح نابليون بونابرت إقامة دولة يهودية في فلسطين لخدمة مصالح فرنسا.[45] ومن ثم كان لافتتاح فرنسا قنصلية لها في القدس في أربعينيات القرن التاسع عشر، الدور المهم في تشجيع اليهود للهجرة والاستيطان. [46] أما القضية الأكثر فضائحية للصهاينة، فهي ما تناوله توني جرينتسن حيث يورد حوادث معروفة مثل اتفاقية «هاعفراه» بين الصهاينة والنازيين والتي هدفت إلى نقل اليهود الألمان إلى فلسطين [47].

هذا، ولا تنفصل فكرة إنشاء «إسرائيل» عن «عقدة الرجل الأبيض» Whiteman Complex. فمنذ بداية التخطيط للفكرة الصهيونية، تمحورت الثيمة المركزية حول بناء «إسرائيل» على أنقاض فلسطين، وتمَّ طرح هذه الفكرة وتنفيذها بشكل يتناسب مع «مفاهيم إعادة بناء الاستعمار بالغة الأهمية للإمبريالية الأوروبية العليا.»[48] وهذه حيثية مهمة في ثيمة التلاقي بين المشروع الأمريكي والصهيوني، فاستخدام العنف «ضروري ومطلق» لتحقيق بناء المشروع، وكان الخطاب «الأمريكي الإسرائيلي» يهدف لأن «يُقرن طقس العنف المميت بإرادة الله ليضع الأسس الأخلاقية اللازمة لاستبدال شعب منحط بشعب متفوق وثقافة بدائية بثقافة سامية.» [49] لقد عبَّر إدوارد سعيد عن ذلك قائلاً: «إن المشروعين الصهيوني والأوروبي يشتركان في المثل العليا، وقيم الحضارة والتقدم التي لا يمكن للشرقي أن يفهمها كما يزعمون، وكما يبين وايزمان، فإن الصراع في فلسطين هو صراع لانتزاع السيطرة على الأرض من أيدي السكان الأصليين، لكن الصراع هو أيضاً صراع يستمد رفعته من أنه صراع على فكرة (سامية)، والفكرة هي كل شيء.»[50]

الإبادة الجماعية في سياق الاستعمار

يتمُّ تعريف الإبادة الجماعية بحسب اتفاقية منع الإبادة الجماعية للعام 1946 على أنها أيّاً من الأفعال التالية، على قصد التدمير الكلِّي أو الجزئي لجماعة قومية أو إثنية أو عرقية أو دينية، بصفتها هذه: «قتل أعضاء من الجماعة، إلحاق أذى جسدي أو روحي خطير بأعضاء من الجماعة، إخضاع الجماعة عمداً لظروف معيشية يُراد بها تدميرها المادي كلياً أو جزئياً، فرض تدابير تستهدف الحؤول دون إنجاب الأطفال داخل الجماعة، نقل أطفال من الجماعة، عنوة، إلى جماعة أخرى.»[51]

وفي إحدى أهم المساهمات عن الإبادة، يربط دريزن بيتروفيك بين الإبادة والفكر القومي، والتي يعرِّفها على أنها «سياسة محددة جيداً تتبعها مجموعة معينة من الأشخاص للقضاء بشكل منهجي على مجموعة أخرى من

إقليم معين على أساس الأصل الديني أو العرقي أو القومي [...] وترتبط في كثير من الأحيان بالعمليات العسكرية.» [52] ويؤكِّد بابيه أن الممارسات التي اقترفها الاستعمار الصهيوني بحق الفلسطينيين أثناء إقامته لدولته، وبالتحديد «خطة دالت» للعام 1948، تنطبق بشكل تام مع تعريفات الإبادة الجماعية بحسب المواثيق الدولية. [53].

وفي وصفه لمسار التهجير الفلسطيني، يفرد شريف كناعنة حيزاً لإثبات الحقيقة التاريخية التي يطرحها وهي أن التهجير القسري، لا الهجرة كما تدَّعي الحركة الصهيونية، كانت تتمُّ بشكل مخطط وثابت منذ ما قبل العام 1948. [54] في معرض إثباته لاعتقاده، يتناول كناعنة العلاقة بين الزمن والأرقام ليلحظ أنه ومنذ عشرينيات القرن العشرين كان هناك تناسب عكسي بين ازدياد عدد المستوطنين اليهود وتناقص عدد الفلسطينيين، وهذا ما تمَّ عبر عملية ترحيل الفلسطينيين والاستيلاء على أراضيهم. [55] إن هذه العملية من الترحيل والإحلال هي محور المشروع الصهيوني برمته، تلك العملية التي بلغت ذروتها في العام 1948، واستمرت بعد ذلك عبر خلق الظروف الدافعة للتهجير، كما يحدث في غزة اليوم.

وفي ربطه بين الاستعمار الاستيطاني والإبادة، يجادل باتريك وولف بأن الممارسة الاستعمارية الاستيطانية بطبيعة الحال تحوي منطق الإزالة، لكنها ليست بالضرورة إبادة جماعية دائماً. [56] ومع ذلك، فكون عملية الإزالة التي يتطلبها الاستعمار ليكتمل هي بنية اجتماعية معقدة، وليست محض حدث واحد فاصل، فإنها تشمل الإزالة الفيزيائية والرمزية. [57] وهذا ما يمكن رؤيته، على سبيل المثال، في السعي الصهيوني الدائم لتغيير الطابع العربي للفضاء الفلسطيني برمته، عبر تغيير الأسماء، أي أسماء كل مفردات الفضاء، واستبدالها بتسمية عبرية منسوبة لنص أسطوري ديني. لقد أطلق عبد الرحيم الشيخ على الخطط «الإسرائيلية» لإعادة تسمية كل مفردات المشهد مصطلح «متلازمة كولومبوس» نسبة إلى مخيال التسمية الثلاثي لكولومبوس المكوَّن من المجال الإلهي الذي يوصف خلاله الاستعمار بالقداسة، والمجال الطبيعي الوسيط الذي يبعث البهجة المستعارة بامتلاك الفضاء المستباح، والمجال البشري الذي يؤمِّن الثروة ويحرسها لمواصلة الغزو. [58] هنا، ترتبط الحاجة الاستعمارية لتأويل ما هو طبيعي وبشري بأساس قداسي. ويلاحظ الشيخ العلاقة بين الفكر الصهيوني والمشروع الاستشراقي الأوروبي، ويستشهد بسعيد مشيراً إلى أن عالم الأفكار الذي مهَّد الطريق لقيام «إسرائيل» يجد جذوره بذات العالم لمشروع الاستشراق الأوروبي. [59] وهذا عنصر آخر من التلاقي بين المشروعين، الأبيض في أميركا الشمالية والصهيوني في جزئية استبدال ثقافة السكان الأصليين التي طرحها منير العكش. [60] لذا، يعود وولف إلى جدله ليقرَّ بأنه لا يمكن عزل مخرجات الإزالة الفيزيائية والرمزية عن مفهوم الإبادة الجماعية، ولهذا، يستخدم وولف مصطلح «الإبادة الجماعية البنيوية.»[61]

يطرح وولف فكرة خلق مفهوم السواد عبر العبودية، بمعنى أن العبودية بحد ذاتها هي التي شكَّلت السواد، مقابل البياض، في المقابل أتى قتل السكان الأصليين في أميركا الشمالية استهدافاً مباشراً لعرقهم كهنود.[62] في الحالة الفلسطينية، يمكن ملاحظة أن الهوية الفلسطينية نشأت عبر الصراع مع المشروع الصهيوني. لقد تجسَّدت تلك الهوية، فيما تجسدت، بطرح فكرة استقلال فلسطين، عن سوريا الطبيعية، في المؤتمر الإسلامي المسيحي الرابع في العام 1925. [63] وبالتالي يمكن المحاججة أن تبلور الهوية الوطنية الفلسطينية تمَّ في لحظة الصراع مع المشروع الإحلالي الاستيطاني الصهيوني أساساً.

في سياق مقارب، فإن ديبورا روز لا تعتبر الغاية المركزية للإزالة ذات جذور عرقية، بل تجد عبر الإزالة فرصة في الوصول إلى الأرض. [64] وهذه أطروحة غريبة وغير متسقة لأنه من دون إزالة العرق لا يمكن الوصول إلى الأرض، وهذا ما ظهر في العدوان على غزة بتصريحات صهيونية تدعو لمسح غزة للعودة للاستيطان فيها. يمكن فهم استحضار وولف لمفهوم الأرض وضرورتها للاستعمار، [65] وهذا مهم في السياق الفلسطيني، ويمكن رؤية جذوره في المقولة التي أطَّرت الترويج الصهيوني لاستعمار فلسطين «أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض»، فكانت الأرض مساحة جغرافية لخلق وطن لليهود في الشتات. لم يأتِ اليهود إلى فلسطين للعيش بسلام مع الفلسطينيين، بل كان من الضروري التخلُّص من السكان المحليين للأرض، لكي يتمَّ استكمال المشروع الاستيطاني القومي. [66] إن استهداف الفلسطينيين بالترحيل أساساً، والإبادات المخطط لها هنا وهناك عبر المجازر، بغية الترحيل، يقدم المؤشِّر على أن الترحيل والإبادة في لحظة تاريخية محددة كانت ركناً أساسياً في المشروع الصهيوني، وتعبيراً عن تلك العلاقة التلاقحية مع مشروع الإبادة الأم، أي المشروع الأوروبي للرجل الأبيض.

يتبع

الإحالات

[1] Israeli defense minister orders» ‹complete siege› on Gaza,» Al Jazeera, 9 October 2023, accessed 1 March 2025. https://bit.ly/3SJp5Ae

[2] «تصريح جوزيف بوريل،» 17 تشرين الأول 2022، شوهد في 1 آذار 2025. https://bit. ly/43T03Ur .

[3] Josep Borrell, «On metaphors and geo-politics,» European Union External Action, 10 October 2022, accessed 1 March 2025. https://bit.ly/4kZCS1C.

[4] Ilan Pappe, The Ethnic Cleansing of Palestine (London, England: Oneworld Publications, 2007), 67.

[5] صبري جريس، تاريخ الصهيونية، الجزء الأول 1862 - 1917، ط2 (بيروت: مركز الأبحاث-منظمة التحرير الفلسطينية، 1981)، 70-13.

[6] Edward Said, The Question of Palestine

(New York: Vintage Books, 1980): 15-16.

[7] محمد الزبن، تعامل المنظمات الدولية مع القضية الفلسطينية: استعمار ناعم؟ (رام الله: مرصد السياسات الاجتماعية والاقتصادية، 2023)، 6.

[8] أرضي امسيس، الأمم المتحدة والقضية الفلسطينية: دراسة في التهميش الدولي القانوني، ترجمة كريم عساف (كامبريدج: جامعة كامبريدج، 2019)، 60-44؛ كميل منصور، «القرار رقم 242 من وجهة نظر كميل منصور،» مدونة فلسطين الميدان، 7 كانون الثاني2014. https://bit.ly/4kTi8ID.

[9] Patrick Wolfe, «Settler colonialism and the elimination of the native,» Journal of Genocide Research, Vol. 8, No .4 (2006): 387-409.

[10] منير العكش، أميركا والإبادات الثقافية «لعنة كنعان» الإنكليزية (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، 2009).

[11] عدم القيام بالإبادة أحياناً كما في جنوب إفريقيا والجزائر، لا يعكس «أخلاقية» المستعمر، بل بسبب حاجة المشرع لليد العاملة.

[12] وذلك استناداً لقرار الجمعية العامة 96 (د – 1) المؤرخ في 11 كانون الأول / ديسمبر 1964: «اتفاقية منع جريمة الإبادة الجماعية والمعاقبة عليها»، شوهد في 1 آذار 2025.

https://bit.ly/3SGyxEk

[13] Michel Foucault, Archaeology of knowledge (New York: Tavistock Publications Limited, 1972), 135-140. See also: Michel Foucault, «The Order of Discourse»› in Untying the Text: A Post-Structuralist Reader, ed. R. by Young (London: Routledge & Kegan Paul, 1981)).

[14] Stephen Halbrook, «The Class Origins of Zionist Ideology,» Journal of Palestine Studies, Vol. 2, No. 1 (1972): 86-110, 86.

[15] مصطلح الاسترداد أو الاستردادية مصوغ لتوضيح تلك الحركة الداعية للرجوع إلى أرض الميعاد في الأدبيات اليهودية والبروتستانتية المسيحية والتي غدت من أهم مصطلحات الرجل الأبيض في تبرير حركته الاستعمارية.

[16] عبد الوهاب المسيري، الأيديولوجية الصهيونية (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1982)، 105.

[17] المصدر نفسه، 25-27.

[18] جريس، مصدر سبق ذكره، 299-271.

[19] Ilan Pappe, The Biggest Prison on Earth: A History of the Occupied Territories (London: Oneworld Publications, 2017); «Using the Right Language: The ‹Incremental Genocide› of the Palestinians Continues,» The Palestine Chronicle, 16 March 2023, accessed 1 March 2025. https://bit.ly/3FFwRbm.

[20] إيليا زريق، «الديموغرافيا والترانسفير: طريق إسرائيل إلى اللامكان،» مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد 5 (2003): 59-42.

[21] عبد الرؤوف أرناؤوط، «إعلام عبري: نتنياهو يعمل على تحقيق «الهجرة الطوعية» لسكان غزة،» الأناضول، 25 كانون الثاني 2023، شوهد في 1 آذار 2025. https://bit.ly/4mMZns9 .

[22] جريس، مصدر سبق ذكره، 14.

[23] المصدر نفسه، 15.

[24] وسام رفيدي، «العنف والقومية المتخيلة: التلاقح البنيوي بين النص الديني اليهودي والأيديولوجيا الصهيونية،» الحوار المتمدن، 22 آذار 2015، شوهد في 1 آذار 2025. https://bit.ly/4mYdjjo .

[25] جريس، مصدر سبق ذكره، 15.

[26] للمزيد انظر: شلومو ساند، اختراع أرض إسرائيل (الأردن: الأهلية للنشر والتوزيع ورام الله: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، 2014)؛ اختراع الشعب اليهودي (الأردن: الأهلية للنشر والتوزيع ورام الله: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، 2011).

[27] المصدر نفسه.

[28] عزمي بشارة، «مائة عام من الصهيونية، من جدلية الوجود إلى جدلية الجوهر،» الكرمل، العدد 53 (1997): 20-11.

[29] جريس، مصدر سبق ذكره، 46.

[30] يوري ايفانوف، حذار من الصهيونية (موسكو: دار التقدم، 1970).

[31] اللورد آرثر جيمس بلفور، مذكرة، 11 آب 1919، للمزيد انظر: ساند، اختراع أرض إسرائيل، مصدر سبق ذكره، 143.

[32] بشارة، مصدر سبق ذكره.

[33] إيليا زريق، «الصهيونية والاستعمار،» عمران، العدد 8 (2014): 7– 34، 9.

[34] المسيري، مصدر سبق ذكره، 103.

[35] المصدر نفسه.

[36] المصدر نفسه، 104.

[37] ساند، اختراع أرض إسرائيل، مصدر سبق ذكره، 35 .

[38] للمزيد انظر: منير العكش، تلمود العم سام - الأساطير التي تأسست عليها أميركا (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، 2004)؛ حق التضحية بالآخر: أميركا والإبادات الجماعية (بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، 2002)؛ أميركا والإبادات الثقافية «لعنة كنعان» الإنكليزية، مصدر سبق ذكره.

[39] العكش، تلمود العم سام، مصدر سبق ذكره، 211-210.

[40] المسيري، مصدر سبق ذكره، 105.

[41] ساند، اختراع أرض إسرائيل، مصدر سبق ذكره، 39 .

[42] إيفانوف، مصدر سبق ذكره.

[43] حسن صالح عثمان، «سياسة هربرت صموئيل وأثرها في تهويد فلسطين،» مجلة شؤون عربية، العدد 52 (1987): 107-116، 109؛ وليد عبود محمد وعبير وفيق شفيق، «موجات الهجرة اليهودية إلى فلسطين حتى عام 1948،» مجلة مداد الآداب، العدد 6 (2013): 340-238.

[44] أمين عبد الله محمود، مشاريع الاستيطان اليهودي (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1984)، 14.

[45] ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1985)، 198-110.

[46] نائلة الوعري، دور القنصليات الأجنبية في الهجرة والاستيطان اليهودي في فلسطين (عمان: دار الشروق، 2007)، 99-94.

[47] إبراهيم العالو، «الحركة الصهيونية خلال الهولوكوست.. تسليح الذاكرة لخدمة الدولة والأمة،» الوسيط، 19 تشرين الثاني 2023، شوهد في 12 كانون أول 2025. https://2u.pw/kGNuZ.

[48] Said, op. cit., 12-13.

[49] العكش، تلمود العم سام، مصدر سبق ذكره، 215-216.

[50] Said, op. cit., 28.

[51] للمزيد انظر الموقع التالي:

اللجنة الدولية للصليب الأحمر، شوهد في 19 شباط 2025. https://bit.ly/4dTOVex

[52] Drazen Petrovnic, «Ethnic Cleansing-An Attempt at Methodology,» European Journal of International Law, Vol. 5, No. 3 (1994): 342- 359.

[53] Pappe, The Ethnic Cleansing, op. cit., 24-25.

[54] شريف كناعنة، الشتات الفلسطيني: هجرة أم تهجير؟ (القدس: مركز القدس العالمي للدراسات الفلسطينية، 1992).

[55] المصدر نفسه.

[56] Patrick Wolfe, «Settler colonialism and the elimination of the native,» Journal of Genocide Research, Vol. 8, No .4 (2006): 387-409.

[57] Ibid.

[58] عبد الرحيم الشيخ، «متلازمة كولومبوس وتنقيب فلسطين: جينيالوجيا سياسات التسمية الإسرائيلية للمشهد الفلسطيني،» مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد 83 (2010): 109-78.

[59] المصدر نفسه، 4.

[60] العكش، تلمود العم سام، مصدر سبق ذكره، 211-210.

[61] Wolfe, op. cit., 387-409.

[62] Ibid.

[63] وسام رفيدي، «الهوية الوطنية الفلسطينية بعد اتفاقية أوسلو: إشكالية التفكك برسم النظام،» جريدة حق العودة، تشرين الأول2011، شوهد في 13 آذار2024. https://2u.pw/tPNry.

[64] Deborah Bird Rose, Hidden Histories: Black Stories from Victoria River Downs, Humbert River and Wave Hill Stations (Canberra: Aboriginal Studies Press, 1991), 46.

[65] Wolfe, op. cit., 387-409.

[66] ساند، اختراع أرض إسرائيل، مصدر سبق ذكره، 35.

ترجمة

ستة أشهر من الفوضى:
إخفاقات ترامب بلا حصر

ديفيد فاريس ـ أستاذ في جامعة روزفلت
مجلة نيوزويك الأمريكية (2025/7/21)

ترجمة: نور نوارة

بعد ستة أشهر فقط من بدء الولاية الثانية للرئيس دونالد ترامب، لم تفشل أجندته فقط وفقًا لمعاييره هو، بل شهدنا بالفعل سلسلة من الكوارث السياسية التي كانت لتُطيح بأي رئاسة قبل عهد ترامب. إن قرارات ترامب العشوائية في تعيين المسؤولين، وأوامره التنفيذية المرتجلة، وتحولاته السياسية المتقلبة، وشره العام، قد اجتمعت لتجعل من هذه الأشهر الستة واحدة من أكثر الفترات اضطرابًا وأقلها نجاحًا في تاريخ الرئاسة الأمريكية.

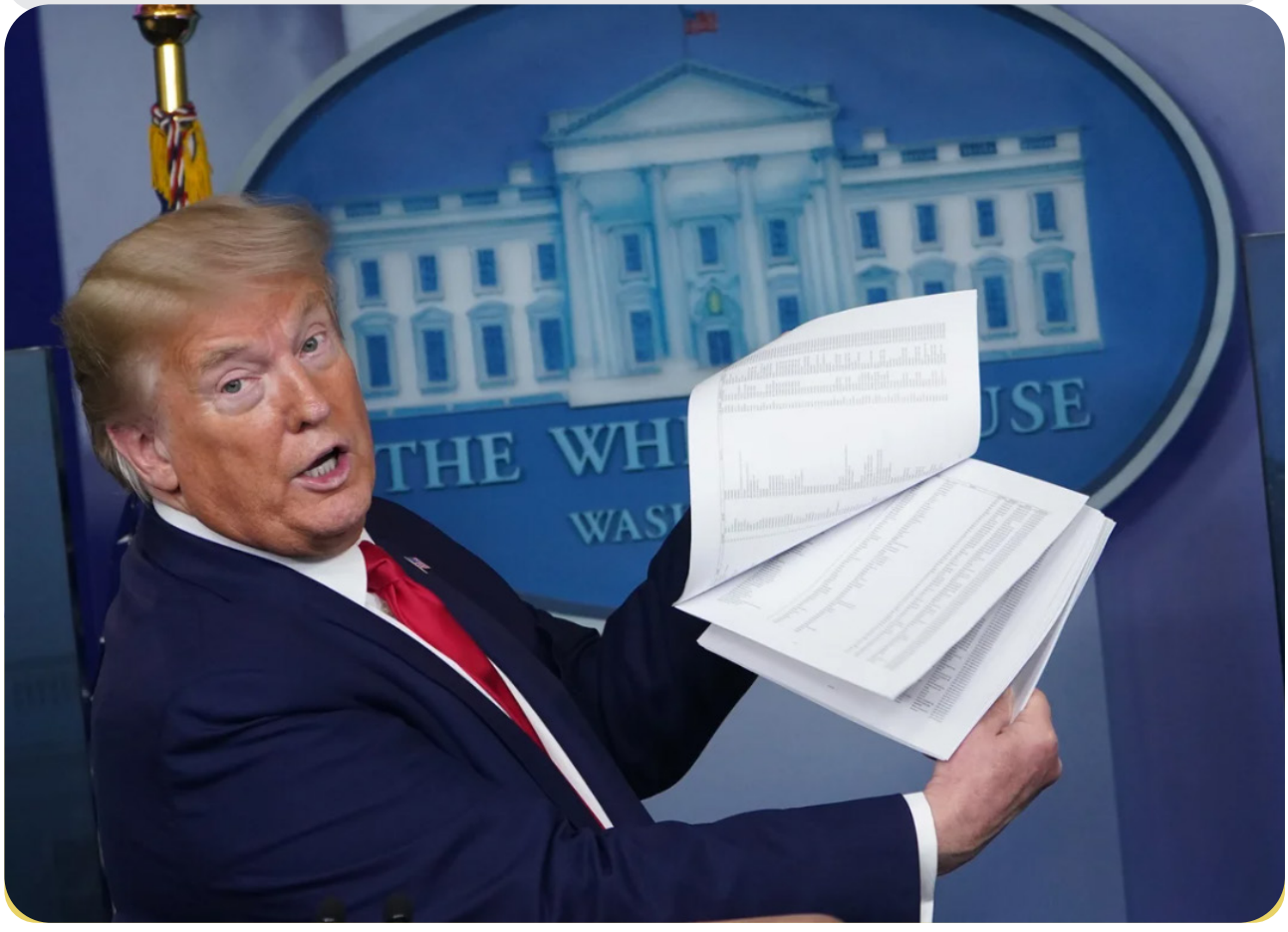

بعد ستة أشهر فقط من بدء الولاية الثانية للرئيس دونالد ترامب، لم تفشل أجندته فقط وفقًا لمعاييره هو، بل شهدنا بالفعل سلسلة من الكوارث السياسية التي كانت لتُطيح بأي رئاسة قبل عهد ترامب. إن قرارات ترامب العشوائية في تعيين المسؤولين، وأوامره التنفيذية المرتجلة، وتحولاته السياسية المتقلبة، وشره العام، قد اجتمعت لتجعل من هذه الأشهر الستة واحدة من أكثر الفترات اضطرابًا وأقلها نجاحًا في تاريخ الرئاسة الأمريكية.

حتى الآن، كانت المبادرتان الرئيسيتان في سياساته كارثيتين. فرضه لما سُمِّي «رسوم تحرير اليوم» الجمركية أدى إلى انهيار كارثي في الأسواق المالية وسوق السندات، أجبر البيت الأبيض على التراجع في غضون أيام. وعلى الرغم من كل تهديداته ووعوده وادعاءاته، لم تسفر سياساته سوى عن عدد قليل من «الاتفاقيات» التجارية المبهمة مع المملكة المتحدة وفيتنام وإندونيسيا. وقد تسببت هذه الرسوم الجمركية في موجة جديدة من التضخم يتوقع أن تزداد سوءًا إذا لم تتراجع الولايات المتحدة، فضلًا عن أنها أضرت بسمعة أمريكا إلى حد دفع دول أخرى للعمل معًا لبناء نظام تجاري جديد من دونها. ومع انتهاء فترة «التوقف المؤقت» البالغة 90 يومًا، أصبح معدل الرسوم الجمركية الفعلي الآن أعلى مما كان عليه عندما أصيبت الأسواق بالذعر خلال الأسبوعين الأولين من أبريل.

هوس ترامب بالترحيل الجماعي أدى إلى تمرير الكونغرس واحدة من أكثر حزم الميزانية رجعية في التاريخ الأمريكي، حيث حُوِّلت مئات المليارات من الدولارات من بنوك الطعام والمستشفيات الريفية والعمال الأمريكيين، لبناء نظام احتجاز داخلي غير أمريكي، تمتلئ مرافقه بعناصر من «إدارة الهجرة والجمارك» المقنّعين، الذين يرهبون الناس المجتهدين في المزارع، ومتاجر «هوم ديبوت»، والمدارس. لقد كانت فظاعة هذه العملية العبثية والمهدرَة للمال كافية لقلب الرأي العام الأمريكي ضد الرئيس وحزبه، في قضيتهما المحورية المتعلقة بالهجرة.

حتى لو كنت تعتقد أن هذه الفوضى ضرورية (وللتوضيح: أنا لا أعتقد ذلك)، فإن ترحيل 11 مليون مهاجر غير موثق في الولايات المتحدة وفقًا للوتيرة الحالية سيستغرق عقودًا. نحن نصرف أموالًا طائلة على ما يشبه «مجرفة لعبة» لإخراج المياه من سفينة تايتانيك الغارقة. لكن لأن هذه الإجراءات تُرضي اليمين المتطرف الذي لا يشبع من إلحاق المعاناة بالبشر، فإنها مستمرة.

وليت الكوارث توقفت عند هذا الحد. لكن تصفية ترامب للحكومة الفيدرالية أدت إلى كارثة لا يمكن تصورها. قراره بإغلاق وكالة إدارة الطوارئ الفيدرالية أدى إلى وجود هيئة غير كافية الموظفين ومحطمة المعنويات، وغير قادرة على الاستجابة الكافية للكوارث. وقد ترك هذا سكان تكساس يواجهون مصيرهم بأنفسهم خلال الفيضانات الكارثية في الرابع من يوليو، والتي أودت بحياة ما لا يقل عن 134 شخصًا. وانتظرت وزيرة الأمن الداخلي كريستي نوم 72 ساعة بشكل غير مبرر قبل أن تصادق على نشر فرق البحث والإنقاذ الحضرية التابعة لـوكالة إدارة الطوارئ الفيدرالية، وذلك بسبب قاعدة تعسفية تتطلب توقيعها الشخصي على أي إنفاق يتجاوز 100,000 دولار.

ولا ننسَ موكب الكوارث اليومية التي تقودها حركة «اجعل أمريكا عظيمة مرة أخرى»، مثل أكبر تفشي لمرض الحصبة منذ ثلاثة عقود، والذي تفاقم بسبب روبرت ف. كينيدي الابن، المعادي للقاحات الذي أقرّه مجلس الشيوخ بشكل لا يُصدّق وزيرًا للصحة والخدمات الإنسانية. وبدلًا من أن يشجع أتباعه المضلَّلين على أخذ اللقاح المعجزة الذي كاد يقضي على المرض، أعلن كينيدي في مايو أنه سيبحث عن علاجات جديدة، وشجع الناس على تجربة زيت كبد الحوت.

إن توثيق أخطاء هذه الإدارة يمكن أن يملأ مجلدات بأكملها — من الحكم بالإعدام على الملايين من خلال حجب المساعدات الغذائية الدولية، وتحطيم معنويات الموظفين الفيدراليين، والإشراف على أسوأ كارثة في مجال السفر الجوي المحلي منذ 16 عامًا، إلى التسبب في انهيار مؤشر ثقة المستهلك بسبب القيادة الاقتصادية المرتبكة، وتسجيل نمو سلبي في الناتج المحلي الإجمالي، وشن حرب غير مبررة ضد إيران ثم نسيانها بعد 48 ساعة، والفشل المهين في جهود الوساطة الدبلوماسية بين روسيا وأوكرانيا، والقائمة تطول.

والأسوأ لم يأتِ بعد. فالحكومة المُفرغة من الداخل لن تكون قادرة على الاستجابة للأزمة الحقيقية التالية (على عكس الأزمات التي يختلقها ترامب بنفسه)، أو على تقديم الخدمات التي يبدو أن الأمريكيين اعتبروها أمرًا مفروغًا منه إلى درجة أنهم انتخبوا أشخاصًا تعهدوا بتدميرها.

في غضون ستة أشهر فقط، جعل الرئيس ترامب الأمريكيين أفقر، وأقل أمانًا، وأضعف صحيًا، وأكثر عزلة، بينما ينفذ سياسات لا أخلاقية ويواصل تقويض سيادة القانون.

وقد يكون الجزء الأكثر رعبًا هو أنه ما زال لديه 41 شهرًا أخرى لمواصلة هذا الخراب. ولا يبدو أن هناك من في الكونغرس المروَّض والعاجز، أو في المحكمة العليا التي يسيطر عليها عناصر حزبيون من الجمهوريين مدى الحياة، لديه الرغبة أو القدرة على إيقافه.

تقرير:

موجة متصاعدة من الهزال وسوء التغذية..

غزة في قبضة التجويع:

جوع قاتل يهدّد حياة أكثر من مليوني روح بلا رحمة

أحمد زقوت ـ صحفي فلسطيني ـ غزة

يواصل الاحتلال الإسرائيلي، منذ نحو خمسة أشهر، فرض حصار خانق على قطاع غزة، عبر منع إدخال المساعدات الإنسانية والبضائع التجارية بشكل كامل، إذ اقتصر دخول السلع على كميات محدودة تُوزَّع عبر بعض المراكز التابعة للمساعدات الأميركية_ «الإسرائيلية»، التي تحوّلت إلى «مصائد موت» بعد أن أودت بحياة المئات منذ افتتاحها قبل شهرين ونصف.

هذا الحصار الخانق الذي يفرضه الاحتلال «الإسرائيلي» على قطاع غزة، فاقم بشكل كارثي الأوضاع المعيشية للسكان، ودفع أكثر من مليوني فلسطيني إلى حافة الجوع والانهيار الشامل، ومع مرور الوقت، لم يعد الجوع خطرًا مستقبليًا، بل واقعًا يوميًا يحصد الأرواح بصمت، ويهدد ما تبقى من مقومات الحياة في القطاع المحاصر.

أطباء: تفشٍ خطير للهزال بين الأطفال

وتتوالى الأنباء المؤلمة عن ارتفاع حصيلة ضحايا المجاعة، إذ استُشهد أكثر من 135 مواطن حتى الآن، بينهم 87 طفلًا، نتيجة سوء التغذية الحاد ونقص المواد الأساسية كالطعام والماء والحليب والأدوية، فيما يترك الأطفال لمصيرهم بين أنين الجوع وأحضان أمهات لا يملكن شيئًا سوى الدعاء، كما تغيب أي استجابة دولية فعالة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من كارثة إنسانية تتسع رقعتها كل يوم.

لم يكن الحصار وحده سبب الكارثة الإنسانية في غزة، بل زادها تفاقمًا تفشي الفوضى وظهور سماسرة الحرب الذين احتكروا المساعدات وحوّلوها إلى تجارة رابحة لفئة تملك النفوذ والسلاح، وسط غياب العدالة في التوزيع وعمليات نهب ممنهجة لما يدخل من إغاثات.

وفي ظل هذا الواقع، تعيش آلاف العائلات في العراء وتفترسها المجاعة، فيما يشير أطباء

إلى تزايد حالات «الهزال الحاد» بين الأطفال، وولادات لأطفال منخفضي الوزن نتيجة نقص الغذاء، أما الحليب، بات حلمًا، والخبز رفاهية لا تُنال إلا بشقّ الأنفس بعد تضاعف ثمنه عشرات المرات.

من نُطعم ومن نترك جائعًا؟

المواطنة تهاني عبد العال تجلس أمام خيمتها المهترئة قرب إحدى مدارس الإيواء في مدينة غزة، تحيط بطفلها الأصغر، أيمن (4 سنوات)، وتحاول تهدئته رغم بكائه المستمر من شدة الجوع، فيما وجه الطفل الشاحب ونظراته الزائغة تختصر معاناة مئات آلاف الأطفال في القطاع المحاصر، الذين بات الجوع رفيقهم اليومي، في وقتٍ لم تعد فيه الأمهات قادرات على تأمين ما يسد رمقهم، بعد نفاد كل المواد الغذائية المتوفرة.

قالت عبد العال لـ «الهدف»، وهي تحتضن طفلها المتعب من الجوع: «طفلي يبكي طوال اليوم من شدة الجوع، ولا أملك ما أُطعمه، لا خبز، لا حليب، ولا حتى جرعة ماء نظيفة نُسكت بها عطشه»، مضيفةً بحرقة: «والله لم يبقَ في خيمتي شيء، حتى العدس الذي كنا نطحنه ونسلقه قد نفد، ونقضي كل يوم في انتظار مساعدة قد لا تصل أبدًا، فالمساعدات تُنهب، والأسعار مرتفعة، ولا مصدر دخل لدينا».

وأشارت عبد العال إلى أن أطفالها لا يتوقفون عن البكاء بسبب الجوع الذي لا يفارقهم، نتيجة نفاد المواد الغذائية الأساسية، وحتى المعلبات غير الصحية التي كانت تعتمد عليها رغم مضارها، اختفت تمامًا، كما اختفى الدقيق وجميع مكونات الوجبات البسيطة، مهما كانت صغيرة أو محدودة.

وتابعت: «حين تتوفر وجبة بسيطة، بالكاد تكفي أحد أطفالي الثلاثة، وأحيانًا أطبخ قليلًا من الأرز إن وجد، فأقف حائرة مَن أطعم، ومَن أُرسله إلى النوم جائعًا؟»، مبينةً أنّ «ابني الأكبر صار يدرك فداحة ما نعيشه، يقول لي: ماما، خلّي الأكل لأخويا الصغير، فأصمت، وأكتم بكائي داخلي».

فقدان الوزن وخشية الفقد

النازحة من شمال غزة، سعاد الصفدي، أم لستة أطفال، روت تفاصيل يومها المؤلم، قائلة: «لم نتمكن اليوم إلا من تناول كمية ضئيلة من العدس، بلا زيت أو ملح، وفي الليلة الماضية غليت لهم ماءً مع قليل من الزعتر، وقدمتها لهم قبل النوم لعلي أخفف عنهم وطأة الجوع والبكاء».

وأضافت الصفدي في حديثها لـ «الهدف» بمرارة: «لم نعد نفكر في تحضير أطباق فاخرة أو وجبات شهية، بل أصبح هدفنا الوحيد إيجاد لقمة بسيطة تبقينا على قيد الحياة وسط هذه المجاعة القاسية التي تحاصرنا بلا رحمة، نحن وأطفالنا »، مشيرةً إلى أنّها يتابعون الأخبار يوميًا بحذر وقلق، يعلقون آمالهم على وصول المساعدات وفتح المعابر، على أمل الحصول على طرد غذائي أو حتى فرصة لشراء كمية قليلة من الطعام.

ورفعت الصفدي بصرها إلى أطفالها النحفاء، وقالت بأسى: «أبنائي فقدوا الكثير من وزنهم، ولا أملك طعامًا بسيطًا لهم، وأخشى أن أفقدهم بسبب الجوع القاتل»، موضحةً أنّ الواقع المرير دفعها إلى اللجوء للسوق السوداء لشراء كميات قليلة بأسعار مرتفعة تفوق طاقتها، مما يزيد من صعوبة تأمين لقمة العيش لأطفالها.

سوء التغذية يحصد الأرواح

وتواصل المجاعة في غزة حصد المزيد من الأرواح، وسط صمت عالمي مخزٍ، فقد نقلت تقارير ميدانية شهادات صادمة عن رضّع فارقوا الحياة بعد أيام من اعتمادهم على مشروبات عشبية فقط، نتيجة انعدام الحليب الصناعي والنقص الحاد في المواد الغذائية الأساسية، حتى للأمهات المرضعات.

وفي هذا السياق، أعلن مدير مستشفى الشفاء في غزة، الدكتور محمد أبو سلمية، عن ارتفاع عدد ضحايا المجاعة خلال الـ 24 ساعة الماضية إلى أكثر من 6 شهداء، بينهم أطفال، ليرتفع بذلك إجمالي الوفيات الناجمة عن الجوع وسوء التغذية إلى 135 حالة، بينهم 87 طفلًا، محذراً من أنّ غزة على أبواب كارثة إنسانية أكبر، وأرقام الوفيات مرشّحة للارتفاع بسبب سياسة التجويع الممنهجة.

وأكد أبو سلمية في تصريح صحفي، أنّ 900 ألف طفل في غزة يعانون من الجوع، من بينهم 70 ألفًا دخلوا بالفعل في مرحلة سوء التغذية، مشددًا على أن حياة مرضى السكري والكلى في خطر بالغ، إذ يتعرضون لنوبات صحية حادة ناجمة عن نقص الغذاء والدواء.

تحذيرات أممية: الإغماء مشهد يومي

ووسط تحذيرات أممية متصاعدة من كارثة إنسانية في قطاع غزة، تؤكد الوقائع أن سياسة التجويع باتت سلاحاً فتاكاً يستهدف المدنيين، وفي مقدمتهم الأطفال، إذ تشير بيانات حديثة إلى أن أكثر من مليون طفل يواجهون خطر الجوع، بينما يعاني أكثر من 70 ألفاً منهم من سوء تغذية حاد، وفق تقارير «أونروا» و»يونيسف».

وتقول «أونروا» إنّ مشاهد الإغماء من الجوع باتت يومية في شمال القطاع، حيث يسقط المواطنون أرضاً أثناء انتظارهم المساعدات التي يمنع وصولها بسبب القيود «الإسرائيلية» المشددة، أما منظمة الصحة العالمية، فقد حذرت من تفاقم الأزمة، مؤكدة أن أكثر من 100 ألف طفل وامرأة حامل يعانون من مستويات حرجة من سوء التغذية.

وأفادت وزارة الصحة في غزة، أنّ أكثر من 1,132 فلسطينياً، بينهم أطفال، استشهدوا جراء الجوع وسوء التغذية منذ بدء العدوان، فيما أصيب نحو 7,521 آخرين أثناء محاولاتهم البحث عن الغذاء، ومع عجز العائلات عن توفير وجبة واحدة يومياً، يعيش أطفال غزة بين الحياة والموت.

وأشارت وزارة الصحة في وقت سابق إلى توافد أعداد غير مسبوقة من المواطنين المجوّعين من مختلف الأعمار إلى أقسام الطوارئ بحالات إعياء شديد، محذّرة من أن المئات باتوا مهدّدين بالموت نتيجة الجوع وتراجع قدرة أجسادهم على الصمود.

ملف العدد

53 عاماً على استشهاد الثائر والأديب

غسان كنفاني

وفي الموت نجاة

أحمد علي هلال ـ ناقد أدبي فلسطيني ـ سورية

(لأول مرة وبكل وعي وقلب راض... حمداً لله على استشهاد بناتي، ليس لأن الفقد سهل.. ولا لأن الوجع خف، بل لأنني اليوم وأنا عاجز على أن أوفر لقمة الخبز أو شربة ماء لبنات غيري.... تخيل لو أن سوار وسيلينا عاشوا هذا الواقع، بجوعهن ونظراتهن لي، وأنا لست قادراً على فعل شيء) تلك شذرة من سرديات الغزيين في مواجهتهم حرب التجويع والإبادة المنهجية كحال ذلك الأب، الذي يحمد الله على نعمة الموت/ الشهادة لابنتيه فهي أطهر من الذل وإهانة الكرامة، فما يحدث في أوقاتنا العصيبة ليست فصول حكاية سريالية، أو مقطع من خيال سينمائي عتيد، إنه الواقع بكل ضراوته، وهي جدارية الفلسطيني المعاصر التي كتبت بدم وأشلاء هذا الشعب فضلاً عن دموعه وقهره، وليس من المفارقة بمكان أن يكون الموت نجاة من موت، موت في هيئة ذل وكسر إرادة وخذلان طليق، حسناً قد شربوا الماء مملحاً كي لا يجوعوا وكل قطرة لعلها تساوي دقيقة حياة، وأملاً ضحلاً بالبقاء، تلك تراجيديا الفلسطيني في يومياته الأخرى، وفي مقتلته وصمت من حوله, بل ما هو أكثر من الصمت: الخيانة. ولعل غير هذا الأب لم يكتب بعد رسالة إلى الله عما يجري، غزة ليست نهاية التاريخ حينما تفنى الجدران وتبقى عظامهم شاهدة وشهيدة، وحاملة كل البيوت التي التهمها قصف هنا وقصف هناك، أيها السادة لا نكتب لتمتلئ العيون بالدموع، ولا لنهز الضمائر المغيبة بوعي أو من دون وعي، بل لأن فلسطين ومنذ أزل الحبر والدم والتراب هي طريق الجلجلة، فموتنا عادة والبقاء قرار.

حوار الهدف الثقافي

الناقد الفلسطيني د. محمد عبد القادر
صاحب كتاب «غسان كنفاني: جذور العبقرية وتجلياتها الإبداعية»

حوار: أمينة عباس ـ صحفية سورية

لا تبدو الكتابة عن المناضل والمبدع والإنسان غسان كنفاني أمرًا سهلًا بشهادة الجميع، ومع هذا فإن شهوة الكتابة عنه مبدعًا ومناضلًا لم تنطفئ، حيث تناول العديد من الكتّاب مسيرته، ولكن ما يتفق عليه النقاد أن كتاب «جذور العبقرية وتجلياتها الإبداعية» للناقد الفلسطيني د. محمد عبد القادر هو أحد أهم هذه الكتب، حيث لم يكن مجرد احتفاء بشهيدنا، وإنما كان بحثًا دقيقًا في تحليل عبقريته، وبانوراما عنه كإنسانٍ ومناضلٍ ومبدع، إلى جانب ما ضمّه من آراء نقدية لعددٍ من النقاد والأدباء حول تجربته وأعماله.

في حوارنا مع كاتبه د. محمد عبد القادر سنتعرف أكثر إلى هذا الكتاب وما حمله من عنوان.

د. محمد عبد القادر

ناقد أدبي ومترجم وصحفي فلسطيني، حاصل على شهادة الدكتوراه في الإدارة التربوية من جامعة عمان العربية، عمل رئيسًا لبرنامج التربية والتعليم للأونروا في الأردن، ومحرراً للأخبار باللغة الإنجليزية في وكالة الأنباء الكويتية (كونا)، أصدر عدداً من المؤلفات النقدية الأدبية من أبرزها: غسان كنفاني جذور العبقرية وتجلياتها الإبداعية، جماليات الرمز والتخييل، فضاء التجاوز. وفي الترجمة أصدر: الولع بالزنبق، ارتقاء التقدم، الاستعداد للقرن الحادي والعشرين.

■ **نود أن تعود بنا إلى كواليس إنجاز هذا الكتاب. كيف وُلد؟ ولماذا؟**

كنتُ في مطالع السبعينيات طالبًا في جامعة الكويت - قسم اللغة الإنجليزية - حين بدأت الاطلاع على أدب وحياة غسان كنفاني، وكان ذلك بعد استشهاده الذي ألهم اتحاد الكتّاب الفلسطينيين بأن يصوغوا شعار «بالدم نكتب لفلسطين»، ومنذ أوائل السبعينيات أصبح غسان كنفاني محط تركيزي الرئيسي في الأدب، والسياسة، والرسم، والملصق، والدور، والإيثار، والكتابة، وكل القدرات التي توافرت لغسان أصبحت محط اهتمامي ومتابعتي، في الجامعة قرأناه، وناقشناه، وأقمنا له المعارض، وتواصلت النشاطات الخاصة بغسان، فصار استشهاده مناسبة وطنية وقومية يتم إحياؤها في كل عام.

قرأتُ كل ما كتبه من روايات وقصص ودراسات ونقد، وتابعت بقدر ما استطعت الكثير مما كُتب عنه، وما كُتب عنه وعن أدبه كثير، فصار غسان جزءًا من حياتي اليومية وكتبتُ عنه في الصحف الكويتية، وفي «الهدف»، وشاركت في العديد من الندوات والمحاضرات، وفي كل نشاط كنت أتعلم، وأستفيد، وأراكم معرفة وخبرة، إلى أن شعرت أن ما تراكم حبًّا وإعجابًا بهذا العبقري العظيم ينبغي أن يترجم نفسه كتابًا شاملًا.

ربما تأخر المشروع، والسبب ضيق الوقت حين اتسعت مسؤولياتي في مجال عملي وتعددت مهماتي التربوية، لكن الهدف لم يتراجع، وحين بلغتُ مرحلة التقاعد، ومع توافر الوقت، أعدتُ قراءة غسان بكل ما كتب، وكل ما امتلكت من مراجع ودراسات، واستغرقت في كتابة فصول الكتاب أقل من سنتين، وتفضّل الصديق المبدع إبراهيم نصر الله بكتابة افتتاحية معبّرة، وتبنت «الدار العربية للعلوم» طباعة الكتاب وتوزيعه عام 2015، ثم أصدرته بطبعة جديدة وزارة الثقافة الفلسطينية في عام 2020.

■ **اليوم وبعد مرور عدة سنوات على إصداره، لو قُدّر لك أن تعيد طباعته مرة أخرى بطبعة جديدة، ماذا يمكن لك أن تضيف؟**

لقد حصرتُ هذه الإضافات منذ فترة، وأحسب أنني سأضيف فصلًا عن غسان الناقد الأدبي الساخر، وعن غسان وقصص الأطفال، علاوةً على إضافة ملحق بصور شخصية تلتقط مراحل ونشاطات في زمن غسان الثري.

■ **أهديتَ الكتاب إلى «آني» زوجة غسان كنفاني. ماذا أردت أن تقول من خلال هذا الإهداء؟**

كثيرون يستحقون الإهداء: شهداء، وقادة، ومفكرون، ومناضلون، وآني بصورة أو بأخرى واحدة من هؤلاء، فهي رفيقة دربه التي ضحّت بالكثير حبًّا بغسان وقضيته وشعبه، وهي التي تحملت كثيرًا من تأخره اليومي، وانشغالاته، وتعدد اهتماماته، وقلة الوقت المكرس لها ولابنهما فايز وابنتهما ليلى.. كانت «آني» معه في حياته، وكانت معه وله ولفلسطين وأطفالها بعد استشهاده، كما شاركت ورعت مؤسسة غسان كنفاني الثقافية، وأنشأت رياض أطفال في المخيمات الفلسطينية، وسافرت وتنقلت حاملة معها القضية الفلسطينية واحتياجات أطفال المخيمات.. كان الإهداء لها، ولكنه إهداء لكل المناضلات والمناضلين الأمميين الذين وهبوا فلسطين حياتهم وآمنوا بقضيتها. هو إهداء وتكريم لها ولهم ولهن من وطن الشعب الفلسطيني الذي أحب غسان، فوهبه غسان حياته.

■ **كان سؤال الخاتمة في الكتاب: «ما سر هذا الألق الدائم لغسان كنفاني؟» واليوم نعود لنعيد السؤال نفسه عليك: أيّ سرّ يمتلكه غسان لتتجدد حيواته في ذاكرتنا؟**

**رائدٌ في كل ما كتب
عبقريٌّ بلا حدود**

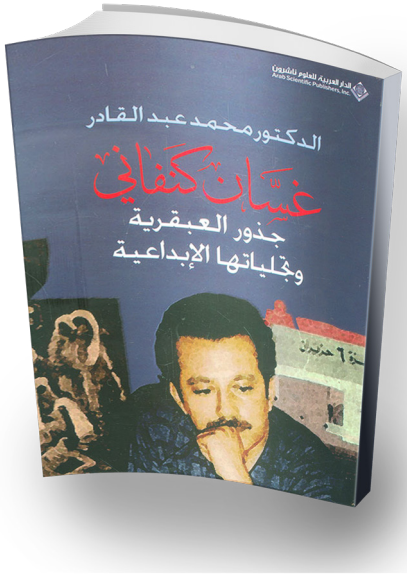

دعيني أقدّم إجابة محددة في نقاط، لغاية التركيز وتسليط الضوء على أبرز الجوانب في حياة غسان وإبداعه: كان غسان رائدًا في كل ما كتب: في الرواية، والقصة، والدراسات عن الأدب الصهيوني وأدب المقاومة، وثورة 1936 وغيرها الكثير، فهو نقل الأدب الفلسطيني إلى مرحلة متقدمة، واقتحم عالم الرواية الحديثة، والمسرح الذهني، ودرس الواقع السياسي الفلسطيني والصهيوني والعربي والأممي فكان عبقريًّا بلا حدود، ذا مواهب متعددة ومركبة، وعقلية تحليلية بنائية قلّ مثلها، وكان قدوةً ومعلّمًا وملهمًا ومبدعًا، نقل الأدب إلى مرتبة الدم، وكان قائدًا فذًّا، عميقًا، متفانيًا، متعدد المهام، ومبدعًا في إقامة علاقات سياسية وإنسانية ومهنية مع العالم المحيط.. وسأكتفي بهذه النقاط لأن القائمة لا تنتهي.

■ **ولكن ما الذي جعلك تقول في الكتاب إن غسان وُلد فيلسوفاً؟**

الفيلسوف له رؤيا في الحياة والإبداع والدور والقيم، وبالذات قيم التحرر والكرامة والأخلاق والصدق، وترجمة القيم إلى سلوك، والظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية، والذكاء والنباهة الذاتية، وربط ذلك كله بالواقع

المعيشي، جعل غسان فيلسوفًا. فهو وُلد مفكرًا، يقظًا، منتميًا، مجددًا، متجاوزًا، وقارئًا، ومحبًا، وعاشقًا للفلسفة، توقف عند الوجودية، وخطا إلى الماركسية والواقعية الاشتراكية في الأدب والفن والثقافة.

■ مارس غسان كنفاني الشعر ناقدًا. كيف تفسر ابتعاده عن كتابته؟ لماذا لم يكن شاعرًا؟

■ كان ذلك خياره، وكانت تلك موهبته التي تقوده حيث يمكنه أن يُبدع. لقد أحب غسان الشعر الوطني الفلسطيني، ورأى فيه تجاوزًا للشعر العربي التقليدي، ودرسه، وحلّله، وأوضح مكامن إبداعه وتميّزه. أحب قصائد محمود درويش، وسميح القاسم، وزياد وغيرهم، بل إنه هو الذي كان له شرف الريادة في التعرّف إليهم وتعريف العالم بهم.

■ كمترجم في رصيدك عدة ترجمات، إذا أردت اليوم أن تختار من أدب غسان كنفاني لتترجمه، فماذا تختار لتقدمه للعالم الآخر؟

أما عن رغبتي في الترجمة، لو أتيح لي مجال اختيار شيء من أعمال غسان، وأعماله مترجمة إلى عدة لغات، فسوف أحرص على ترجمة قصصه القصيرة جميعها، لأنها قصص عالمية بامتياز.

■ أكدت في الكتاب أن أبرز مظاهر الإبداع الكنفاني، وأوضح تجليات عبقريته الأدبية، تتجسد في إنتاجه القصصي القصير. فما الذي ميّز كنفاني القاص؟

بعيدًا عن الأعمال الإبداعية الأخرى التي أنتجها غسان كنفاني، إلا أنه - كما يبدو لي - عاش حياته في دنيا القصة القصيرة والسرد النثري القصصي، ما يدعو للقول دون شطط إن أبرز مظاهر الإبداع الكنفاني، وأوضح تجليات عبقريته الأدبية، تتجسد في إنتاجه القصصي القصير، ويمثل المجلد الثاني لأعماله جملة ذخيرته القصصية، وهو الذي يضم: «موت سرير رقم 12 عام 1961، أرض البرتقال الحزين 1962، عالم ليس لنا 1965، عن الرجال والبنادق 1968، وقصص أخرى جُمعت ونُشرت بعد استشهاده» وتوحي تواريخ صدور مجموعات غسان القصصية بالعبقرية الفنية المبكرة لهذا المبدع في كتابة القصة القصيرة، فقد صدرت المجموعة الأولى فيما كان غسان في الخامسة والعشرين، ثم تتابعت المجموعات عندما كان في السادسة والعشرين، والتاسعة والعشرين، والثانية والثلاثين، على أن مؤشرات العبقرية القصصية تتمثل في أن المجموعة الأولى كانت مذهلة من حيث البناء واللغة والموضوع، وتجاوزت الإرهاصات الأولى التي عادة ما تدمغ نتاج كاتب شاب. وكذلك كانت المجموعات اللاحقة، مع الإشارة إلى أن القصص ذاتها كُتبت قبل تاريخ نشر المجموعة بسنوات، فهناك قصص نُشرت في عام 1956، وعام 1957، وعام 1958، أي قبل سنة النشر بعدة سنوات، وهناك شهادات شخصية من أخيه عدنان كنفاني، أن غسان كتب التمثيلية، والقصة، والمسرحية، عندما كان ما يزال طالبًا في المرحلة الإعدادية في دمشق، وبعضها قُدّم في الإذاعة السورية، وعليه يمكن القول إن إرهاصات العبقرية القصصية عند غسان قد بدأت في البروز عندما كان في الخامسة عشرة من عمره، وكانت تنمّ عن موهبته الواعدة، ثم ما لبثت أن تألّقت بعد أن بلغ سن العشرين، ولدى تتبّعي لسنوات الكتابة القصصية عند غسان، تبين لي أنه لم يكتب القصة

> **نقل الأدب إلى مرتبة الدم**

في العديد من السنوات، وتفسير هذا التراجع الكمي للمنجز القصصي لغسان يُعزى، فيما أعتقد، إلى تعدد إنجازاته واهتماماته ومسؤولياته، وعنايته الخاصة بالرواية وأهميتها في صوغ الهوية الوطنية، واتساعها للتجربة الإنسانية، إلى جانب إقبال الصحف والمجلات اللبنانية على كتاباته واستكتابها له، وكذلك مسؤولياته الحزبية والتنظيمية في إطار حركة القوميين العرب، ومن ثم في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وإصدار مجلة «الهدف» وتسلّمه رئاسة التحرير فيها، واضطراره إلى تغطية النقص في أبوابها من خلال كتاباته ومتابعاته، بالإضافة إلى انشغاله بالكتابة النقدية والسياسية والبحثية الجادة والريادية في ذات الوقت.

■ كان غسان كنفاني رائدًا مبدعًا في مجال الدراسات، كما جاء في الكتاب، وقد وصفتَ أربع دراسات تحليلية له بالريادية. حبذا لو تحدثنا أكثر عن هذه الدراسات وريادة كنفاني فيها؟

اقتحم غسان كنفاني مجال الدراسات الأدبية، والنقدية، والتاريخية - التحليلية، وقد توقفتُ عند دراساته الأربع: أدب المقاومة في فلسطين المحتلة، الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال، في الأدب الصهيوني، ثورة 1936 في فلسطين: خلفيات وتفاصيل وتحليلاً، لأنها كانت دراسات ريادية نوعية، جديدة، ولم تكن أعمالًا تقليدية هامشية في الموضوعات التي طرقتها، إن هذه الريادة، والجدة، والإضافة النوعية، هي من سمات الذهن المنفتح، والمتوقد، والذي ينطوي على قدرات تحليلية عالية، تمنح المنجز المعرفي الذي يقدّمه صاحبُه مكانةً أساسية في ثقافة الشعب والأمة، والثقافة الإنسانية على اتساعها، وهذه الدراسات كان غسان كنفاني أول من قدمها لجمهور القراء، وأول من عرّف العالم بوجود أدب

مقاوم في فلسطين المحتلة، والريادة بهذا البُعد تعني أنها دراسات جديدة في موضوعها، وأشخاصها، ومعالجتها، ومعانيها، ودلالاتها، وبالتالي فهي إضافة نوعية إلى السفر الثقافي الذي يحتوي المنجز الأدبي الفلسطيني على مدى عقود ماضية، وما من شك في أن الدراسات اللاحقة التي كتبها باحثون فلسطينيون وعرب في الموضوعات ذاتها المذكورة أعلاه، إنما اعتمدت على ما كتب غسان، وكانت نقطة البداية هي ما كتب غسان وهذا بحد ذاته اعتراف بريادته، ودوره الذي لا نبالغ إن وصفناه بالدور التأسيسي، وهو وصف لا يتأتّى إلا لمن تمتع بقوة الذهن، ورهافة الحس، ونفاذ الرؤيا، وعمق الانتماء.

■ عُدّت دراسته عن الأدب الصهيوني، حسب النقاد، أول دراسة بقلم عربي وباللغة العربية، في الأدب الصهيوني، بأساليبه وفنونه ومراميه السياسية العدوانية. فماذا تحدثنا عنه؟

صدرت الدراسة في كتاب طُبع لأول مرة في عام 1967، وكان ذلك في أوج هزيمة حزيران من ذلك العام. وعند صدوره وحتى اليوم، مثّل الكتاب إنجازاً ريادياً لم يسبق غسانَ إليه أحد في موضوع الدراسة، دون أن نتجاهل الدراسات السياسية العديدة في الحركة الصهيونية ونشأتها وتطورها واستراتيجياتها وأبعادها التي كُتبت باللغة العربية في بيروت والقاهرة وبغداد. ومفاد ذلك أن «غسان»، في الوقت الذي كان يفتح فيه ثغرة في جدار الحصار الصهيوني للمثقفين الفلسطينيين الشباب في الأرض المحتلة، كان يفكر في توسيع هذه الثغرة عن طريق دراسة الأدب الصهيوني، وكشف أضاليله ونفاقه وخداعه. وكأنه، في سعيه لنشر الأدب الفلسطيني المقاوم ودراسته وتحليله، كان يُسهم في تمتين لحمة الهوية الفلسطينية في الداخل وفي الشتات، وفي تعميق النسيج الثقافي للصامدين في الوطن واللاجئين وفي المنافي. وفي قراءته للأدب الصهيوني، كان يُعري المزاعم الزائفة التي تتحدث عن «ثقافة يهودية»، و«شعب يهودي»، و«تاريخ يهودي»، و«حق يهودي»، والتي صارت جزءاً بنيوياً في الأدب الصهيوني ليثبت أنه عقل فلسطيني يحفر في العمق، ويُفند الزيف والتضليل.

■ كيف أنجز غسان هذه الدراسة برأيك لتكون من الدراسات الرائدة؟

لأنه كاتب يقظ، وباحث متبصر، وضع لنفسه محددات أساسية في تناوله للأدب الصهيوني، أولها: عدم الاعتماد على مصدر واحد لتجنب التعميم، والعمل على توفير ما أمكن من المصادر ذات الصلة بالموضوع. وثانيها: المحافظة على موضوعية القراءة والاستخلاصات، بالرغم من أنه طرف مباشر في القضية. وهذا يؤكد الوعي بالشروط المنهجية للكتابة ومحددات البحث العلمي، حين التزم غسان بأخلاقيات البحث، وشروط الصدق في الوصول إلى نتائج معينة استناداً إلى مقدمات سليمة. وهكذا كتب غسان هذه الدراسة مسلحاً بقيم الأمانة، والدقة، والصدق، وقبل كل شيء بالوعي العميق، سياسياً وأدبياً ونقدياً ولغوياً. وأثبت أنه قادر على التعامل مع النصوص الإنجليزية بجدارة واقتدار، وكل هذا نابع في الأساس من ثقته المطلقة بعدالة قضيته. وقد ابتدأ كتابه بمقدمة لا تزيد عن ثماني صفحات أو أقل قليلاً، ولكن هذه المقدمة تمثل عصارة الدراسة كلها، وتتضمن الاستنتاجات الرئيسية للبحث، وهي استنتاجات علمية إستراتيجية جرد فيها غسان كل هذا الأدب الصهيوني من أسسه «المنهجية»، وقوّض أركانه الفكرية والتاريخية، وكشف مرتكزاته العنصرية ومزاعمه المضللة وخواءه الأخلاقي، بل وهشاشته الفنية أيضاً. وقد أوضحت هذه الدراسة مدى إحساسه بالمسؤولية الثقافية، وأهمية الصمود على مستوى الجبهة الثقافية، وضرورة الوعي بالثقافة المعادية، والتصدي لها بمنطق واضح، وبمعالجة نقدية رصينة، وموضوعية عالية حتى لا تسقط تحت سياط المبالغة والإسفاف والإنكار. وأثبت غسان أنه يتمتع بقدرات ذهنية تحليلية عميقة، قادرة على تعرية الصريح وكشف المضمر في الرواية الصهيونية.

> **أهم داعية فلسطيني للشهادة**

■ حرصت في كتابك على تسليط الضوء على ما كتبه غسان للمسرح، فأي ملامح كانت لهذه الكتابات؟

من اليسير على من يتأمل أعمال غسان المسرحية أن يخلص إلى الطبيعة الذهنية التي ميزت أعماله المسرحية، والتي تُصنّف عادة ضمن النوع المعروف بـ«المسرح الذهني»، والذي كان أبرز ممثليه العرب توفيق الحكيم. وأبرز سمات هذا المسرح أنه مسرح أفكار، يدور أساساً في ذهن الكاتب، وبالتالي تُجسده شخصيات مسرحية، علماً أنه من الصعب أن يُترجم عملياً على خشبة المسرح. والمسرحيات التي كتبها غسان كنفاني تتسم بهذه الصفات بصورة عامة، وتحتاج إلى تركيز ذهني شديد عند قراءتها، فهي مكثفة في مفرداتها، عميقة في دلالاتها، فلسفية في مرجعياتها الفكرية. ولعل ريادة غسان في الكتابة المسرحية تتمثل في أنه أول الكُتّاب الفلسطينيين الذين ارتادوا مجال المسرح الذهني في الساحة الثقافية الفلسطينية، الذي يتناول الحالة الفلسطينية بصورة غير مباشرة. فالمعاني الإنسانية الكبرى التي تتضمنها مسرحيات غسان تشير بالرمز إلى الوضعية الفلسطينية، وإن لم تُقدّم مؤشرات خاصة دالة على ذلك. وأعتقد أن كتابة غسان المسرحية جاءت

لعدة أسباب، منها أنه كان يعيش دائماً حالة التحدي الأدبي والفكري، ولا يتردد في خوض غمار تجربة جديدة، أو نوع أدبي لم يسبق له أن ارتاده. كما أنه رأى في الكتابة المسرحية الذهنية مجالاً رحباً يُعبّر فيه عن أفكاره الفلسفية، وعن تصوره للحياة، والمعاناة الإنسانية الكونية، بعيداً عن المضامين السياسية والوطنية التي ميزت أعماله الروائية وكثيراً من أعماله القصصية. ولذا لم يعبأ بتجسيد مسرحياته على خشبة المسرح، بقدر ما كان يريد لقرائه أن يُمسرحوها في أذهانهم. مع الإشارة إلى أن غسان كتب ثلاث مسرحيات، هي على التوالي: «الباب» (1964)، «جسر إلى الأبد» (1965)، و«القبعة والنبي»، كُتبت عام 1967 ونُشرت بعد استشهاده.

■ **يقول إبراهيم نصر الله، الذي قدّم للكتاب: «الكتاب يطمح إلى فتح أبواب جديدة لتأمّل الظاهرة الكنفانية، التي مرّت في حياتنا كشهاب، وعاشت في قلوبنا كشمس». فهل يمكن أن يتكرر النموذج الكنفاني برأيك؟**

لا، بالطبع لا. البشر لا يُستنسخون، والمبدعون لا يتكررون، لأن الأصل في الإبداع هو التفرد والتميز واختلاف أساليب التعبير والتواصل، دون أن ننسى أن الكُتّاب الفلسطينيين – معظمهم – مرتبطون بالقضية ويجترحون موضوعاتهم وأساليبهم في الرواية والقصة والشعر والمسرح والفنون. ولست أعرف أدباً وطنياً أو قومياً أنتج من المبدعين أكثر مما أنتجه الفلسطينيون في الوطن أو المنفى أو المهاجر، حيث يكتب الأدباء هناك بلغة الوطن المضيف. إن مصادر الأدب والفن والثقافة الفلسطينية – من دون أي بُعد عنصري أو قُطري – مصادر متعددة ووفيرة وثرية، ومنتشرة في كل أقطار العالم. لكن، دون شك، كان غسان واحداً من المعلمين النادرين لهؤلاء المبدعين، وهو الذي لم يشأ أن يكون معلماً لأحد، لكنه كان مُلهِماً لهم جميعاً.

■ **تقول: «توج غسان كنفاني وعيه ببلوغه الرؤيا الإنسانية في النضال الوطني وفي المنجز الإبداعي». كيف ترجم ذلك؟**

ترجم ذلك من خلال وعيه المتطور للقضية الفلسطينية باعتبارها قضية وطنية في الأساس، لكنها اتسعت في رؤياه لتغدو قضية إنسانية. فالظلم الذي وقع على الفلسطيني هو تكثيف للظلم الواقع على الإنسانية برمتها، والمعاناة الفلسطينية هي صورة مصغّرة للمعاناة الإنسانية بعامة، وهو الذي أوضح ذلك بقوله: «أصبحت أرى في فلسطين رمزاً إنسانياً متكاملاً. فأنا عندما أكتب عن عائلة فلسطينية، فإنما أكتب في الواقع عن تجربة إنسانية. ولا توجد حادثة في العالم غير ممثلة في المأساة الفلسطينية. وعندما أُصوّر بؤس الفلسطينيين، فأنا في الحقيقة أستعرض الفلسطيني كرمز للبؤس في العالم أجمع». وينطوي كلام غسان على معنى واضح، مفاده أن الفلسطيني إذ يكافح من أجل تحرره، إنما يُثري التجربة الإنسانية التحررية. وهو، في كل ما كتب – تقريباً – كان يرمي إلى تحرير الذات الإنسانية من قيود الوهم والخوف والمصالح الذاتية الضيقة، مؤكداً أن البدائل تتمثل في الفعل والمبادرة، وإيثار الموت الإيجابي (الاستشهاد) على الموت السلبي. كما آمن وكتب ودعا إلى تحرير العقل الإنساني من نير الأساطير والتقاليد المتخلفة، والجمود الفكري والعقائدي، والدجل والشعوذة، مُحرّضاً على الانفتاح والعلم والإبداع وطريق الثورة والكفاح من أجل الحقوق والحريات.

> **أول من عرّف العالم بوجود أدب مقاوم في فلسطين**

■ **لك مجموعة من الكتب الصادرة في مجال النقد الأدبي، لذلك أسألك: هل أنصف النقد تجربة غسان كنفاني؟**

بصدق وبصراحة بالغة، أقول: نعم، لقد حظي غسان، كما لم يحظَ غيره، بمئات الدراسات وعشرات الكتب المتخصصة، وربما آلاف المقالات الصحفية. أما ما لا يعرفه الكثيرون، فإن الدراسات الأكاديمية الجامعية، باللغة العربية ولغات أخرى، في الجامعات العربية والعريقة، أكثر من أن تُحصى أو تُحصر، وهي ما تزال كنزاً ثميناً لم يُكتشف، وبخاصة في جامعات شمال إفريقيا العربية.

■ **أنهيتَ الكتاب بالقول: غسان كنفاني عبقرية الحياة.. وعبقرية الإبداع.. وعبقرية الموت.**

غسان كره الموت وأحب الحياة، لكنه طالما كره الموت «السلبي» بمرض أو حادث أو شيخوخة. وفي الحالة الفلسطينية، آمن بأن على الفلسطيني ألا يموت موتاً سلبياً، وبديل ذلك هو الاستشهاد، وغسان اختار موته ولم يختره الموت. غسان أهم داعية فلسطيني للشهادة، واختار الموت لنفسه استشهاداً، وهنا تكمن الفاعلية الكنفانية، لأن اختيار شكل الموت قرار ذاتي يعبر عن تحقق ذروة الوجود. والاستشهاد كان التتويج الأسمى لجميع عناصر التكوين والفاعلية التي شكلت غسان كنفاني، الذي، باستشهاده الريادي في أوساط المثقفين الفلسطينيين، ارتقى بمكانة المثقف وبدور الثقافة، مثلما ارتقى بالحبر إلى منزلة الدم.

■ **من وحي سيرة غسان كنفاني، ماذا تقول للأجيال الجديدة؟**

اقرؤوا قصص غسان ورواياته وسيرته، واحفظوها كما تحافظون على حدقات عيونكم، واقتدوا بسيرته حيّاً وشهيداً، كي تكونوا جديرين بفلسطين والحياة.

الأثر الأدبي والسياسي لغسان كنفاني
على جيل الستينيات والسبعينيات في المغرب

الإعلامي أحمد طنيش - المغرب

يُعتبر جيل الستينيات والسبعينيات بالمغرب، الجيل القنطرة، الذي عبر من مرحلة ما قبل جدار برلين وعاش سقوطه وظهور معالم العالم الجديد ما بعد الجدار، وهو الجيل الذي قاد المجايلات التي تلته وأثر فيها كما تأثر هو بأدب المرحلة، درس هذا الجيل رواية «رجال في الشمس» «وعائد إلى حيفا» وغيرها، لغسان كنفاني، في مراحل التعليم الثانوي والجامعي، وكان تأثير أدبه واضحاً على هذا الجيل، خاصة أولئك الذين مارسوا فيما بعد السياسة.

وكان الأثر عميقًا ومتعدد الأبعاد في تقاطعات فكرية ونضالية وأدبية، لأن أدب غسان لم يكن مجرد إنتاج إبداعي، بل كان يحمل رؤية قومية ثورية، وجد فيه جيل الستينيات والسبعينات في المغرب، وخاصة المناضلين اليساريين والقوميين، مرآةً تعكس همومهم المشتركة في الدفاع عن القضية الفلسطينية ومواجهة الاستعمار والصهيونية والإمبريالية، وفي دعم حركات التحرر العربي، وهي قضايا كانت حاضرة بقوة في وجدان النخب السياسية المغربية آنذاك باعتباره التزاماً ثورياً، لكون العديد من السياسيين المغاربة الذين ظهروا في الستينيات والسبعينات تأثروا بنموذج «المثقف العضوي» الذي جسّده كنفاني، كمثقف مناضل لا منعزل ومنخرط لا محايد، ناضل الرجل من داخل القضية وساهم في حراكها بالقلم وغيره، ورسّخ مفهوماً لأدب المقاومة كأداة تحريض وتعبئة، وهو ما ألهم نشطاء سياسيين مغاربة رأوا في الأدب عموماً شكلاً من أشكال الفعل السياسي فأدى تأثير أدب غسان ومجايلته إلى شيوع نوع من الأدب المغربي الذي يمزج بين السرد والالتزام السياسي، كما في بعض كتابات أدباء كبار مثل محمد برادة، وعبد الكريم غلاب، ومحمد الأشعري، واللائحة طويلة. كما ترك حراك غسان أثرًا في الصحافة الحزبية المغربية، التي كانت تنشر نصوصًا متأثرة بأدبه، سواء في نبرتها أو قضاياها أو رموزها أو ترافعها، فكان معظم ممارسي الإعلام ثُلّة تشبه ثُلّة التحرير لغسان كنفاني وتجاربه الإعلامية.

كثيرة هي الأحزاب اليسارية في المغرب كان مناضلوها منفيين، وكلهم ذاقوا تجربة زمن الرصاص والاعتقال، واغتيال رموزهم «عمر بن جلون نموذجًا» وقد اعتبرت كل هذه الأحزاب اليسارية بالتحديد القضية الفلسطينية مركزية، وكأن كنفاني كان يُكتب باسمهم وبذلك كانت رواياته مثل «رجال في الشمس» و*»عائد إلى حيفا»* وغيرها محفزًا لهم للمقاومة والنضال، وحينما أُغتيل غسان كنفاني سنة 1972 من الموساد، أتت رمزيته كشاهد شهيد، فتحوّل الرجل إلى رمز نضالي خالد لدى الأوساط السياسية المغربية، لا سيما اليسارية منها، وأصبح رمزًا للشهادة في سبيل القضية، مما زاد من شعبيته وتأثيره في الوعي السياسي الجمعي، ولم يبقَ مجرد كاتب فلسطيني فقط بالنسبة لسياسيي المغرب الستيني والسبعيني، بل كان قدوة فكرية ونضالية، وعنوانًا وشاهد مرحلة أسهم بأدبه في تشكيل رؤية سياسية، وصياغة خطاب ثوري، لعدة قادة سياسيين بالمغرب، وهو إلى جانب ذلك ودون أدنى شك أحد الجسور الثقافية التي وحّدت وجدان الشعوب العربية من الخليج إلى المحيط.

حاتم علي وغسان كنفاني

بسام سفر ـ كاتب من سورية

يُعتبر جيل الستينيات والسبعينيات بالمغرب، الجيل القنطرة، الذي عبر من مرحلة ما قبل جدار برلين وعاش سقوطه وظهور معالم العالم الجديد ما بعد الجدار، وهو الجيل الذي قاد المجايلات التي تلته وأثر فيها كما تأثر هو بأدب المرحلة، درس هذا الجيل رواية «رجال في الشمس» «وعائد إلى حيفا» وغيرها، لغسان كنفاني، في مراحل التعليم الثانوي والجامعي، وكان تأثير أدبه واضحاً على هذا الجيل، خاصة أولئك الذين مارسوا فيما بعد السياسة.

يصعب رصد ومتابعة علاقة كاتب بكاتب، ومخرج وكاتب بكاتب آخر، كما في حياة المخرج والكاتب السوري حاتم علي من خلال ما كتبه في رسائله إلى حبيبته وزوجته دلع الرحبي المنشورة في كتاب (من حاتم علي إلى دلع الرحبي)، الصادر عن دار كنعان في العام الجاري بدمشق، حيث يعج برسائل الحب الكثيرة والكبيرة إلى دلع الرحبي من أماكن متعددة في العالم من (دمشق، حلب، طرطوس، دريكيش، من أفنيون في فرنسا، وباريس).

لا يتوقف حاتم علي عن كتابة رسائله من أي بقعة يوجد فيها مؤكداً حبه لدلع الرحبي في أسوأ ظروف مر بها، وفي أحسنها، وكل رسائله المنشورة هي قبل الزواج وتكوين العائلة، لكن السيدة دلع لم تنشر أية رسالة إلا بعد زواجهما وإنجاب الأولاد، وهذا يستدعي التساؤل، هل توقف حاتم عن الكتابة لها ما بعد الزواج، وانتقاله في حياته المهنية من صيغة المخرج المسرحي والكاتب القصصي والدرامي خصيصاً أن تعاونهما الدرامي ظهر في العديد من الأعمال الدرامية والمسرحية التي أخرجها حاتم علي ومنها: «مسرحية مات ثلاث مرات في العام1996»، و»مسرحية أهل الهوى في العام2007، مشروع تخرج طلاب السنة الرابعة في المعهد العالي للفنون المسرحية». وفي المسلسلات التلفزيونية حيث كتبت دلع عدداً من لوحات مرايا في العام1997، و1998، والفصول الأربعة في العام1999، والجزء الثاني في العام2001، وعصي الدمع في العام2005.

في هذه المتابعة والرصد نسلط الضوء على علاقة حاتم علي بالمبدع غسان كنفاني، وهمه الفلسطيني من خلال رسائله لدلع الرحبي.

غسان كنفاني وحاتم علي:

تبدأ الحكاية من عملية إصدار كتاب باسمه، فسيكون هذا لك (دلع الرحبي) دليلاً على حبي وهدية متواضعة لامرأة حياتي، حتى الآن لم أجد الإهداء ولا الكلمات المناسبة التي أزف فيها أوراقي إليك، لغاليتي الطاهرة، ويسجل أنه أعجب من بين كل الإهداءات التي تتقدم الكتب إلى قرائها باثنين فقط أجدهما يلحان علي ويفرضان نفسيهما، الأول لغابرييل غارسيا ماركيز يهدي كتابه لزوجته فيقول: إليها طبعاً. والإهداء الآخر لغسان كنفاني، يقول: إلى العزيزة فائزة (ويقصد شقيقته) ثم يتابع، إذا كان في القصص ما يستحق أن يهدى إلى العزيزة فائزة.

وهذا الإهداء (كما أرجو أن تلاحظي) يهزني، قد يبدو لك بسيطاً وربما عادياً، لكنه في الحقيقة يحزنني، نعم، يبعث في نفسي شعوراً بالحزن لا أدري مصدره، هل هو موسيقا الجملة، أم أنه كلمة العزيزة؟.

وهي كلمة تبدو لي هنا في هذا المقام، وعلى لسان عبقري القصة وشهيدها،

حقيقة، كما لا يمكن لأي كلام أن يكون حقيقياً مثلها، أم هو أسم فائزة؟ ولا أعتقد أن للاسم علاقة بشقيقتي، بل (ربما) لأن الاسم فلسطيني، وكذلك التركيب كله والذي يمس شغاف قلبي ربما بتقارب المنشأ أو الجو)، لا أدري، ليس ذلك هو السبب وحده، ولن ينتقص من إعجابي أنني لا أدري سببه، إنه شيء غامض قد أكتشفه يوماً.. والأهم ما يلي ذلك:

فأنا وإن كنت أرغب في أن أقول: «إليك- طبعاً» فإنني أود أن أستدرك لأقول: إذا كان في القصص ما يستحق أن يهدى إلى» الغالية» دلع.

والمحطة الثانية التي يقف فيها حاتم علي في رسائله لدلع حين يقول لها عن غسان، وهي في الولايات المتحدة الأمريكية إنه (لا شيء جديد.. سوى أنني أنهيت النص المسرحي الذي كان من المفروض أن أكتبه عن رجال تحت الشمس لغسان كنفاني، وأنا راض عن النتيجة كثيراً. لقد أنهيته صباح البارحة وكنت قد بدأت به رحيلك، ولا شيء آخر عدا ذلك.

وفي رسالة أخرى يحدثها عن القصص التي سوف يكتبها، وقصة رابعة عن رقيب على الحدود في ليلة عاصفة تتجسد أمامه شخصيات من قصة غسان كنفاني، ولكنها مختلفة من حيث أهدافها (نتيجة لاختلاف الظرف الآن) ومعاناته الفظيعة أمام هذه الشخصيات، حيث هو مسؤول أمام القانون من جهة وأمام وجهة نظره الشخصية من جهة أخرى، وضائع بين الوهم الذي تجسد له بعد قراءة الرواية وبين الحقيقة التي يلمسها الآن وجهاً لوجه والمتمثلة في أن هذه الشخصيات حقيقية فعلاً وقد قامت من نومها أو نومها الأبدي، والشكل الفني يترك المجال واسعاً أمام هذا الالتباس الفلسفي.

وهذه محطة جديدة في رسائله مع غسان كنفاني حين تخبره دلع أنها قرأت أرض البرتقال الحزين، فيدخل في نقاش معها حول قصص غسان ورواية من قتل ليلى الحايك، فيقول: «هل قرأت أرض البرتقال الحزين إذن؟ هل أن رسالتك التي تحمل ذلك الخبر قد جاءت صباح الليلة التي انتهيت فيها من قراءة المجموعة نفسها؟!.

في تلك الليلة قرأت بالإضافة إليها رواية من قتل ليلى الحايك ومجموعة أخرى بعنوان القميص المسروق. طبعاً أضعف واحدة هي أرض البرتقال الحزين، أقصد: هل إذا قلت لك بأن هذا الغسان كنفاني شيء عظيم ستوافقينني؟!

أنا هذه الأيام مأخوذ به، إنه عبقري، قرأت له قصصاً متقدمة بفنيتها، قصصاً لا يضاهيها القص الحديث بكل تجديداته، يقيناً كان غسان كنفاني أول مجدد في هذا الفن وأول هادم لقواعده وأحذق بان أيضاً، لا أريد أن أستطرد فهذه ليست مقالة، ولكنني أحب فقط أن أشرح شيئاً أحس به ولو كنت معي لقلته.

لقد قرأت من قتل ليلى الحايك أو الشيء الآخر والتي يعتبرها النقاد شذوذاً عن أدبه، وشطحة لا تؤخذ على محمل الجد كثيراً وارتباكاً في نظرته للحياة، هذه الرواية - باعتباري- من أفضل ما قرأت رواية عن محام يجد نفسه متهماً بقضية قتل موكلته والتي هي عشيقته وصديقة زوجته، وحين يقبض عليه يصمت صمتاً أبدياً، فهو يكتشف أن هناك شيئاً آخر خارجاً عن إرادتنا شيئاً يسمى الصدفة، يسمى عدم المعرفة المجهول أو الإمكان والضرورة، فيزداد إحساسه بالعبث حتى يمضي إلى حبل المشنقة دون أن يقول في حق نفسه (وهو المحامي الناجح المشهور) كلمة دفاع واحدة!

رواية لا حد لقيمتها ولا تضاهيها رواية في متانة بنائها وتشويقها، ويقيناً لو وجد ناقد منصف لكانت هذه الرواية واحدة من تلك الروايات العظيمة في تاريخ الأدب تلك التي تطرح أسئلة إنسانية كبرى، كألبير كامي وكافكا ودستويفسكي ولورنس.

ويخبرها في رسالة أخرى أنه يقرأ يوميات غسان كنفاني، وأنه سوف يأخذ نصوص المسرحيات الثلاث: الحصار/ الخروج من سم الإبرة (وهذا العنوان مأخوذ عن غسان كنفاني) ومجنون يحكي وعاقل يسمع/ حيث سيكون العنوان العام هو: الحصار- ثلاث مسرحيات فلسطينية- كي أخذها إلى وزارة الأعلام، واتحاد الكتاب العرب.

الهم الفلسطيني في الرسائل:

المحطة الأولى في الهم الفلسطيني هي «لقد أنهيت مسرحية زيناتي (قدسية) نهائياً وسوف نبدأ العمل بها قريباً، ولدي مشروع وضعها مع مسرحية الحصار القديمة وبعثها إلى ليبيا، فالمسرحيتان تتحدثان عن الموضوع نفسه وبالأسلوب نفسه (الحصار والانتقام)، وأعتقد أن إصدارهما في هذا الوقت (في العام1988) أمر هام ومساهمة جيدة تبعث على الاعتزاز، وسيكون الظرف ملائماً لقبول الليبيين لها».

وفي رسالة جديدة يقول لها: «تعبت يدي من الكتابة خاصة وأنني قبل أن أخط لك الرسالة كنت أبيض المسرحية (التي كتبناها حديثاً أنا وزيناتي ولم نسمِها بعد)، لكي يتم تصويرها غداً، وقد تأخرت في الموعد يوماً ولم أنهها بعد، وأظن أنني لن استطيع حتى الغد.

في الرسائل القادمة سأبعث لك مقالين عن مسرحية (سكان الكهف) الأول في مجلة الهدف، والثاني في مجلة الحرية في عدد لم يدخل البلد».

ويفرد سطوراً من رسالة عن قراءة رواية الفلسطيني للكاتب حسن سامي يوسف: «لقد قرأت رواية غنية جداً وشيقة وتستدعي النقاش وعلى الأخص طبعاً فكرياً، مثل (حنا ك) أي أنها تثير الالتباس على أكثر من صعيد، فما بالك الصعيد الفلسطيني نفسه الملتبس منذ البداية؟.

أما الشكل الفني فيها فهو عادي ومستفيد (مثله مثل الكثيرين) من جبرا وعبد الرحمن منيف، فهو يقسمها لثلاثة فصول، الأول من وجهة نظره يتحدث عن ذلك البطل الفلسطيني، الفصل الثاني رسالة من زوجة الفلسطيني للمؤلف، الثالث من وجهة نظر الشخصية الرئيسية نفسها.

وعندي فيلم (عرس الجليل) وهو أيضاً فيلم روائي فلسطيني من إنتاج وتمثيل الفلسطينيين في الداخل (في فلسطين) ومن إخراج ميشيل خليفي، لم أشاهده حتى الآن وانتظر وقت فراغ، وقد حكوا لي عنه كثيراً فهو أيضاً يثير الالتباس والنقاش، أي أنه عموماً لا بد من مشاهدته

خاصة وأنه أول فيلم روائي يستطيع الفلسطينيون صنعه في الأرض المحتلة.

ويكتب إليها في رسالة/1988/7/11، أنه سيبدأ في إعداد تمثيليات إذاعية من قصص فلسطينية قصص مباشرة عن البندقية والنضال، لكي تذاع إلى الأرض المحتلة من إذاعة القدس، وهذا مشروع جديد سيقدمه زيناتي (كصوت رئيسي- راوي)، ويمثله ممثلون(حسب حاجة كل حلقة).

ويؤكد أنه سيبدأ بجمع المراجع والمجموعات القصصية الفلسطينية- البرنامج دعائي مباشر طبعاً، بالأصح- حماسي- ففي هكذا ظرف حيث القتال مستمر هناك والبيانات تتالى لا مجال لعمل أدبي.

ويشرح لها ما جرى «البارحة ذهبنا إلى الإذاعة بناءً على موعد سبق أنا وزيناتي، قدمنا تصوراتنا وقدموا تصوراتهم، وتم الاتفاق على إعداد وعمل وتنفيذ مسلسلة إذاعية كل حلقة نصف ساعة يعاد إذاعتها 3مرات بالأسبوع وباللهجة المحكية الفلسطينية، وتتحدث عن المباشر والآني مستخدمه الوثيقة والتمثيل والغناء التراثي، إنه عمل وطني سياسي مباشر فيه دعاية وحماسة كبيرة، وهذا من خصائص المرحلة. وسافر زيناتي إلى الأردن (للمشاركة في مهرجان جرش)، وخلال ذلك سأمر أنا غداً (الخميس) على الإذاعة لآخذ وثائق الانتفاضة (السرية والعلنية- الفلسطينية المصدر والأجنبية)، لكي أستخلص منها بعض الحوادث ذات السمة الدرامية لكي تتحول إلى تمثيليات، والمشروع قد بدأ.

خاتمة:

تساءل كثيرون كيف حقق مسلسل» التغريبة الفلسطينية» للكاتب الفلسطيني وليد سيف وإخراج حاتم علي هذا الحضور الجماهيري المنقطع النظير؟!.

يأتي جزء من الجواب في رسائل حاتم إلى دلع الرحبي، فالمخرج والكاتب حاتم علي ابن القضية الفلسطينية مع انتمائه (السوري-الجولاني)، فحياته الأولى كانت في مخيم اليرموك والحجر الأسود، وتشكل وعيه الحياتي والسياسي على القضية الفلسطينية والمخيم، والجولان ومن خلال ما ذكره في الرسائل في وصف المبدع غسان كنفاني «عبقري القصة»، ندرك أنه فصفص قصص غسان كنفاني وكتاباته، وإعجابه الشديد في رواية من قتل ليلى الحايك، أو الشيء الآخر» وبنائها الفني، وآلية تفكير غسان كنفاني في عدم الدفاع عن ذات الشخصية الرئيسية رغم نجاحها في الدفاع عن موكليه، وعدم التقدم للدفاع عن ذاته.

ولا يتوقف اهتمام الراحل حاتم علي بالقضية الفلسطينية فقط بالمبدع غسان كنفاني، إنما اهتمامه برواية الفلسطيني للكاتب الروائي والدرامي حسن سامي يوسف. وكتابة سلسلة إذاعية بمناسبة الانتفاضة الفلسطينية في العام 1987و1988، لإذاعة القدس في دمشق، ونصا مسرحيته اللذين جاءا بعنوان نصوص الحصار.

أخيراً أن إبداعه البصري في الإخراج الدرامي هذا لا جدال فيه، ويأتي كتاب أدب الرسائل وما نشره في القصة القصيرة، وكتابة مسلسل القلاع من إخراج مأمون البني، ومسلسله الإذاعي ليؤكد على جانب آخر من حياة حاتم علي الإبداعي، وتوظيف كل معارفه في خدمة الإبداع الدرامي والكتابي، وتركيز جزء مهم منه على القضية الفلسطينية فنياً.

غسان كنفاني: سردية المقاومة والهوية

د. ثائر يوسف عودة - ناقد وأستاذ جامعي فلسطيني - سورية

لم يعش غسان كنفاني سوى ستٍ وثلاثين سنة ومع هذا فإنه كاتب يعدل مؤسسة ثقافية بأكملها، وإذا نظرنا إلى كتاباته الأدبية وغير الأدبية نحسب أننا أمام كتيبة من المؤلفين وليس كاتباً فرداً، ترك لنا صورة كاتب واظب على الكتابة طوال حياته التي كان يستشعر ربما بأنها ستكون قصيرة، لا بد من أنّ هذا الرجل تخلّى عن النوم والعطلات والسفر واللهو ووهب حياته كلها للكتابة وحدها، ولا يُصدَّق أنّ هذا الكاتب لديه وقت آخر ليكتب رواية وقصة ومسرحية ومقالة ودراسة وقصة أطفال ونقداً أدبياً ويرسم لوحة ويقرأ بالعربية والإنجليزية، يقرأ حوالي ستمئة صفحة يومياً!!. كيف يمكن أن نصدق عدد كتبه (ثمانية عشر كتاباً على مدار عقد من الزمن لا غير) وعدد من الأسماء المستعارة التي كتب بها (أبو العز- فارس فارس)!! لا بد أنه وجد وصفة سرية لمضاعفة سنوات عمره دون أن يغيّر عددها ليتمكن من إنجاز ما أنجز.

نكتشف لدى قراءة غسان اليوم، أولاً ودائماً، أنه أدرك مبكراً بوعي متقدّم أنّ الثقافة أصل من عدّة أصول للسياسة، وأنه ما من مشروع سياسي دون مشروع ثقافي، وهو الذي أثبت بالبحث والدراسة أنّ الصهيونية الأدبية كانت سابقة ومؤسسة للصهيونية السياسية، وذلك في كتابه الفريد من نوعه «في الأدب الصهيوني»، إذ كان أول مّن تتبّع الأدب العبري المكتوب قبل إنشاء الدولة الصهيونية وناقشه وقارنه بالمكتوب بعد تأسيسها لإيضاح الأساليب المختلفة التي يستخدمها الصهاينة لخدمة أغراضهم، بالحرب والقتل تارة وبالأدب والرواية تارة أخرى، إذ يقول: «ربما كانت تجربة الأدب الصهيوني هي التجربة الأولى من نوعها في التاريخ حيث يستخدم الفن في جميع أشكاله ومستوياته للقيام بأكبر وأوسع عملية تضليل وتزوير تتأتى عنها نتائج في منتهى الخطورة». هذا الجهد الكبير المبذول في هذا الكتاب وغيره بهدف فضح الصهيونية التي لا توفّر شيئاً دون أن توظّفه أداة في إيصال أفكارها، كان كافياً وحده ليقوم الموساد الصهيوني باغتياله في بيروت؛ وكانت سنواته الستّ والثلاثون كافية أيضاً لتجعل العدو والصديق عاجزاً عن إطلاق صفة أو اثنتين قبل اسمه للتعريف بوجوده الضروري والمتعدد في الحياة الفلسطينية.

الموضوعة الكبرى التي تدور عليها السردية الكنفانية هي أنّ موت الفلسطيني لا يكون إلا بموت حلمه، وأنّ أيّ حلم لا يلامس فضاء الوطن هو محض خزّان/ صهريج (تابوت)، أما القاتل الحقيقي فهو كل من يتواطأ على قتل هذا الحلم، وفي مقدمتهم فلسطينيون فقدوا فحولتهم الوطنية، وعرب شاركوا بقيادة الصهريج وسمعوا قرع الخزان ولم يستجيبوا وطاردوا الحلم بالسجون والحصار والحدود، وعقدوا تحالفاً عضوياً مع (الجار الجديد) لأنهم رأوا في هذا الحالم «لواء فكرياً مسلحاً» غلى غرار ما رأت «غولدا مائير» في غسان. ويمكن الحديث بإيجاز عن أبرز مظاهر هذه السردية المضادة التي أسّس لها غسان في أدبه، ومنها: الشتات؛ لأنّ الأدب الفلسطيني بدأ يتلمس إشكالية الشتات منذ اللحظة الأولى التي اصطدم فيها وعي الإنسان الفلسطيني بالنكبة التي تطلبت منه اختيار فعل الارتحال الذي كان في طابعه جمعياً، فجاءت رواية الكتابة الأولى للأسلاف أو آباء الرواية الفلسطينية معبرة عن لحظة الشتات بتكوينه الخام، إذ لم يتكون الإدراك بأنّ هذه التجربة قد تمتد في الزمان والمكان، إنما كان يُنظر إليها على أنها مؤقتة أو طارئة يمكن أن تنتهي في يوم عبر الفعل والإرادة، أي أنه ثمة أمل ما بأنّ هذا الحدث لن يكون جزءاً من قدر محتوم، علماً بأنه حين وقعت النكبة سادت فترة صمت سردي في زمن كانت فيه الرواية العربية في طور التكوين، وفي حين كان الشعر أكثر حضوراً أو اتصالاً بالأزمة، ومع ذلك فإنّ الرواية سرعان ما برزت كي تمارس وظيفتها في حراسة الذاكرة الفلسطينية، ولعلّ هذا يظهر من خلال الاشتغال النصي الذي كان بعيداً عن فعل التأمل للأثر على المستوى البعيد، ولا سيما من حيث إشكالياته على مستوى الهوية واللغة والتنازع الوجودي.

ولاشك أنّ هذه السياقات شرعت تلقي بظلالها على الإنشاء السردي والأيديولوجي للرواية الفلسطينية المعاصرة، وبالتحديد من حيث البدء في قراءة العلاقة بين الإنسان المشتت والأمكنة البديلة، غير أنّ الكتابات الأولى ولا سيما روايات كنفاني تمحورت حول

الخروج وإدانته، بما ينطوي عليه من ألم ومأساة، فرواية «عائد إلى حيفا 1965» تُعنى بمعالجة أثر النكبة ومعنى الالتزام بقضيةٍ، مع سرد مختزل لواقعة التهجير، ومن ثم الانتقال للعودة التي تحتمل شكلاً من قيم الوعي بالقضية، فيما تُعنى رواية «رجال في الشمس 1963» الأسبق زمنياً بمقولة ثورية تجاه الخروج، ولعل هذا النمط من التشكيل السردي الذي دشنه كنفاني يمثل علامة من علامات تمثيل النكبة في الرواية الفلسطينية. فغسان بوصفه كاتباً مهجّراً وقع على بعض تلك الملامح لأزمة الخروج والارتحال كونها حالة تنمّ عن الاقتلاع المفاجئ أو البائس، فاستطاع أن يقيم سردية مضادة للشتات عبر محاولة خلق تمثيلات إنشائية معاكسة تتصل برفض هذا الناتج، مع الاستناد إلى خطابات المقاومة التي تُعلي من شأن الكفاح. وهذا النهج السردي الرمزي يحيل إلى تقويض إشكالية الاقتلاع، وبقاء قيمة العودة حاضرة بوصفها أملاً قريب التحقق، وهكذا نجد أن عين غسان تبقى موجهة نحو المقاومة والاحتفاء بها، ولعل عبارة «أبو سعد» تختزل هذا المنظور حين قال: البارودة مثل الحصبة تُعدي». في حين أن خيمة الفدائي تختلف عن خيمة اللاجئ المستسلم لنكبته.

أمّا منظور كنفاني للمخيم فهو مختلف؛ لأنّ المخيم ولا سيما في رواية «أم سعد» لا شيء سوى «حبس كبير» وكل شيء خارج فلسطين يغدو سجناً كبيراً يعني الاستسلام، ولم يكن الشتات سوى تجسيدٍ متحققٍ لفقدان الحرية والتسليم بالهزيمة، وهنا نُكتنه مفهوماً معقداً لمعنى الشتات، فالكثير من المشتتين سوف يشعرون هذا الإحساس الذي التقطه كنفاني ولكن دون البحث في تداعيات الشتات على الشخصية الفلسطينية في سياقها المعاصر الذي غدا أكثر تعقيداً وتحديداً بعد مرور أكثر من سبعة عقود، لقد طرأ تحوّل على هذا المفهوم حيث شرع النهج الواقعي في إدراك أنّ ثمة حاجة للنظر إلى التصالح مع الأوطان الجديدة مع التأكيد في الأدبيات الفلسطينية على عدم التنازل عن حق العودة. والمنفى يعيد تشكيل اللغة ووعينا بمعنى أن نكون الطارئ ونتوق إلى العودة، ولا ريب أن «أم سعد» مازالت ترفض المخيم واللجوء وترغب في العودة إلى حيث ذهب ابنها، وترغب في التخلص من هذا الوحل الذي علقت فيه، وهي دلالة واضحة تنهض على تجسيد حياة الفلسطيني في الشتات. كما يتضح عبر قراءة أسلوبية مركزية تنهض على قوة الأمل بالعودة التي تتكرر في أكثر من موضع من روايات غسان، وهذا يحضر بموازاة الرغبة في التدوين وكتابة المعاناة وتجسيدها لتكون مروية، وفي السياق نفسه نتلمس ذلك الإحساس الجمعي بالمعاناة والتعاطف، وهو أحد أبرز مميزات خطاب الشتات وملامحه سردياً.

إنّ مصائر شخصيات كنفاني في الشتات يحكمها منظور كئيب مرفوض، بل إن الطريق إلى الشتات محكوم بالموت، وأي محاولة للبحث عن نموذج حياتي بديل لا يحتكم لوجهة فلسطين فإنّ مصيره سيكون الفناء، وهنا نقع على قيمة أيديولوجية عميقة في التكوينات المؤسسة للمروية الشتاتية من منظور غسان وهي تصلح لأن تعيد فهم خطاب الشتات وتحوله في الرواية الفلسطينية المعاصرة التي بدت واقعة في مجال بيني قوامها تلك النزعة للرفض والمقاومة والتشبث بحق العودة بالإضافة إلى كتابة تتسم بواقعية السياقات التي وجد الفلسطينيون أنفسهم فيها.

خلاصة القول، إنّ مكانة كنفاني تتميز في كونه السارد الفلسطيني لمرحلة التهجير واللجوء والشتات، وتشكّل سؤال المقاومة الذي تجاوز خطاب التفجع والبكاء وانتظار إغاثة. فأبرز في كلّ ما كتب تماهي ذاتية المثقف مع التجربة الجمعية، هذا المثقف الذي يعي أسباب نكبته ويعرف أكثر ماهية الصهيوني الذي يواجهه «اعرف عدوك» وهذه المهمة لا تستطيع أن تقوم بها إلا ثقافة في مفهومها النقدي المتجاوز لما هو سائد تقطع الصلة مع القيم البالية دون أن تحترق أجنحة الفن في كتاباته.

وربما ما يقوم به أحفاد غسان الآن في الطوفان هو تصحيح الخطأ، فلم يدقوا جدران الخزان فحسب بل فجروه ولم ينتظروا أن يسمعهم أحد أو يستجيب لهم أيٌّ من أبي الخيزرانات المنتشرين في فلسطين والوطن العربي؛ لأن نكبة 1948 ما تزال مستمرة وفصولها ما زالت مفتوحة بلا أي تغيير وبلا أي هوادة، فكيف يدرك الذين يدينون المقاومة أن هذا الاحتلال الإحلالي غير مسالم، ولم يمرّ يوم منذ عام 1948 لم يُقتل فيه فلسطيني إلا بسبب فلسطينيته، وكل الروايات والقصص والأشعار التي كُتبت وستُكتب ستحرم العدو من أن يمارس محوه للذاكرة الفلسطينية.

لقد تصدّى كنفاني بقوة إلى لغة «الندب» والبكاء والتشكّي والعويل الذي اتصف به بعض كتابات النكبة والشتات، ودعا إلى التوقف عن الكتابة بهذه اللغة؛ لأنّ فلسطين لا تعرف إلا شيئاً واحداً فقط هو المقاومة، وكل الإجرام الصهيوني لا يمكنه أن يقتل هوية الإنسان الفلسطيني المقاوم، هذه الهوية التي تحتاج إلى مَن يثبّتها باستمرار إزاء محاولات تذويبها، وهو ما انعكس بشكل سلبي على حضور فلسطين في الكتابات الأدبية منذ أمد ليس بالقصير، فالأدب المقاوم الذي كرّسه كنفاني فعلاً وتنظيراً في كل ما كتب، انزوى بعيداً عن أعين محبي أدب الكتابة الذاتية والنصوص المائعة الماسخة المراوغة. وصار الأدب المقاوم شيئاً من الماضي تماماً مثلما ينظر البعض إلى القضية الفلسطينية كشيء قديم انتهى مع عصر التطبيع الإبراهيمي والسماوات المفتوحة والمواطن العالمي.

إنّ أحفاد الذين يكتبون الآن من مسافة صفر أعادوا للأدب المقاوم وهجه، وأزاحوا ما أصابه من تهميش وإقصاء إثر عمليات التطبيع، واتخذوا من الركام الذي يطرحه هذا الواقع الكارثي منبراً عاصفاً للتحدي، ليس فقط لأنهم أدركوا المعايير الفنية والجمالية التي تحكم الأدب، بل لأنهم أيضاً كما قال نايف صالح سليم أحد شعراء المقاومة في الأرض المحتلة الذين عرّفنا إليهم غسان كنفاني منذ زمن بعيد: ليس ما تنزفه يا قلمي بعضَ حبر... إنما بعضُ دمي. وكل كتابات أدباء غزة الذين استشهدوا في حرب الإبادة الثقافية الراهنة يؤكدون أنّ الدم والحبر وحدهما عنوان الثقافة الأصيلة المشتبكة وما عداها زيف وتدليس.

تطور الفكرة المقاومة في مجموعة العاشق

حاتم إستانبولي ـ كاتب سياسي فلسطيني ـ القدس

ثلاثية غسان كنفاني التي تضم العاشق وبرقوق نيسان والأعمى والأطرش.
ثلاثية في تعدد للزمانية والمكانية تناول فيها غسان بإبداعية أدبية التغيرات العميقة التي حدثت في المجتمع الفلسطيني ما قبل جريمة النكبة وما بينها وبين حزيران 1967 وبعد هزيمة النظام الرسمي العربي.
الخيط الرفيع الذي ربط هذه الثلاثية هو المقاومة التي انتقل فيها من الحالة الفردية في العاشق الذي وصف على أنه: نوع من الرجال ينبت فجأة أمامك فإذا بك غير قادر على نسيانه، وبدل أن يتجه مثل كل الناس إلى الأشياء، تتجه إليه الأشياء من تلقائها مروراً في تشكل الوعي النخبوي في برقوق نيسان إلى بداية تشكل حالة عامة في الأعمى والأطرش .

ثلاثية تلاعب بذكاء في مواضع الجمل والأفكار وسردية القصة التي تخللتها عدة حكايات وغَيرَ مواضع النهاية والبداية وعقدة القصة وترك النهاية مفتوحة على مجريات المستقبل الذي تحدده حركة الصراع داخل الظاهرة بين الوحيد والخاص والعام ودور الفرد عندما فسر كيف يمكن أن تتغير الأقدار إذا انحرف قائد القطيع ليلتقط قشرة برتقال يتبعه القطيع في غير اتجاه في قراءة مبكرة لاهمية الدور القيادي الواعي.

ثلاثية بدأها بتساؤل: لا أحد، يعرف كيف ترتب الحياة نفسها؟ يحسب المرء أن قصة ما انتهت فإذا بها تبدأ، إن مستقبل إنسان كامل تراه فجأة متعلقاً بحادث صغير لا قيمة له، إن عقدة المسبحة أصغر من حباتها لكنها إذا انفكت كرت ثلاث وثلاثون حبة واحدة إثر أخرى.

أما في برقوق نيسان فيبدأ بربيع نيسان وصورة شهيد ويشير أن الولادة تأتي من الألم وفي الأعمى والأطرش يشير إلى مرحلة الولادة في تحول الحقائق الصغيرة إلى أحلام كبيرة.

في العاشق (لا أحد في إشارة إلى الشخصية في التساؤل) أطلق عليه أسماء متعددة بين قاسم وعبد الكريم وحسنين ورقم 362 في تحول اسمه إلى رقم.

أسماء تم تداولها في تنقلاته بين القرى الفلسطينية التي عمل بها متخفياً لكنه كان ذات الشخصية الفلسطينية المتمردة التي أربكت ضابط الاحتلال البريطاني بلاك (وأصبحت هاجساً، كابوساً يرافقه في كل لحظات يقظته ومنامه ويتسلل إلى أحلامه وفي وصفه لهذه الحالة في شرحه إلى الميجور ماكلود كيف أنه بدأ يطلق النار على الأرض الهواء والأشجار ومنعطفات الطرق في إشارة إلى أن الأرض بكافة تضاريسها كانت متواطئة مع العاشق حتى أن فرس العاشق أبَت أن تتحرك لتلاحق العاشق في حين أن فرس جابي الضرائب التي قفز عليها انطلقت بسرعة الريح (التي أعطاها اسم الريح) لتخفي العاشق عن أنظار بلاك وجنوده.

أينما انتقل العاشق كان قدره أن يلتقي بفَرس أصيل الريح والهيجاء وسمرا. في كل مكان انتقل إليه العاشق كان هناك فرساً تحمله وتداعبه وتخفف عنه آلامه في رمزية واضحة لارتباط دور العاشق بمعنى الأصالة التي تعنيه الفرس والتي عبر عنها غسان في لوحاته الفنية.

والمدقق في دور العاشق لا يجد كيف أصبح العاشق مطلوباً للاحتلال الإنكليزي بشكل واضح بل يتطلب تدقيقاً في الجمل ومعاني الكلمات التي كانت تحوم حول ثلاثية العاشق والخيل والأرض التي دافعت عنه وأعاد لجوفها ما جمعه جنود الاحتلال من ضرائب، أما الخيل التي أعطاها أسماء تتلاءم مع حالة العاشق وهي التي حملته بعيداً عن بلاك وجنوده وهي التي خففت آلامه عندما داس على الجمر وهي التي عشقته وناحت عندما تغير اسمه من العاشق إلى رقم 362.

يوضح غسان أن العاشق هي شخصية متمردة على الاحتلال بدأت بتمزيق اللافتات انتقالاً للتصادم مع جنود الاحتلال وتجريدهم بندقية وسرقة حصان من أجل الانضمام لمجموعات عز الدين القسام (في إشارة غير مباشرة لهذا الدور) التي كانت تعمل ضد الاحتلال في شمال فلسطين أشار إليها في نهاية القصة عندما وعد الحاج عباس العاشق بتزويجه زينب ابنة الشهيد الذي انضم إلى نداء عز الدين القسام وابنة امرأة من حوران أخذها الجنود الإنكليز ولم تعُد.

لكن في برقوق نيسان العاشق تحول إلى شهيد ومقاوم (قاسم) واستعاض عن

الفرس بشخصية زينب المقاومة وأعطى للفعل المقاوم مدلولاً مرتبطاً بالزمن الذي تحول فيه شكل الاحتلال من خارجي إلى احتلال إحلالي صهيوني وتحول اسم الكابتن بلاك إلى الضابط الصهيوني بلا اسم لتعميم تحول الدور.

جوهر القصة يشير إليها عبر تعريف بالشخصيات التي تدور حولها أحداث القصة بين أبو القاسم المهاجر من يافا الذي انتقل إلى مخيم عقبة جبر في أريحا مع ابنه الوحيد قاسم الذي تحطمت أحلامه عبر انتقاله من مكان إلى مكان في وصف دقيق لتغير حالة الفلسطيني وصفته المدنية القانونية من مواطن إلى لاجئ.

هذا اللاجئ ألقى بأحلامه جانباً والتحق بالعمل الوطني الذي كان يعتبر جريمة من قبل السلطة الأردنية المهيمنة على الضفة هذا الوصف الذي أعطاه غسان للسلطة القائمة له مدلول سياسي قانوني واضح عبارة الهيمنة تعني الحكم بالقوة التي كانت تمارس القمع ضد أي تحرك وطني منظم وأورد ذلك واضحاً من خلال وصف الشخصيات ودورها وموقعها السياسي بين الشيوعي والبعثي والقومي العربي والإنسان الفلسطيني غير المنتمي إن كان طفلاً أو شيخاً.

أظهر التعارضات بين القوى الوطنية التي حكمت تلك المرحلة ولكنها جميعها تسقط أمام مواجهة الاحتلال لِيتحول الصراع إلى تعاون واضح في غرفة زينب التي أخذت دوراً قيادياً في تنظيم الحركة في إشارة واضحة للتحول في دور المرأة الفلسطينية في زمنين مختلفين زمن الاحتلال الإنكليزي وامتداده الاحتلال الصهيوني ما بعد 1967 وأبرز الخيط الرفيع بينهما من خلال تعريفه للضابط الصهيوني الذي كان يعمل في دائرة المخابرات البريطانية وتحول إلى ضابط في الجيش الإسرائيلي مستفيداً من خبرته في الجيش البريطاني وبرفقته أحد الجنود من عائلة مغربية ساعدتها الوكالة اليهودية للهروب من المغرب عبر فرنسا إلى فلسطين وفي شرح أبرز غسان عبر الأسماء وتغيرها تغيراً في دور إبراهيم الذي تحول إلى إبراهام العامل في مصنع النسيج الذي تحول إلى جندي بعد 1967 أما أخوه الكبير يعقوب الذي كان شيوعياً مغربياً واعتقل في المغرب كباقي الوطنيين المغاربة ورفض الهجرة إلى فلسطين لإدراكه الهدف الصهيوني وبقي في فرنسا مع أقرانه وأصدقائه من العمال الوطنيين المغاربة.

في برقوق نيسان الربيعي أصر غسان أن يعطي صورة تفصيلية لشرح أصول ودور الشخصيات وبذات الوقت أعطى إضاءة حول ظهور التنظيمات الوطنية المتعارضة والتي كانت تعاني من ذات القمع في ظل الهيمنة الأردنية على الضفة وبذات الوقت أعطى درساً واضحاً في ضرورة الوحدة الوطنية في مواجهة الاحتلال وأن هناك دوراً لكل فئات وأطياف المجتمع إن كان طفلاً أو شيخاً أو شيوعياً أو بعثياً أو قومياً عربياً.

وفي إشارة مقتضبة إلى دور وكالة الغوث ومُخبِريها الذين قطعوا الإعانة عن أبي القاسم الذي كان دوره في برقوق نيسان هو حماية طلال الذي كان رمزاً للتواصل بين الضفتين الشرقية والغربية .

أما في الأعمى والأطرش فقد توسع غسان في شرح دور وكالة الغوث وجواسيسها الذين قطعوا الإعانة عن زينة عندما علموا أنها تعمل خادمة. وأصبحت مخازن الوكالة ومكتبها الذي يعمل فيه الأطرش مع الفرن الذي يعمل فيه كل من الأعمى وحمدان مسرحاً لأحداث قصة الأعمى والأطرش.

القصة التي أراد نهايتها مفتوحة الأفق التي تحمل في طياتها تحول في فكر غسان كنفاني.

عبر صفحاتها يعبر غسان عن حالة انتقال في وعي الواقع الفلسطيني من خلال عيون لا ترى وآذان لا تسمع يقفز بينهم ومن خلال معاناتهم يكشف عن الحالة المجتمعية الفلسطينية السائدة والتي ما زلنا نحمل أوزارها ونعيد إنتاجها لأننا لم نسمع كلام أبو حمدان الذي وضح لابنه أن قطع رأس الحية لا يكفي لأنها تعود لتنبت بأكثر من رأس، علينا أن نقتلع الحية من جذورها في إشارة إلى الثقافة السائدة التي ترى حل مشكلة الآلام من خلال زيارة الأضرحة والدعاء على أطلالها ونعلق قمصاننا على الشناكل الممتدة من السماء.

هنالك فارق كبير أن تقرأ لغِسان أو أن تقرأ غسان هذا ما توضحه قصة الأعمى والأطرش التي تحمل فلسفة خاصة وأفكار فلسفية بأغلفة اجتماعية تحمل بعداً إنسانياً يفتقر للعدالة الإنسانية ويدور في دائرة بين ضريح عبد المعطي الولي وبين مقر الأونروا حيث يعمل أبو قيس وبين الفرن الذي يعمل فيه عامر الذي تغير اسمه لعبد المعطي هذا الاسم الذي أطلقه عليه أبو قيس.

الاسم الذي اعترض عليه حمدان الفتى المتين الذي يعمل أمام فوهة الفرن ويرمي أرغفة الخبز باحترافية وتصدر صوتاً أعطاه غسان بعدين بعداً مكتوماً في بداية القصة وبعداً فرحاً كَتصفيق يدي الإنسان في إشارة إلى أن صوت الخبز على بلاطة الفرن كان معياراً لحِالة حمدان عندما كان جندياً للولي عبد المعطي في البداية وتَحَوله في النهاية إلى جندي عند الفدائي والده الذي خرج من السجن بعد أن كان محكوماً بالمؤبد في الأردن.

لقد بدأ قصة الأعمى والأطرش: بأن ما سيقال أن ما حدث كان مستحيلاً، أما الآن فَالأبعَدون يقولون إنها مغامرة، وأنا أقول إنها الولادة. ويضيف أن الحقائق الصغيرة لم تكن في البدء إلا الأحلام الكبيرة، والمسألة مسألة وقت ليس إلا.

هذا ما أراد غسان أن يبدأ وينهي القصة البداية كانت استخلاصاً للأحداث داخل القصة وأرادها كنهاية مفتوحة لكي لا يسقط رَغبَوية حول مسار كل ما مثله الفدائي والد حمدان الذي خرج من السجن يحمل فكرة ويخبئ تحت فراشه رشاشاً وبين مصطفى الموظف المبتذل المدافع عن الولي عبد المعطي الذي حول رغيف الخبز إلى فراش يمارس عبره جيئة وذهاباً غرس جسد زينب وعوداً لها بإعادة الإعانة لطفلين من أطفالها الأربعة هذه الوعود التي لم تسفر إلا عن نصف إنجاز أدركته صرخات زينب عن أن ثمن إعادة النصف كان عرضها الذي خسرته على فراش من الخبز .

حضرت زينب في آخر مشهد في القصة عندما جاءت إلى مقر الوكالة وتوجهت إلى أبو قيس في إشارة إلى تحول في وعيها لدور كل من مصطفى وأبو قيس الأطرش.

مصطفى الذي كان لا يتحمل نظرات الأطرش أبو قيس التي كانت تكشفه وَتُعريه.

مصطفى الذي تحول إلى فرد من جماعة طق، طق في إشارة إلى ظهور الاتجاه الآخر في حركة المقاومة الفلسطينية.

لقد لعبت رمزية المكان دوراً مهماً في الأعمى والأطرش في إطار توضيح حالة الصراع ما بين الفكرة الغيبية وبين نقيضها.

المكان الذي كانت تذهب إليه أم عامر تسند طفلها الأعمى على كتفها جيئة وذهاباً بين قبور الأولياء ويتصبب منها العرق ذهاباً والدموع في عودتها العرق والدموع من كثرتهما كان يمكن أن ينبت الشوك على خدود أم عامر في وصف كم وحجم المعاناة التي تكبدتها وهي تبحث بين الوعود والزيوت التي كانت تصب دون جدوى على أعين ابنها عامر.

العرق والدموع كانت معياراً للمسافة والزمن الذي قضت فيها أم عامر بين أضرحة الأئمة تناشدهم في دعواها تحقيق معجزة إعادة البصر لطفلها ولكن لم تُستَجَب دعواتها.

ضريح عبد المعطي الولي كان مكاناً للقاء كل من الأعمى والأطرش اللذين تعاونا على استكشاف ماهيته في تعاون بين شخصيتين استعار كل منهما حاسَة الآخر المفقودة لديه للتحقق من ماهية عبد المعطي الولي وكان اكتشافه مثل اكتشاف نيوتن بعد أن سقطت التفاحة من الشجرة.

لكن الأعمى والأطرش اكتَشَفا ماهية الولي عبد المعطي من خلال الصعود على جذع الشجرة وظهرت لهم الحقيقة أن الولي عبد المعطي لا يملك عينين وأذنين في إشارة إلى عَجزه وعَجزِهما، وكشف أن رأس عبد المعطي الولي ما هو إلا حبة فطر أو فقاعة في جذع شجرة .

هذا الاكتشاف الذي شكل حالة انتقال في الوعي ما بين الغيبي والواقعي وأن عبد المعطي الولي لا يمكنه أن يحقق المعجزات ولذلك قام أبو قيس بإطلاق اسم عبد المعطي على عامر الذي تحسس واكتشف أن الولي ما هو إلا فطر أو فقاعة.

بعد هذا الاكتشاف تعمد غسان إظهار كل من عبد المعطي (عامر) وأبو قيس (الذي اكتشف أن عبد المعطي الولي كان سبباً في التقاء شخصين لم يلتقيا في طيرة حيفا بل على ضريحه) في حالة انتقال في الوعي وأصبحا شخصين مختلفين في التفكير وأنهما أصبحا رمزاً للعدالة الصماء التي مثلها أبو قيس الذي يرى طابوراً طوله عشرون عاماً كل شهر يقف خلف البوابة الحديدية.

كان يحلم أبو قيس أن يأتي يوم تتراص فيه أكتاف اللاجئين ليحطموا البوابة الحديدية لمخازن وكالة الغوث التي تعمدت أن تضع أبو قيس في الواجهة ليمتص غضبهم في إشارة إلى رمزية العدالة الطرشاء الصامتة على حالهم التي امتدت لعشرين عاماً وتحول دورها من دور الإغاثة إلى دور الإهانة الصماء.

أما عن العدالة العمياء فقد كان رمزها عامر ورغيف الخبز وحمدان الأمُي (الذي كان حارساً لعبد المعطي الولي وطلب منه عامر أن يكتب لعبد المعطي ليمنحه قميصاً للعيد وأجاب عامر أنه لا يعرف الكتابة في توضيح أعمَق لوعي من هم أتباع عبد المعطي وصف غسان دماغ حمدان أنه عبارة عن أرفف يضع عليها أشياءه التي رتبها منذ صغره في إشارة للثقافة الموروثة والتي لا يمكن التلاعب بها من الخارج أي تغييرها.

التغيير يجب أن يكون داخلياً بإرادة حمدان هذا ما حصل عندما ظهر والده الفدائي وقال له أنا وَليك بدلاً من عبد المعطي الولي.

العدالة العمياء التي رأى صورتها أبو قيس عبر الشارع من خلال مقارنة مشهد عامر حاملاً الميزان وأرغفةً تحت إبطه بمشهد تمثال المرأة التي تحمل ميزان العدالة وتحت إبطها سيف.

لكن عندما اجتمع الأعمى والأطرش على ضريح الولي عبد المعطي استطاعا هزيمته وإخراجه من وعيهم ولكنهم لن يستطيعا هزيمته الكاملة إلا من خلال اقتلاعه من جذوره وعدم السماح له بالظهور من خلف ظهرهم في إشارة للنصيحة التي قدمها أبو حمدان لابنه التي كانت نقطة تحول في وعي حمدان وانضمامه لكل من الأعمى والأطرش ليستطيعوا مواجهة مصطفى وأوهام الولي عبد المعطي الذي قتلوه في وعيهم وفرض عليهم سؤالاً مهماً: ماذا بعد؟ غسان أراد توضيح أن الآلام تكشف الحقائق.

الأعمى والأطرش قصة ما زالت أحداثها مستمرة حتى يومنا هذا فلم نستطع اقتلاع عبد المعطي الولي من جذوره وسمحنا له أن يظهر من خلفنا بمساعدة مصطفى المنتمي إلى طق، طق وأصبح يتحكم بمصير القضية وما زال يفترش رغيف الخبز سريراً يمارس بَغاءه علناً وينصب نفسه معياراً للعدالة التي ما زالت عمياء وطرشاء واتسعت مساحتها مكانياً وزمانياً.

غسان الذي تنبأ بما نحن فيه ما زال ملهماً للفكرة المقاومة تقف الكلمات عاجزة أمام قيمة الفكرة ودمها.

مجموعة العاشق أظهرت تطابق الوطن مع الفكرة في جسد الإنسان الفلسطيني اللاجئ.

غسان الذي أظهر عظمة تحدي الموت والاستهزاء به عندما تصبح فكرته دعوة لرجال الشمس أن يترجلوا ويعودوا.

عندما يدعو العاشق أن يتمسك بالأرض, ويدعو الأعمى والأطرش أن يعاودا قتل الولي عبد المعطي.

عندما يعاودوا طرق الجدران ويفضحوا عقم أبو الخيزران .

عندما يدعو للعودة إلى حيفا ويَستَقرأ إن لغزة أنفاقاً تمتد منها إلى صفد.

عندما يوَضح أن هذا ما تبقى لكم من أرض البرتقال الحزين باقة ورد من برقوق نيسان تغطي به صدرك العاري حتى تستعيد قميصك المسروق لتعيد خياطته أم سعد .

عندما يزداد وضوحك في عالم ليس لنا يحتارون غموضك في من قتل ليلى الحايك لأن وضوحك يعميهم .

عندما تكون فلسطين هي الثكلى هي الأم هي المفجوعة بدماء أطفالها ونسائها وشيوخها وشهدائها في غزة التي تعيد تشكيل الوعي الإنساني لمفهوم العدالة وتكشف حجم واتساع تحالف الظلم الرسمي فلسطينياً وعربياً ودولياً وتعيد رسم الفواصل والحدود بين الشعوب وحكوماتهم .

عندما ندرك أن الثورة لا بديل عنها لتعيد رصف الشارع الممتد منذ أكثر من خمسة وسبعين عاماً ليسير عليه الفلسطيني اللاجئ في رحلة عودته.

عندما يعيد رسم صورة العدالة ووضع معيارها وناظمها وكشف أن فلسطين هي أيقونة العدالة الإنسانية ومعيارها وناظِمها وميزانها وسيفها.

غسان كنفاني ناقداً

غرز الدين جازي ـ ناقد أدبي ـ سورية

ساهم النقد الأدبي في بناء وتقديم الفنون الأدبية كافة، وهو جزء لا يتجزأ من الحركة الفكرية، فتشعبت مدارسه ومذاهبه الفكرية والثقافية وتنوعت، وتندرج رؤية الكنفاني النقدية تحت مفهوم النقد الساخر رغم أن بعض الأدباء النقاد يعتبرون ذلك خارج بنية ومفهوم النقد، إلا أن من الصحيح بمكان أن فن الكتابة الأدبية الساخرة يتطلب موهبة السخرية وبديهيتها، إضافة إلى دقة الصياغة اللغوية والتركيب، وجودة التعبير الواخز الممزوج بفضاء الخيال الرحب

لم يكن غسان كنفاني الوحيد في ممارسته الإبداع والنقد معاً، لكنه يختلف عن المبدعين الآخرين ممن كتبوا النقد أن نقده كان مغايراً تماماً في أسلوبه وطبيعته، حيث ركّز بأسلوبه الساخر الذي يتميز به على تمييز الجيد من الرديء، والغث من السمين في مادته الأدبية التي يتناولها بالنقد، لكن شهرته كقاص وروائي طغت على كتاباته النقدية، ومما ساهم في ذلك أنه كتب مواده النقدية باسم مستعار على شكل مقالات في الملحق الأسبوعي لصحيفة «الأنوار»، ومجلة «الصياد»0

لقد كان غسان كنفاني في مقالاته النقدية جريئاً وساخراً، ورؤيته النقدية، ومعالجته للمواد الأدبية بطريقته الساخرة تلك، أوجدت له الكثير من المعجبين والقرّاء، مما حدا ببعض الكتّاب أن يرسلوا له كتبهم ليكتب عنها نقداً بذات الطريقة الساخرة، فقد قدّم رؤيته في الفنون الأدبية عامة، وكانت كتاباته النقدية تدلّ على أنه كان قارئاً نهماً ومتابعاً حثيثاً رغم أعماله الكثيرة أدبياً وسياسياً 0 كان يتابع الإصدارات الحديثة ويكتب عنها وإن اتخذت تلك الكتابات النقدية أحياناً طابع الصدام والحدّيّة00 فكتب كيف يرى الشعر، وانتقد الغموض فيه والسذاجة والتكرار00 ونوّه إلى أهمية فن السخرية، وانتقد من سخرية بعض الكُتّاب غير المتقنة، كما لاحظ ندرة المسرحيات، مشيراً بدقة الأديب العارف إلى الفارق بين المسرحيات المكتوبة وبين المسرحيات المُعدّة للتمثيل بلغة نقدية، وهذه ملكة لا يتمتع بها إلا ذوو الخبرة التقنية في مفاصل النقد المسرحي الدقيق والعميق0

كذلك تناول بنقده القصة القصيرة التي يراها بعضهم أدباً وفناً سهلاً، وأوضح أن كتابة القصة القصيرة «عملية مرهقة للغاية، تحتاج إلى موهبة قول الشيء باختصار شديد الإيحاء00»، وعاب عليهم اتكاءهم على القضايا الوطنية ليسوّقوا أدبهم، فكان يرى أنه لا يكفي أن تكون نظيفاً وطنياً ليكون كتابك

جيداً، وهو بذلك لامس روح الأدب ووظيفته ورسالته التي وجد من أجلها بعيداً عن السردية والخطابية المباشرة0

كانت لغته في النقد سهلة وبسيطة، يدرج فيها أحياناً ألفاظاً عامية باللغة المحكية تجعلها قريبة من مزاج القارئ، فجعل بذلك النقد والأدب يدخلان ذات القارئ بهذه الآلية المحببة من السخرية والوضوح في تناول الأفكار والأعمال الأدبية ولغة الحوار التي كان يوظفها في مقالاته، كما قدّم موقفاً حاسماً من رداءة أدب المقاومة إن اختبأ أو لاذ تحت عباءة النضال الثوري وأغفل الجانب الأدبي التقني والفني، فنراه يدافع بشراسة الناقد عن قصص الأديب الروسي «شولوخوف» التي ظهر فيها تماهي وتمازج الجمال الأدبي والتقني الفني مع ما يحمله من روح ثورية تبرز في نصوصه الأدبية 00 فيقول عن «شولوخوف»: «إنه ملتزم، منحاز، يبحث عن إشراق الثورة وانتصارها، ويتعاطف مع رجالها دون أن يخون التزامه الفني» 0

وفي ذلك قيل عن الكنفاني أنه لم يتخلّ يوماً عن ثقافته الأدبية والجمالية، ولم يتسامح للحظة أمام اشتراطاتها

ومتطلباتها، بل وقف موقفاً واضحاً ناقداً لكل النماذج التي اتخذت من الثورية والمقاومة مدخلاً فضفاضاً للتسلّق والشهرة أو لعدم الاكتراث بشروط الإبداع الجميل، وبالتالي كانت وخزاته النقدية الساخرة فسحة من أفق الأدب والفكر اختلط فيه الأدب باللغة الأدبية الساخرة بعيداً عن الأسلوب البحثي الذي نقرؤه بين الحين والآخر لدى أدباء المقاومة الجادين 0

لقد أسس الكنفاني برؤيته ما أصبح معروفاً بـ «النقد التفاعلي» عندما أتاح للقراء أن يناقشوه ويرسلوا آراءهم إليه 00 فأعاد للنقد أهميته بجعله تفاعلياً بعد أن حشرته الدراسات الأكاديمية والتنظيرية في الدراسات الجامعية والمجلات التخصصية وجعلته فناً نخبوياً للمثقفين تعالى فيه الناقد باستخدامه لغة تحتاج إلى التفسير والشرح وتغرق في المصطلحات النقدية الصعبة والمنقول غالبيتها من النظريات الغربية، الأمر الذي أوقعها في متاهة المعرفة البنيوية السيئة في حركة النقد العربي، فقد ساهم الكنفاني في تأسيس النقد التفاعلي الذي جاء بعده رونان ماكدونالد بسنوات ليتحدث عنه 0

كذلك اهتم الكنفاني بالناشر وما يقوم به من عمل ترويجي وتسويقي بتمريره كتباً ليست ذات سوية عالية بكلمات تكشف عدم الوعي الأدبي والثقافي، ووجه له رسالة ليتوخى الدقة والمسؤولية في مهمته 0

ورغم أن الكنفاني في مقالاته الساخرة لم يسلم من وخزاته إلا القليل ممن ذكرهم بخير ونالوا استحسانه، إلا أنه يجعل القارئ يكتشف أنه ليس كل كاتب عظيماً00 ويقوده إلى حسن اختيار الكتاب 0

الكنفاني مثقف نقدي رائد، وثاقب الرؤية ، ففي «فارس فارس» تظهر قدرته الإبداعية المتميزة في النقد الأدبي الساخر، ومحاولته الجادة في ابتكار نقد أدبي بطريقة ساخرة لتحسين الذائقة الأدبية للقارئ، فقد كان ينتقد ويسخر بأسلوب ينم عن اطلاع واسع وعميق ومتابعة دؤوبة للتيارات الفكرية والأدبية بمجملها، فهو حين يتحدث عن كتاب «ذيل الأسد» يسمّيه بنقده الساخر أنه من مكتبة «الشتمونولوجيا» أي علم الشتائم كما يحلو له أن يطلق عليه 00 وهذا الكتاب تقطر صفحاته مسبّات ضد البريطانيين، ويمكن لك أن تضعه في جيبك، فإذا علقت بينك وبين أي إنكليزي تستطيع استلاله واستلال لسانك دفعة واحدة، وهات يا بحث عن شروش العيلة من القرن الخامس الميلادي على الأقل0

وهنا يفكك الكنفاني جملة «دونكان سبايت» حين قال: «إنني أعرف لماذا لا تغرب الشمس عن الإمبراطورية البريطانية، إن الله لا يأتمن أي إنكليزي بعد حلول العتمة»، فيقول عنها الكنفاني: «كم هو صحيح هذا الوصف إذا أخذناه على محمل رمزي، بمعنى أن الظلام هو فرصة اللص للسرقة، أي أن التخلف هو فرصة الاستعماري للنهب» 0

لقد أجاد الكنفاني في نقده الساخر واللاذع، فكان في الكثير من مقالاته خفيف الدم، جارح السخرية، بارع النكتة، كاشفاً وفاضحاً ومعرّياً لفقر الدم الأدبي والفكري دون أن يمنعه ذلك من إضاءة الجوانب الأدبية الجمالية في النص، كما يقول الكاتب «محمد دكروب» 0

فقد تناول في مقالاته النقدية المذكورة تحليل وتفكيك بنية النصوص الأدبية المختلفة والمتفرقة التي تناولها بالنقد من قصة وشعر ودراسات ومقالات وغيرها 00 واستطاع بأسلوبه الساخر أن يضيء الكثير من الإخفاقات الأدبية لدى بعض من هؤلاء الأدباء دون أن يغفل الجوانب الإيجابية للنص والإشارة إليها وإلى دلالاتها، ففي استعراضه لكتاب «الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي» للدكتور يوسف خليف، أوضح الكنفاني خشيته في تصفحه للكتاب أن الكاتب سيدرسهم على أساس أنهم لصوص مخلوعون لا يكترثون بالقيم الاجتماعية المعلنة آنذاك، لكن تبين له أن الكاتب قدّم دراسة جادة ذات مستوى علمي وجهد بحوثي نادر مليء بالتحليل الاجتماعي والطبقي الذي وُلد فيه الصعلوك وعاشه، ورفض كل ما ورثناه من أخطاء في فهم ظاهرة «الصعلكة» هذه مؤكداً أن لهذه الحركة ملامحها الثورية المبكرة والرافضة للانسحاق00

ويقارن هذا بكتاب «الشعراء الفرسان» للكاتب بطرس البستاني الذي يتحدث عن الشعراء الصعاليك، والذي - والقول لغسان- لم يغص فيه الكاتب في ظاهرة «الصعلكة» بعمق الرؤية الاجتماعية والطبقية، وأن كتابه لم يستطع تجاوز حدود الكتب المدرسية أكثر مما هو بحث علمي وعميق معتمداً على ما أسماه «الرصد الخارجي» دون الدخول في تفاصيله، رغم تضمينه الكثير من الأحداث التي وقعت لهؤلاء الصعالكة وضرورة معرفتها من قبل القارئ0

يتجول الكنفاني بحنكة الناقد في ثنايا النصوص00 يعلن اعتراضه على استخدام مفردات باتت من الزمن الماضي كما في مفردة «عسس» بدلاً من «حرس»، ومفردة «أتزمل بدلاً من «ألبس» كما وردت لدى الكاتب توما الخوري00

وتُرفع له القبعة أيضاً حين يُشير إلى الأخطاء النحوية في متن بعض النصوص مثل إدخال حرف الباء على مفردة «دون» والتي تعتبر خطأً نحوياً صارخاً من غير المفروض أن يقع الكاتب في مطبه0

كل هذا وذاك، يجعلنا الكنفاني بحسه النقدي الساخر والفكاهي نتشرب وخزاته للنصوص والكتّاب معاً، ومقارنتها التي تثير فينا البسمة وإن اختلفت معه في نقده وحديّة صدامه أو تهكمه واستهزائه 00

غسان كنفاني، ثروة وكنز أدبي جدير بالاحتفاء به رمزاً للأديب والمناضل سخّر أدبه لنا بكل شفافية وتنوع، والأهم قدّم حياته ثمناً لمواقفه النضالية ودفاعه عن وطنه وشعبه0

في ذكرى استشهاده
الروائي الشهيد غسان كنفاني والسينما

موسى سعيد مراغة ـ صحفي وإعلامي ـ سورية

يعد الشهيد والأديب والسياسي غسان كنفاني واحداً من أكثر أدباء العربية، من غير المصريين، ممن اهتمت السينما بأدبهم وحولت أعمالهم الروائية إلى أفلام سينمائية، وحدث ذلك في أكثر من بلد عربي سواء في فلسطين وسوريا ومصر ولبنان وصولاً إلى الخليج العربي والسينما الإيرانية.

وعلاقة الشهيد غسان كنفاني بالسينما وخاصة السينما الفلسطينية تأخذ مستويين اثنين، أولهما علاقته الشخصية بالسينما، ودوره العملي في مجال تأسيس السينما الفلسطينية وثانيهما علاقة أدبه بالسينما، وما نهلت السينما من أعماله وحولتها إلى أفلام روائية طويلة، وروائية قصيرة، وأفلام وثائقية إضافة أن غسان كنفاني كان منتظما في قراءة النشرات السينمائية وتحليل ونقد الأفلام السينمائية، ولم يتردد في إبداء وإظهار اهتماماته السينمائية حتى بالذهاب إلى دور العرض ومتابعة بعض ما كان يعرض من أفلام في تلك الأيام.

وبنظرة أولية سردية للسجل السينمائي الذي استقى من أعمال غسان كنفاني، نذكر: فيلم «المخدوعون» للمخرج المصري توفيق صالح. والمأخوذ عن رواية «رجال في الشمس» عام 1970، فيلم « السكين» للمخرج السوري خالد حمادة.الماخوذ عن رواية (ما تبقى لكم) الفيلم الفلسطيني «عائد إلى حيفا» بتوقيع المخرج العراقي « قاسم حول» .المأخوذ عن رواية تحمل نفس العنوان والفيلم الإيراني « المتبقي» للمخرج سيف الله داد. الذي أعاد إنتاج رواية « عائد إلى حيفا» ذاتها بطريقته الخاصة.

وعلى صعيد الأفلام الروائية القصيرة، هناك فيلم« زهرة البرقوق» للمخرج ياسين البكري، وفيلم «البرتقال الحزين» المأخوذ عن قصة «أرض البرتقال الحزين» من إخراج العراقي كوركيس عواد، وفيلم « كعك على الرصيف » بتوقيع المخرج عماد بهجت.

من أشهر إنتاجات الأفلام السينمائية المأخوذة عن أدب غسان كنفاني فيلم« لمخدوعون» المأخوذ عن رواية «رجال في الشمس» التي نشرها في عام 1963، والفيلم من إنتاج المؤسسة العامة للسينما في سوريا عام 1971، ومن إخراج المصري توفيق صالح، الذي كتب له السيناريو بنفسه. والفيلم من تمثيل محمد خير حلواني عبد الرحمن آل رشي، بسام لطفي، ثناء دبسي.

ويرصد الفيلم مصير ثلاثة لاجئين فلسطينيين جمعتهم الخيبة والأمل في مستقبل أفضل، إنهم مروان، وأبو قيس وسعد، فقد حاول هؤلاء الثلاثة السفر إلى دولة الكويت بحثاً عن عمل يغنيهم عن العيش في مخيمات اللاجئين، وبسب صعوبة الحصول على تأشيرة نظامية لدخول الكويت، يقررون فعل ما فعله آلاف قبلهم ودخول البلاد بطريقة غير شرعية، حيث يقابلون سائق صهريج ماء (أبو الخيزران) تعهد بتهريبهم عن طريق إخفائهم في صهريج اعتاد أن يعبر به الحدود العراقية الكويتية. يصل الصهريج وبداخله الفلسطينيون الثلاثة إلى الحدود، ولكن الإجراءات الرسمية الروتينية من موظف كويتي متقلب المزاج. والذي ماطل كثيراً في إنجاز الأوراق اللازمة لعبور الحدود. وبسب الحرارة المرتفعة داخل الخزان، كلها ساهمت بوفاة الفلسطينيين الثلاثة داخل الصهريج.

ويقوم بعدها السائق «أبو الخيزران»

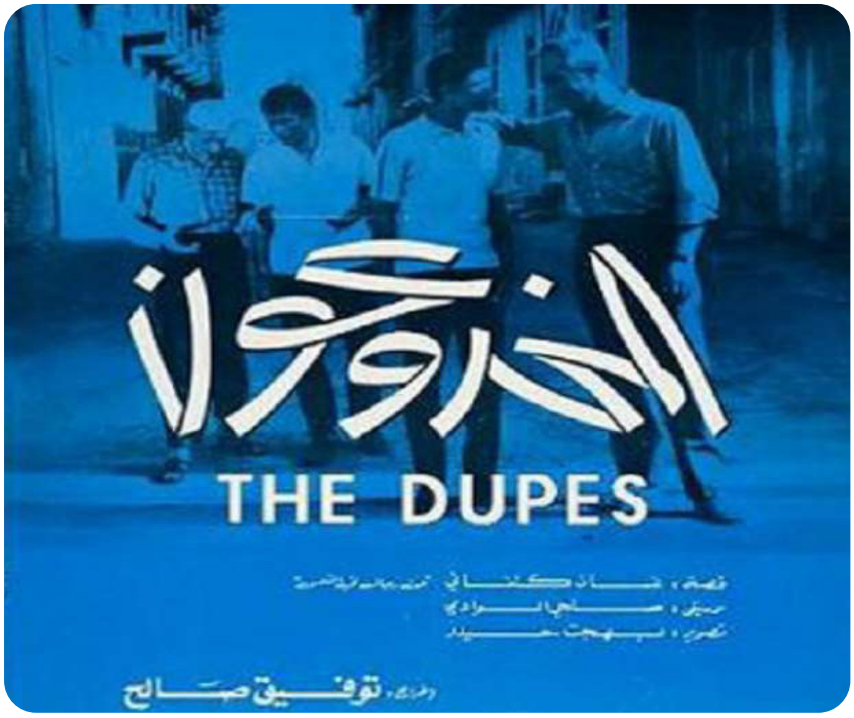

برمى جثثهم عند مقلب للقمامة وظلت جملة السائق « لماذا لم يقرعوا الخزان» تتردد في الصحراء المترامية دون إجابة.. وفي عام 1982، بادر قسم السينما في الجبهة الشعبية لإنتاج أول فيلم روائي فلسطيني، حيث أسندت المهمة للمخرج العراقي « قاسم حول » لإخراج فيلم « عائد إلى حيفا» والمأخوذ عن رواية لغسان كنفاني بنفس الاسم. وكان من تمثيل حنا الحاج علي، بول مطر، سليم موسى، والألمانية كريستينا شورن.

يعود بنا الفيلم إلى ذلك اليوم من شهر نيسان عام 1948، عندما تركت « صفيه» طفلها الرضيع « خلدون» وحيداً في المنزل، وخرجت تبحث عن زوجها « سعيد» وسط سيل هائل من البشر الذين كانوا يتدافعون بذعر وهلع يبغون النجاة، إثر قيام العصابات الصهيونية باحتلال مدينة حيفا، وعندما وجدته في ساحة الميناء، حاولت الرجوع إلى البيت لإنقاذ طفلها، ولكن القذائف والجنود البريطانيين الذين سدوا الشوارع ووقفوا حائلاً دون إتمام مهمتها جعلها تفقد الصغير ليضيع أثره ولتجهل مصيره. وبعد حوالي عشرين عاماً وبعد حرب حزيران عام 1967، سمحت قوات الاحتلال الصهيوني للعائلات التي هجّرت في عام 1948، بزيارة منازلها، فعادت العائلة إلى حيفا لتجد ابنها « خلدون» وقد أصبح اسمه «دوف» مجنداً في قوات الاحتياط الصهيونية، حيث أن عائلة يهودية استولت على البيت الذي كانت تقيم فيه عائلة صفية وسعيد وتبنت الطفل الرضيع وكان ذلك في أثناء الهجرات اليهودية التى استقدمت إلى فلسطين بعد إنشاء الكيان الصهيوني.

وأما الفيلم الإيراني« المتبقي» من إخراج سيف الله داد، وهو مقتبس عن رواية« عائد إلى حيفا» وإنتاج عام 1995 ، ومن تمثيل سلمى المصري، جيانا عيد، علاء الدين كوكش غسان مسعود وغيرهم.

الفيلم صور في سوريا، يحاول أن يعيد النظر بمصير أحداث وشخصيات الرواية، ولكن دون أن يتقيد بالأمانة لا بالنص ولا بالأحداث التاريخية فخلال احتلال القوات الصهيونية لمدينة حيفا عام 1948، تترك زوجة الدكتور سعيد طفلها الرضيع في سريره لتذهب إلى عيادة زوجها للاطمئنان عليه. يلتقي الزوجان في الطريق، ويحاولان معاً العودة إلى طفلهما الوحيد في البيت لكن الرصاص الصهيوني يصيبهما فيستشهدان تحت شرفة منزلهما، تستولي عائلة يهودية مهاجرة على المنزل، وتتبنى الطفل الرضيع لكن جدته التي تحضر من غزة، تستطيع إيجاد عمل لها عند العائلة اليهودية كمربية للطفل، بعدئذ وبالتعاون مع المقاومة الفلسطينية تكلفها بوضع حقيبة متفجرات في قطار عسكري ينقل الجنود الصهاينة، تتمكن الجدة من وضع حقيبة المتفجرات في القطار وإنقاذ الطفل في اللحظات الأخيرة قبل أن ينفجر القطار وتستشهد الجدة ويتعالى صراخ الطفل الرضيع مبشراً بالأمل الفلسطيني القادم ،

كذلك انتجت المؤسسة العامة للسينما في سوريا فيلماً حمل عنوان « السكين» عام 1971، من إخراج «خالد حمادة» عن رواية غسان كنفاني « ما تبقى لكم» ومن تمثيل سهير المرشدي، رفيق سبيعي، وبسام لطفي. وتعكس قصة الفيلم جانباً من مأساة الشعب الفلسطيني من خلال ثلاث شخصيات أساسيه(حامد، مريم، زكريا) ومن إنتاج مؤسسة السينما والمسرح في العراق عام 1973، و فيلم « زهرة البرقوق» عن رواية كنفاني « برقوق نيسان » بتوقيع المخرج ياسين البكري. ويبرز الفيلم قدرة الفلسطيني على المقاومة رغم كل النكسات والنكبات التي حلت بالشعب الفلسطيني وأن المقاومة والثورة هي الطريق للتحرير والعودة.

ومن إنتاج مؤسسة السينما في العراق، كان فيلم « وصية أم سعد » المأخوذ عن رواية (أم سعد) والفيلم الروائي القصير« البرتقال الحزين» من إخراج كوركيس يوسف في العام 1969، الفيلم مأخوذ عن قصة كنفاني « أرض البرتقال الحزين» ويتناول حياة مأساة عائلة فلسطينية هجّرت من فلسطين وعاشت حياة البؤس والتشرد في المخيمات، ولكن الحنين للأرض والأمل بالعودة ظلت تعيش في دواخلهم.

لقد كان الشهيد كنفاني متحمساً جداً للسينما، وساهم بشكل فعال في تأسيس قسم للسينما في الجبهة الشعبية والذي تم رفده بالمعدات الفنية اللازمة، ناهيك عن استقطاب جهود كثيرين من السينمائيين الفلسطينيين والعرب والأصدقاء والذين كانوا متحمسين للسينما الفلسطينية النضالية.

ولأن الكلمة عنده كان لها فعل الرصاصة، ولأن الجملة كانت لديه لها فعل الإضاءة في الفكر والروح، اتخذ طريق الأدب الروائي للنضال وحمل هموم شعبه على عاتقه باحثاً في الفكر والسياسة نسج شخوص رواياته من بين جموع الشعب المناضل والمدافع عن قضيته وسلك طريقاً في مخاطبة الفكر الإنساني فكانت له البصمات الواضحة في هذا المجال. ولما رأى دهاقنة الاستخبارات الصهيونية الخطر الذي يشكله غسان كنفاني في الصراع العربي الصهيوني لم يتأخروا في البحث عن طريقة لإطفاء هذه الشعلة المتقدة. واستطاعوا عبر عملائهم الوصول إلى عربته التي كان يستقلها كل يوم إلى مركز الإشعاع الذي أسسه واتخذ منه الانطلاق في مجلة الهدف. وفي صبيحة الثامن من شهر تموز من عام 1972، وعندما كان يدير محرك سيارته وبرفقة ابنة أخته انفجرت عبوة ناسفة بالجسدين الطاهرين ليلتحقا بركب الشهداء الذين مضوا. ولتخسر القضية الفلسطينية والأدب الإنساني أحد أعلامها المضيئة على طريق النضال مع عدو غاصب حاول إطفاء جذوة النضال في نفوس المناضلين وعلى كل الجبهات في الفكر والسياسة والأدب وساحات القتال. ولكن أدب غسان كنفاني لازال يعيش في فكر وقلوب الشعب الفلسطيني، وحكاياته لا تزال تتداولها الألسن طوال كل تلك السنين.

أدب الطفولة عند غسان كنفاني

وفاء حميد ـ صحفية فلسطينية ـ سورية

في الثامن من تموز 1972 تحول جسد غسان كنفاني إلى أشلاء مترامية، مزجت مع ابنة أخته المحببة إلى قلبه، بفعل الكيان عندما أراد أن ينهي هذه الأيقونة فزرع عبوة ناسفة في سيارته لتكون نهاية عبقري سخر قلمه وفكره ومشاعره للوطن...وكتب عن الأدب المقاوم في مواجهة الأدب الصهيوني... لينير فكراً أعده للأجيال القادمة...

فقد عبر غسان عن الأدب الفلسطيني بـ "أدب المقاومة" لأن هذا الأدب يقوم ضد جميع أسباب القمع، ويشجع على الوقوف في وجه الاحتلال، ويحرض على الثورة، والمشي في سبيل الحرية رغم أن الطريق شائكة. وهذا المصطلح الخاص لم يقتصر على أدب غسان كنفاني على المقاومة فقد كان للطفل حيز كبير من كتاباته فهو يخاطب الأطفال الذين عاشوا في أجواء المأساة والمقاومة وما حل بوطنهم، غسان ابن العاشرة الذي هجر من بلاده وشرد ما ترك أثراً كبيراً في نفسه، فقد كبر قبل أوانه كباقي أطفال فلسطين الذين لم يعرفوا للطفولة طعماً، فهم رجال صغار مقاومون، والمعاناة تبدأ معهم منذ أن تفتحت عيونهم على ضوء الحياة، يحملون المسؤولية فوق كاهلهم، فقد كانت أسرته تسكن في حي يدعى حي المنشية، وكان هذا الحي ملاصقاً لتل أبيب. وشهد هذا الحي أول الاشتباكات والصراعات التي حدثت بين العرب والصهاينة على إثر قرار تقسيم فلسطين مما اضطر الأب إلى مغادرته هو وعائلته إلى مدينة عكا.

وقد ظلت العائلة في هذه المدينة سنة واحدة ما بين 1947م وحتى 1948م إلى أن حدثت واقعة هجوم الصهاينة الأول على مدينة عكا مما اضطر الأهالي والأسر إلى المغادرة إلى خارج المدينة وظلوا على تل نابليون في حين ذهب الرجال والمناضلون للدفاع عن أرضهم والمجابهة.

فنجد الأطفال في أعماله الأدبية يظهرون كشخصيات رئيسة، حيث يعبر عن معاناتهم وأحلامهم وآمالهم في ظل الظروف القاسية التي يعيشونها، فيراهم يمثلون الأمل والمستقبل، وأنهم ضحايا الحرب والصراع، وأنهم يحملون في داخلهم نقاء واندفاعاً جميلاً نحو الحياة فهم يستحقون الحياة والعيش بأمان.

فكتب مجموعة قصص للأطفال، أبرزها «القنديل الصغير». بالإضافة إلى مجموعات قصصية مثل «أطفال غسان كنفاني والتي تتضمن قصصاً قصيرة أخرى تدور أحداثها حول الأطفال ومعاناتهم. فحكاية القنديل الصغير تروي قصة ملك يطلب من ابنته الصغيرة أن تحمل الشمس إلى داخل المملكة لتصبح ملكة قادرة على إدارة البلاد وهنا للشمس رمز عند غسان الأمل والتصميم في مواجهة التحديات. وتبدأ الفتاة بالمغامرة والتفكير بحل اللغز فتصعد إلى جبلٍ عالٍ لمحاولة حمل الشمس إلى القصر، فتدرك أنها لا تستطيع الوصول لها لأنها أبعد مما ظنت، وتبوء محاولتها بالفشل .

وعندما تفشل يحفز هنا الأطفال على الاعتماد على الذات وإيجاد الحلول وعدم اليأس وأن الحل موجود، بأن تستعين الفتاة بحكيم القصر ليساعدها في حل هذا اللغز الصعب، فيرفض ذلك بحجة أن عليها إيجاد الحل للوصية وحدها، فتحاول طلب المساعدة من الناس فيتهمونها بالجنون، ولا أحد استطاع مساعدتها في تجاوز الهزيمة وتجديد الأمل. كان لحل وصية الملك مؤقت، وهو الشمعة التي كان قد أشعلها الحكيم بعد وفاة الملك، فكان على الفتاة حل اللغز قبل أن تنتهي الشمعة كي تتوج وتصبح ملكة البلاد، وإلا فستعاقب على عدم حل الوصية بأن تبقى في قفصٍ خشبي صغير. وتتعرض الطفلة خلال رحلتها إلى خيبات أمل كثيرة، فتشعر بالاكتئاب فتدخل إلى غرفتها وتشرع في البكاء، في الوقت ذاته الذي كانت تتلقى فيه رسالة حكيمة تلقى لها من تحت باب غرفتها، فتقرؤها لتشعر بتحسن، وتستعيد طاقاتها التي ظنت أنها فقدتها، وتجدد أملها لحل وصية الملك. فيأتي ذات ليلة عجوز كبير يحمل قنديلاً إلى القصر، يطلب مقابلة الفتاة فيرفض حراس القصر إدخاله،

فيقول لهم: «إذا لم يكن بوسع عجوز أن يدخل إلى قصرها فكيف تطمع أن تدخل الشمس إليه؟» وهنا يكون العجوز دلالة على توضيح الرؤية للطفلة وإدراك وتفتح الوعي للنظر إلى ما هو وراء السور فكانت كلماته قد أوقدت فكر الطفلة وعرفت كيف تحل اللغز .

فتطلب الفتاة أن يحضر كل رجل يحمل قنديلاً صغيراً إلى قصرها كي تعثر على ذلك العجوز، ولكثرة الجموع التي قدمت إلى القصر لم يستطيعوا الدخول بقناديلهم إلى القصر لأنه محاط بالأسوار وبواباته. تفكر الفتاة وتأمر بهدم أسوار القصر؛ وهي خروج الأطفال من سجنهم الضيق وتكسير كل العوائق التي تقف في وجوههم، وبعد أن دخلوا، قال العجوز: «الآن فقط دخلت الشمس إلى القصر» فتلاحظ الفتاة بأنه بالفعل قد دخلت الشمس للقصر بعد هدم الأسوار ودخول تلك القناديل للقصر، فتفهم المراد من وصية والدها، وهي الوحدة والتكاتف من أجل هدف نبيل.

قصص غسان كنفاني حتى عن الطفولة تعطي بريقاً آخر ليفهم الأطفال أن حياتهم تحتاج إلى تحدٍ وعدم الوقوف عند أي عائق، فهو يجدد فيهم الأمل، فالشمس عنده تقحم للصعوبات وكسر الأسوار بالتحام الجماعة لتحقيق الوصول، فلسطين بحاجة إلى تضافر القوة والوعي لأن أطفال فلسطين يبنون منذ نعومة أظافرهم على حب الوطن ومسؤولية النضال. فلسطين تستحق منا كل غال ونفيس.

تحقيق الهدف

غسان كنفاني:

لماذا لا يزال خالدًا في الوجدان الفلسطيني والعربي؟

وسيم السلطي ـ كاتب من فلسطين

غسان كنفاني، الأديب والصحفي الفلسطيني الذي استُشهد في بيروت عام 1972، لا يزال رمزًا ثقافيًا وسياسيًا يتردد صداه في الأوساط الأدبية والشعبية على حد سواء. رواياته مثل «رجال في الشمس»، «عائد إلى حيفا»، و«ما تبقى لكم»، إلى جانب قصصه القصيرة مثل «أرض البرتقال الحزين»، لم تكن مجرد أعمال أدبية، بل وثائق إنسانية وسياسية جسّدت معاناة الشعب الفلسطيني وصموده. بعد أكثر من خمسين عامًا على رحيله، ما الذي يجعل كنفاني حاضرًا بهذه القوة؟ هل يعود ذلك إلى غياب شخصيات أدبية بوزنه، أم أن هناك أسبابًا أخرى تجعل إرثه خالدًا؟ للإجابة، التقت «الهدف» بست شخصيات من خلفيات متنوعة لاستطلاع آرائهم حول أهمية كنفاني واستمرار تأثيره.

1. الشاب خليل محمود - طالب دراسات أدب عربي من العراق

السؤال: لماذا بقي غسان كنفاني حاضرًا بكثافة، أدبياً وثقافياً، على الساحة العربية حتى الآن؟

«غسان كنفاني لم يكن مجرد كاتب، بل كان صوتًا للضمير الفلسطيني. أعماله ليست قصصًا عابرة، بل مرايا تعكس تجربة اللجوء والتشرد والمقاومة. في «رجال في الشمس»، استخدم رمزية الخزان ليصور كيف يُخنق الفلسطينيون أمام صمت العالم.

وفي رأيي، لا يمكن بسهولة أن يظهر كاتب آخر بوزنه لأن تجربته كانت فريدة، فقد عاش النكبة، تجربة اللجوء، وكان جزءًا من المقاومة. لكن الأهم هو أن قضية فلسطين لا تزال حية، وبالتالي تبقى كتاباته ملائمة لكل جيل يعيش الصراع أو يتضامن معه. إرثه ليس فقط أدبيًا، بل هو وثيقة حية للنضال.»

2. الأستاذ أحمد قاسم - كاتب وناشط مصري

السؤال: هل يعود استمرار ذكرى كنفاني إلى غياب شخصيات أخرى بقوته الأدبية؟

«لا أعتقد أن الأمر يتعلق فقط بغياب شخصيات أخرى. هناك كتاب فلسطينيون وعرب مميزون، لكن كنفاني كان مزيجًا نادرًا من الأديب والمناضل. كتاباته دعوة للتفكير والعمل. في «ما تبقى لكم»، يطرح قضايا الهوية والأرض بطريقة تجبرك على إعادة تقييم موقفك من القضية. حضوره مستمر لأن القضية الفلسطينية لم تحل، وكل جيل يجد في كتاباته انعكاسًا لواقعه. بالإضافة إلى ذلك، أسلوبه السردي الذي يمزج الواقعية بالرمزية يجعل أعماله عابرة للزمن. لا يمكن اختزال تأثيره في غياب كتاب آخرين، بل في قدرته على التحدث إلى الإنسانية جمعاء».

3. الشابة هديل محسن - طالبة جامعية وهاوية قراءة من فلسطين

السؤال: كيف ترين تأثير كنفاني على جيلك؟

«أنا من جيل الشباب، ومع ذلك أشعر أن كتابات كنفاني تتحدث إليّ مباشرة. قرأت «عائد إلى حيفا» في الجامعة، وكانت تجربة مؤثرة جدًا. قصته عن عائلة تعود إلى بيتها المسلوب جعلتني أفكر في جدي وجدتي اللذين طُردا من قريتهما عام 1948. كنفاني يجعلك تشعر بالقضية كتجربة إنسانية، وليس فقط كشعارات سياسية. أعتقد أن الناس يتذكرونه لأنه يحول القضية إلى قصص شخصية تلمس

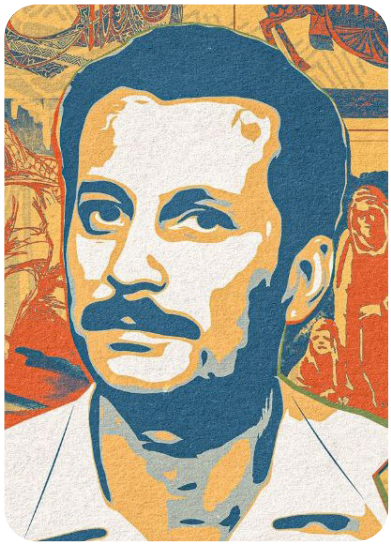

القلب. ليس الأمر غياب كتاب آخرين، بل طريقته في الكتابة تجعلك تعيش القصة وكأنها تخصك. كتبه جسر بين الأجيال، وهذا ما يجعله خالدًا».

4. الأستاذ محمود الخطيب - ناقد وصحفي سوري

السؤال: هل هناك أسباب أخرى وراء استمرار إرث كنفاني؟

«هناك أسباب متعددة تجعل كنفاني رمزًا لا يُنسى. أولاً، كان رائدًا في استخدام الأدب كأداة سياسية دون أن يفقد الجمالية الأدبية. أسلوبه يجمع بين الواقعية والرمزية بطريقة تجعل أعماله خالدة. ثانيًا، استشهاده في ريعان شبابه جعله رمزًا للتضحية، مما أضاف بُعدًا أسطوريًا لشخصيته. ثالثًا، ترجمة أعماله إلى لغات عديدة جعلته سفيرًا للقضية الفلسطينية عالميًا. رابعًا، كتاباته ليست محلية فقط، بل تتناول قضايا إنسانية عالمية مثل العدالة والحرية. لا أعتقد أن غياب شخصيات أخرى هو السبب الرئيسي، بل قوة أدبه وقربه من الناس هو ما يبقيه حيًا. من يقرأ كنفاني يجد فيه شيئًا يتعلق به، سواء كان فلسطينيًا أو مدافعًا عن العدالة.»

5. الشاب خالد السعدي - كاتب فلسطيني

السؤال: لماذا لا يزال الناس يشترون كتب كنفاني؟

«أظن أن الناس يشترون كتبه لأنها ليست مجرد قصص، بل تاريخنا وهويتنا. الشباب يجدون فيها إجابات عن أسئلتهم حول النكبة واللجوء، والأجانب يقرؤونها ليفهموا القضية الفلسطينية. كنفاني يروي قصصًا تجعلك تشعر بألم الشخصيات وكأنك تعيش معهم. لا أعتقد أن الأمر يتعلق بغياب كتاب آخرين، فهناك أدباء رائعون، لكن كنفاني مختلف لأنه كتب من القلب وللقلب. كتبه مثل جسر يربط الأجيال بالقضية، وهذا ما يجعلها مطلوبة دائمًا.»

6. السيدة آمال حسين – عاملة في مجال الفنون البصرية من فلسطين

السؤال: كيف أثر كنفاني على الفنون البصرية والثقافة المعاصرة؟

«غسان كنفاني لم يؤثر فقط على الأدب، بل ترك بصمة كبيرة على الفنون البصرية، بما فيها السينما والمسرح. العديد من أعماله، مثل «رجال في الشمس» و«عائد إلى حيفا»، تم اقتباسها في أفلام ومسرحيات لأنها تحمل قصصًا بصرية قوية. كعاملة في مجال الفنون البصرية، أجد في كتاباته إلهامًا لرواية القصص المرئية التي تجمع بين الحقيقة والرمزية. على سبيل المثال، فكرة العودة في «عائد إلى حيفا» ليست مجرد قصة عائلة، بل هي استعارة للشتات الفلسطيني بأكمله. استمرار تأثيره يعود إلى قدرته على تقديم قصص متعددة الأبعاد يمكن تفسيرها بطرق مختلفة. ليس الأمر غياب مبدعين آخرين، بل أن كنفاني قدم لغة أدبية وسياسية لا تزال تلهم الفنانين عبر الوسائط المختلفة. إرثه يعيش في كل عمل فني يحمل روح المقاومة».

من خلال هذه الآراء، يتضح أن استمرار حضور غسان كنفاني لا يقتصر على غياب شخصيات أدبية بوزنه، بل يعود إلى قوة أدبه الذي يجمع بين العمق الإنساني والرمزية السياسية. أعماله، التي تتناول قضية فلسطين من منظور إنساني وعالمي، لا تزال تلقى صدى لأنها تعبر عن تجربة مستمرة لم تجد حلًا بعد. إضافة إلى ذلك، دوره كناشط واستشهاده في سبيل القضية جعلا منه رمزًا للتضحية، بينما ترجمة أعماله وتأثيرها على الفنون الأخرى وسّعت دائرة تأثيره عالميًا. كنفاني ليس مجرد أديب، بل صوت شعب، وثيقة حية للنضال، وجسر يربط الأجيال بالقضية الفلسطينية. إرثه سيبقى خالدًا طالما بقيت القضية حية في القلوب والعقول.

كأس الروح

محمود علي السعيد
شاعر من فلسطين ـ سورية

ماذا بمقدور المرء أن يقول أو يُصرح؟ في حضرة قامة فلسطينية باسقة؛ وفارس استثنائي؛ من فرسان الكلمة؛ ومبدع خلّاق؛ قلما يجود بمثله الزمن بحجم غسان كنفاني:

ألقى لكأسِ الروح صنارةَ المطلقْ
فاستيقظَ التفاح وتألقَ الزنبقْ
زفّي رماحَ الليل للعاشقِ الأسبق
يا رنةَ الإزميل المجدُ للأزرقْ
عيناكَ أطلقتا والقلبُ قد أطلقْ
يُهدي إلى الأمواج قبلاتهِ الزورقْ
أبرقتَ للنجمات ليلُ الهوى أبرقْ
الجرحُ رمزُ الرقص في نزفهِ أورقْ
تبكي بلا أمطار في مشهدٍ يُحرقْ
يا بسمةَ عبقتْ من وردةٍ تغرقْ
أسلمتَ ثوبَ العيش فتوهجَ البيرقْ
يروي لقرصِ الشمس أسطورةَ اللقلقْ

أدب الشتات المقاوم
أم سعد علمتنا كيف يجترح المنفى مفرداته

إعداد: محمود أبوحامد ـ كاتب فلسطيني ـ سورية

غسان كنفاني: أتعرفين ما هو الوطن يا صفية ؟ الوطن هو ألا يحدث ذلك كله.

محمود درويش: المسعى الأهم لكنفاني هو ذلك المتمثل في ترسيخ أسس ولادة الفلسطيني الجديد..

اكتملت رؤياك، ولن يكتمل جسدك. تبقى شظايا منه ضائعة في الريح، وعلى سطوح منازل الجيران، وفي ملفات التحقيق. ليست أشلاؤك قطعاً من اللحم المتطاير المحترق. هي عكا، وحيفا، والقدس، وطبريا، ويافا. طوبى للجسد الذي يتناثر مدناً».. هكذا رثى الشاعر الراحل محمود درويش صديقه غسان كنفاني الذي تم اغتاله على أيدي الموساد في العاصمة اللبنانية بيروت.

أشلاء رجل في الـ36 من عمره، متناثرة على الأشجار، وجثة متفحمة لطفلة تبعد 20 متراً عن سيارة انفجرت للتو.. هذا كان المشهد الأخير من حياة الأديب والمناضل الفلسطيني غسان كنفاني، الذي اغتيل من قبل الموساد الإسرائيلي في 8 يوليو 1972 بانفجار سيارة مفخخة في العاصمة اللبنانية بيروت، وقد كانت برفقته ابنة أخته «لميس».

ورغم أن إسرائيل لم تقدم اعترافاً رسمياً بتنفيذ عملية الاغتيال تلك، فإن جميع أصابع الاتهام تتجه نحوها، وفي مكان الانفجار عثر المحققون على قصاصة ورق عليها شعار إسرائيل، نجمة داود السداسية، وكتب عليها " مع تحيات سفارة إسرائيل في كوبنهاجن"، واذا

كانت اسرائيل رسميا قد التزمت الصمت فيما احتفلت صحافتها بموت «إرهابي كبير « على حد تعبيرها، فإن شخصية القتيل ووقائع القتل لا تترك مجالاً للشك في هوية القتلة.

اغتيال وطن

مما قاله غسان كنفاني على لسان شخصية سعيد في رواية «عائد الى حيفا»: أتعرفين ما هو الوطن يا صفية ؟ الوطن هو ألا يحدث ذلك كله.

كيف يقنعنا الزمن، بكل عقوده وقرونه وسنواته التي قدّمها أدلة ووثائق ومستندات، بأن الوطن مات مرة بالاحتلال، وأخرى بالاغتيال، فصار علينا أن نصدّق أن صاحب «السرير رقم 12» قد مات فعلًا.

ولئن صدّقنا، فإن الصدمة ذات فصول أخرى؛ لأن علينا، بعد ذلك، أن نصدّق أن إسرائيل هي من اغتالت غسّان كنفاني عام 1972. وهنا علينا أن نتأنّى طويلًا قبل أن يحملنا الغباء على التصديق، وإلا فإن أول من سيهزأ بعقولنا هو غسّان ذاته، وقد نحتاج إلى أزيد من 1967

عامًا لكشف القاتل الحقيقي، إذا لم نتتبع دليل الإدانة الذي رسمه غسّان في مسارات قصصه وروياته ومصائر أبطالها ليدلّنا عليه.

ربما أراده لغزًا من ألغازه التي لا يتقن الإجابة عنها سوى المفتونين ببرتقال حيفا على غراره، غير أن غسّان لم يترك محضر التحقيق مفتوحًا، عبثًا، في رواية «الشيء الآخر»، لأنه كان يريد منا أن نبحث عن ذلك «الشيء الآخر» المجهول، المتواري، لكن المحرّك فرق الاغتيال. ومن ثم إذا عرفنا من قتل ليلى الحايك في الرواية، سنعرف من قتل غسّان كنفاني على أرض الواقع.

صحيحٌ أن أضلاع مسدس الاغتيال لا تكتمل بغير ضلع «الموساد»؛ لأننا نعرف أن إسرائيل التي تسبقنا بخطوةٍ دائمًا، درجت على تبنّي نهج «الأمن الوقائي» ليبقى ميزانها العسكريّ متفوقًا على «جيرانها» كما تسميهم. ولكن ما لم نكن نعرفه أن دائرة «الأمن الوقائي» الإسرائيلية كانت تشمل المثقفين، أيضًا، فجاء غسان فاتحة أولى، ثم تلته أسماء أخرى، وصولًا إلى ناجي العلي. فما الذي جمع بين هؤلاء وخشيته إسرائيل؟ علمًا أن الإجابة هي الخيط الذي يقود إلى «الشيء الآخر»، أو القاتل «الآخر» إن شئنا الدقة، كما شاءها غسّان.

النهايات المفتوحة

ربّ قائل إن غسّان كنفاني مولعٌ بالنهايات المفتوحة. ولذا لن يفلح محقق، مهما بلغ ذكاؤه، في كشف القاتل. وهي وجهة نظر لافتة، غير أن من يقرأه كاملًا غير مجزوء، سيعرف أن خواتيمه متحرّكة من عمل إلى آخر، في صعودٍ دراميّ مثير، فرجال

الشمس الذين لم يطرقوا جدران الخزّان طرقوه فعلًا بعد ذلك، والحلم الذي لم يكتمل بوصولهم إلى الكويت، أو «بلد الثروات» الذي كان في أذهانهم، وصل إليه حفيدهم سعد الدين، حين سافر إلى «بلد اللؤلؤ»، غير أن الحلم تضاءل ثانيةً ليصبح رهانًا على لؤلؤةٍ في جوف محارةٍ على رصيفٍ مبلول، وليموت صاحب الحلم في جوف المحارة، كما مات أسلافه في جوف صهريج .. وفي الحالين، كان الميّت الحقيقي هو حلم الفلسطيني خارج وطنه، وأيّ عيش سواه لن يكون إلا بمصادفةٍ تشبه الصّدَفة.

ذلك هو الشطر الأول من ركني الجريمة: «الميّت الحقيقي». كان غسّان يريد أن يقول إن موت الفلسطيني لا يكون إلا بموت حلمه، وبأن أي حلم لا يلامس فضاء الوطن هو محض محارة أو صهريج.

أما الشطر الثاني أو «القاتل الحقيقي»، فهو كل من يتواطأ على هذا الحلم، وفي مقدّمتهم فلسطينيون فقدوا فحولتهم الوطنية، كأبي الخيزران وغيره، وعرب شاركوا بقيادة الصهريج (التابوت) وسمعوا قرع الخزّان ولم يستجيبوا، وطاردوا الحالم بالعصيّ والهراوات والسجون والحصار والحدود، وعقدوا تحالفا

عضويًّا مع «الجار الجديد»، لأنهم رأوا في هذا الحالم «ألوية فكرية مسلحة»، على غرار ما رأته غولدا مائير في غسّان. كان تحالفًا مشتركًا ضدّ حلم عظيم حمله شعب مهجّر إلى أبعد محارات الأرض، وفي القتل تبادل أدوار؛ لأن المصلحة مشتركة، ولا فرق بين الموساد وأجهزة اغتيال عربية، وما تخشاه إسرائيل هو عين ما تخشاه أنظمة عربية.

هل بعد كل هذه الأدلة الدامغة، ما زلنا نصدّق أن إسرائيل هي من اغتالت غسّان كنفاني، أم علينا بدء تحرّياتنا الفعليّة عن القاتل الحقيقي أو ذاك «الشيء الآخر»؟ وقبل هذا وذاك: أتُرانا صدّقنا أن غسّان كنفاني قد مات؟.. ما أكذب الزمن!

إشكالية الشتات

يمكن القول بأن الأدب الفلسطيني بدأ يتلمس إشكالية الشّتات منذ اللحظة التي اصطدم فيها وعي الإنسان الفلسطيني بالنكبة، التي تطلبت منه اختبار فعل الارتحال الذي كان في طابعه جمعيا، فجاءت روايات الكتابة الأولى للأسلاف أو آباء الرواية الفلسطينية، معبرة عن لحظة الشّتات بتكوينه الخام والمبدئي، إذ لم يتكون الإدراك بأن هذه التجربة قد تمتد في الزمان

والمكان، إنما كان ينظر لها على أنها مؤقتة، أو طارئة يمكن أن تجهض، وأن تنتهي في يوم ما عبر الفعل والإرادة، أي أنه ثمة أمل ما بأن هذا الحدث لن يكون جزءاً من قدر محتوم .

ولعل هذا يظهر من خلال الاشتغال النصي الذي كان بعيدا عن فعل التأمل للأثر على المستوى البعيد، ولا سيما من حيث إشكالياته في السياقات ما بعد الكولونياليّة ضمن مستوى الهوية، واللغة، والتنازع الوجودي، باستثناء فقط تقديم مبدأ المقاومة على غير ذلك من المستويات، وإن امتثلت تلك الأعمال لبعض القضايا الأقل جوهرية، غير أن هذا لا يمنعنا من التسليم بأن التكوين الخطابي السردي بدا متنافرا مع الأعمال اللاحقة التي نتجت بعد سنوات أو عقود من تحقق النكبة، وتتمثل بتولد

قناعات بأن العودة باتت صعبة، ولا سيما في ظل تراجع المشروع التحرري الوطني القائم على المقاومة، واستبداله بنهج السلام الذي أتاح عودة قطاعات محدودة من القيادات، في حين أن معظم الشعب الفلسطيني ما زال قابعا في المخيمات يراقب تفكك الثوابت الوطنية القائمة على حق العودة، والقدس نتيجة مغامرة اتفاقية أوسلو.

الأمكنة البديلة

لاشك في أن هذه السياقات شرعت تلقي ظلالها على الإنشاء السردي، والأيديولوجي للرواية الفلسطينية المعاصرة، وبالتحديد من حيث البدء في قراءة العلاقة بين الإنسان المشتت والأمكنة البديلة، غير أن الكتابات الأولى، ولا سيما روايات غسان كنفاني تمحورت حول الخروج بما ينطوي عليه من ألم ومأساة، فغسان كنفاني بوصفه كاتباً مهجّراً، وقع على بعض تلك الملامح لأزمة الارتحال، بوصفها حالة تنمّ عن الاقتلاع المفاجئ واليائس، فاستطاع أن يقيم وضعية مضادة للشتات عبر محاولة خلق تمثيلات إنشائية معاكسة تتصل برفض هذا الناتج، مع الاستناد إلى خطابات المقاومة التي تعلي من شأن النضال، على عكس الكتابات التي نشأت بعد أوسلو، ومن أهم ما يميزها – على مستوى الثيمات والتوجهات -هذا الشروع نحو البحث

عن قيم الاندماج والتكيف، في حين أن روايات غسان كنفاني تناقض هذا النهج، ومن ذلك رواية « أم سعد»، ولاسيّما عبر شخصية« أم سعد »التي تتخذ من المخيم فضاء لرؤية الشتات، حيث نرى من خلالها معاني اللجوء مجسدة .ففي مفتتح الرّواية تحضر أم سعد معها« عرق دالية» كي تزرعه في المخيم .هذا النهج السّردي الرمزي يحيل إلى تقويض إشكالية الاقتلاع، إذ تبقى قيمة العودة للوطن حاضرة، بوصفها أملا قريب التحقق، فأمل العودة يبدو معقولا، أو أنه ما زال قائما في الوعي القريب، وهكذا نجد أن عين الروائي تبقى موجهة نحو المقاومة، والاحتفاء بها، ويتجلى هذا في توصيف الأفراد الذين يرتدون الكاكي المدججين بالسلاح، ما يعد نوعا من نفي الإهانة، والفقر نتيجة الخروج من فلسطين .ولعل عبارة« أبي سعد »تختزل هذا المنظور حيث يقول« :البارودة مثل الحصبة،

تعدي»، في حين أن خيمة الفدائي تختلف عن خيمة اللاجئ، والمستسلم، وهنا نستحضر مقولة أم سعد« خيمة عن خيمة تفرق»، وهي تعني خيمة ابنها الفدائي الذي تتوق للذهاب معه للنضال.

عين الروائي تبقى موجهة نحو المقاومة، والاحتفاء بها، ويتجلى هذا في توصيف الأفراد الذين يرتدون الكاكي المدججين بالسلاح، ما يعد نوعاً من نفي الإهانة، والفقر نتيجة الخروج من فلسط ين.

المخيم سجن كبير

إن المخيم من منظور« أم سعد »لا شيء سوى حبس، فكل شيء خارج فلسطين يغدو سجنا كبيرا، ولا سيّما إذا كان يعني الاستسلام، فالشّتات لم يكن سوى تجسيد متحقق لفقدان الحرية، والتسليم بالهزيمة، وهنا نكتنه مفهوماً معقداً لمعنى الشّتات، فالكثير من المشتتين سوف يستشعرون

هذا الإحساس الذي التقطه غسان كنفاني، ولكن من دون البحث في تداعيات الشّتات على الشخصية الفلسطينيّة، في سياقها المعاصر الذي غدا أكثر تعقيدا، وتحديدا بعد مرور أكثر من سبعة عقود .لقد طرأ تحول على هذا المفهوم، حيث شرع النهج الواقعي في إدراك أن ثمة حاجة للنظر إلى التصالح مع الأوطان الجديدة، مع التأكيد في الأدبيات الفلسطينية على عدم التنازل عن حق العودة، وهذا ما نرصده في روايات الأجيال

الجديدة التي تكتب عن فلسطين بوصفها مكانا يُزار عبر جواز سفر غربي، مع توقير وطن الشتات، ولا سيما إذا كان بلدا غربيا يحترم حقوق الإنسان، وينطوي على قدر من الرفاه على عكس المخيمات، وبهذا فإن ثمة منظورا ثنائيا، هو نوع من الاستقرار لهذا النهج، في حين أن الفلسطينيين المهجرين في المخيمات داخل رقعة العالم العربي ينتهجون نهج نبذ الأوطان البديلة، والتعلق بحلم العودة .

في أحد الحوارات السردية لكنفاني نقرأ مستوى من التعبير اللفظي المعني بمقاومة الشّتات، وأمل العودة، فهنالك لغة جديدة وحالة اصطلاحية يتطلبها الشّتات؛ ولهذا نجد مفردة» سيرجع «بديلا عن «سيذهب»، فالمنفى يعيد تشكل اللغة، ووعينا بمعنى أن نكون في

الطارئ، ونتوق للعودة« :ولاحظت بنفسي .كيف قالت إنه» سيرجع «ولم تقل أنه «سيذهب «ولكنني لم أفكر كثيراً، كانت أم سعد قد علمتني طويلا كيف يجترح المنفى مفرداته، كيف ينزلها في حياته كما تنزل شيفرة المحراث في الأرض.» لا ريب في أن» أم سعد «ما زالت ترفض المخيم، واللجوء، وترغب في العودة إلى حيث ذهب ابنها سعد؛ أي إلى فلسطين كي تتخلص من هذا الوحل الذي علقت فيه، ومع أن مفردة « الوحل «تعبر عن معاناة »أم سعد «في حياتها اليومية بوصفها خطابا دنيويا، ولاسيّما عند سقوط المطر، غير أنها تحتفي بدلالة واضحة تنهض على تجسيد حياة الفلسطيني في الشّتات، عبر نبذه، وإلصاق متتاليات من التمثيلات السلبية تجاهه، غير أن هذا يبدو ـ في الوعي – أقرب إلى المنظور القريب، أي المتوقع انتهاؤه، كما يتضح عبر قراءة أسلوبية مركزية، تنهض على قوة الأمل

بالعودة التي تتكرر في أكثر من موقع من روايات غسان كنفاني .وهذا يحضر بموازاة الرغبة في التدوين، وكتابة المعاناة، وتجسيدها لتكون مروية؛ ولهذا تطلب أم سعد تدوين ما تشعر به، وما تحسه .وفي السياق عينه نتلمس ذلك الإحساس الجمعي بالمعاناة والتضامن والتعاطف، وهو أحد أهم مميزات وملامح خطاب الشّتات سرديا انطلاقا من مفاهيم الخطاب ما بعد الكولونيالي .

«ماذا أقول يا ابن عمي؟ في الليل أحسست بأنني قريبة من النهاية ...ما النفع؟ أريد أن أعيش حتى أراها .لا أريد أن أموت هنا، في الوحل ووسخ المطابخ ..هل تفهم ذلك يا ابن عمي؟ أنت تعرف كيف تكتب الأشياء، أنا لم أذهب إلى مدرسة في عمري، ولكننا نحس مثل بعضنا، يا ربي.»

ومما يعدّ مستوى متقدما من رصد حالة الشّتات في كتابة الأسلاف، ما ينتج من تنازع بين مفهوم هوية طارئة على المكان المضيف، ذلك الحامل لهوية السّكان الأصليين أي المواطنين، أو أصحاب البلاد، ومن ذلك ما تواجهه أم سعد أثناء عملها في تنظيف عمارة في لبنان، حيث تجد امرأة لبنانية تزاحمها على غسل الأدراج في إحدى البنايات، ولعل هذا يعد نمطا من التجلي لظاهرة التنازع المعيشي)النموذج الاقتصادي (من حيث تهديد اللاجئ للمواطنين الأصليين من حيث أحقيتهم بالعمل، وهو ما يتضح من موقف المرأة التي تعكس هذا الإحساس بشيء من الخجل، ولهذا تبكي أم سعد حيث كانت تعتقد أن هذه المرأة من

المخيم، ولكنها تفاجأ حين تعلم بأنها ل بنانية:

«ومنين الأخت بلا صغرة؟

أنا من الجنوب.

فلسطينيّة؟

لأ لبنانية من الجنوب.

ومسحت أم سعد راحتيها المبللتين بالماء بردائها، ثم أخذت تنزل كميها المشمرين، وتنظر حولها .ثم قالت :يختي، والله لم أكن أعرف، ولم يقولوا لي ..خذي اشطفي بقية الدرج، الله يقطع هالبناية وصحابها .»

ما تبقى لكم

في رواية « ما تبقى لكم» نعرّج على حالة الشّتات بوصفها فعل إجراء مؤقت للحياة، فليس هنالك من راغب في الزواج قبل أن يجمع شمل عائلته التي تشتت، فالحياة تضيع بضياع يافا من وجهة نظر» حامد»

–إحدى شخصيات الرّواية -كما هي »مريم »التي فضلت الزواج من» زكريا»، وهنا نرى أبعادا دلالية تتصل بالوفاء، كما رفض الخيانة، والدعوة للمقاومة، فحامد الذي يسعى للقاء أمه في الأردن، يبحث عن نموذج لتقويض شتاته، إذ يعود مرة أخرى لاستعادة لحظة النفي والتشريد، وركوب الزوارق، ولهذا فقد وافق على زواج أخته من ذلك) العار (من منطلق أنه قد عرف أنه لن يعود، وهنا نقرأ نبوءة، وإدانة للمنظور المستقبلي القائم على فكرة التخلي عن المقاومة كما نعاينها الآن، وهكذا نستنتج بأن المقاومة هي نهج الكتابات الأولى التي تتعلق بالشّتات، وهي ذات ملامح وحساسية

مختلفة عن تلك الأعمال التي كتبت بعد عقود« :عندها عرف فقط أنه لن يعود، وبعيدا وراءه غابت غزة في ليلها العادي، غابت مدرسته، ثم غاب بيته، وانطوى الشاطئ الفضي متراجعا إلى قلب الظلام .»

مما لا يرقى إليه شك في أن غسان كنفاني في رواياته عامة، يدرك ما للشتات من تداعيات خطيرة على القضية الفلسطينيّة، والنضال، ولهذا فإن مصائر شخصياته في الشّتات يحكمها منظور كئيب، مرفوض، بل إن الطريق إلى الشّتات محكوم بالموت، كما كان من مصائر شخصيات رواية« رجال في الشمس» حيث لا اكتمال منهجي لتحقق الشّتات، فهو مرفوض، ويجب أن يجهض في مهده، وأي محاولات للبحث عن نموذج حياتي بديل، لا يحتكم

لوجهة فلسطين فإن مصيره سيكون الفناء، وهنا نقع على قيمة أيديولوجية عميقة في التكوينات المؤسسة للمروية الشّتاتية من منظور غسان كنفاني، وهي تصلح لأن تعيد فهم خطاب الشتات، وتحوله في الرواية الفلسطينية المعاصرة

التي بدت واقعة في مجال بيني قوامها تلك النزعة للرفض والمقاومة، والتشبث بحق العودة، بالإضافة إلى كتابة تتسم بواقعية السياقات التي وجد الفلسطينيون أنفسهم فيها، وبالتحديد في أوطان بديلة طال بقاؤهم فيها، ونتج عن ذلك إشكاليات جديدة تختبرها الأجيال المعاصرة التي هيمن عليها فعل التذكر، وتخصيص متن سردي كبير لهذه الأوطان، مع تراجع واضح لصيغ المقاومة الشرسة« الصريحة» على المستوى الحكائي، واللغوي..

تهجير ولجوء

ولد الشهيد غسان كنفاني في عكا، شمال فلسطين، في التاسع من نيسان عام 1936م، وعاش في يافا حتى أيار 1948 حين أجبر على اللجوء مع عائلته في بادئ الأمر إلى لبنان ثم إلى سوريا. عاش وعمل في دمشق ثم في الكويت وبعد ذلك في بيروت منذ 1960 وفي تموز 1972، استشهد في بيروت مع ابنة أخته لميس في انفجار سيارة مفخخة على أيدي عملاء إسرائيليين. أصدر غسان كنفاني حتى تاريخ وفاته المبكّر ثمانية عشر كتاباً، وكتب مئات المقالات والدراسات في الثقافة والسياسة وكفاح الشعب الفلسطيني. في

أعقاب اغتياله تمّت إعادة نشر جميع مؤلفاته بالعربية، في طبعات عديدة. وجمعت رواياته وقصصه القصيرة ومسرحياته ومقالاته ونشرت في أربعة مجلدات. وتُرجمت معظم أعمال غسان الأدبية إلى سبع عشرة لغة ونُشرت في أكثر من 20 بلداً.

محمود درويش: لدى قراءة كنفاني اليوم نكتشف، أولاً ودائماً، أنه في عمق وعيه كان يدرك أن الثقافة أصل من عدة أصول للسياسة، وأنه ما من مشروع سياسي دون مشروع ثقافي. لعل المسعى الأهم لبحوث كنفاني الأدبية هو ذلك المتمثل في ترسيخ أسس ولادة الفلسطيني الجديد، لجهة التأني عن الإنسان المجرد والفلسطيني المجرد والاقتراب من الإنسان الفلسطيني الذي يعي أسباب نكبته

ويدرك أحوال العالم العربي ويعرف أكثر ماهية الصهيوني الذي يواجهه. وهذه المهمة لا تستطيع أن تقوم بها إلا ثقافة في مفهومها النقدي، المتجاوز لما هو سائد، الذي يقطع مع القيم البالية.

نجوان درويش: تبرز مكانة غسان كنفاني في كونه السارد الفلسطيني لمرحلة التهجير واللجوء، وتشكُّل سؤال المقاومة الفلسطينية الذي تجاوز خطاب التفجع والبكاء وانتظار الإغاثة. فكنفاني هو أيضاً كاتب تجربته الشخصية التي تماهت مع التجربة الجمعية إلى درجة يصعب فصل الواحدة عن الأخرى. وهو يشكّل حالةً استثنائيةً في اقترابه المباشر من حرارة التجربة وكتابتها، من دون أن تحترق أجنحة الفنّ في كتابته.

أنطون شلحت: مسيرة غسان كنفاني في الصحافة، تكاد توازي حضوره الإبداعي وتفوقه غزارة. لفت الأنظار في الكويت بتعليق كان يوقّعه (أبو العز)، وكان نشر مقالاته الأولى في (الرأي) في دمشق. كتب في الأدب والنقد، لكن مقالاته السياسية هي التي أثارت الاهتمام الأكبر.

بيار أبي صعب: لم يعش سوى 36 سنة. لكننا إذا نظرنا إلى كتاباته الروائية والقصصية والمسرحية والنقدية، إضافة إلى عمله كباحث وسياسي ومؤرخ وصحافي ورسام، نحسب أننا أمام كتيبة من المؤلفين، وليس كاتباً فرداً. إن

غسان كنفاني يترك لنا صورة كاتب واظب على الكتابة طوال حياته التي كان يستشعر ربّما أنها ستكون قصيرة. لا بد أن هذا الرجل تخلّى عن النوم والعطلات والسفر واللهو، ووهب حياته كلها للكتابة وحدها... وإلا كيف يمكن تصديق عدد كتبه، وعدد الأسماء المستعارة التي كتب بها. لا بد أن صاحب «عائد إلى حيفا» وجد وصفة سرية لمضاعفة سنوات عمره من دون أن يتغير عددها، ليتمكن من إنجاز كل هذه الأعمال. حسين بن حمزة: كانت حياته القصيرة وإبداعه أقرب إلى عاصفة من القدرة على التعبير عن الكرامة والوطن خرجت من مخيمات نكبة 1948، وحملت معها إلى العالم كله صورة تلك المخيمات وقضية شعب سدت أمامه كل الأبواب ولم يبق له سوى دخول التاريخ برأس ثابت كالرمح، لأن الوطن لا يستبدل بشيء آخر أيا كان.

أحمد الخميسي: كان غسان كنفاني في حياته القصيرة، أنموذجاً طافحاً لحالة الشغف. نستطيع الانتهاء إلى هذا الاستنتاج من خلال العديد من التفاصيل المتفرقة، التي نلتقطها في الحياة اليومية لغسان، كما من ذلك التناثر الجميل على العديد من الأنساق الإبداعية التي جرَّبها، من القصة القصيرة، إلى الرواية، إلى المسرح، إلى الفن التشكيلي، وربما الشعر... ومن البحث والدراسة، إلى النقد الأدبي، إلى الكتابة الصحفية والتحليل السياسي، إلى الكتابة الساخرة.

بشار إبراهيم: كان اللون والخط بداية عطائه الذاتي ولكنه وجد أن الكلمة أكثر التصاقاً

بالفكرة وأكثر تعبيراً عنها فاستخدم الكلمة في مجال القصة القصيرة والرواية والمسرحية والدراسة والمقال السياسي فقد كان أول من تعرض لدراسة الأدب الصهيوني دراسة علمية وافية.

داوود يعقوب : لقد تعمد غسان بمطر يافا، وحين غادرها كان مطرها قد اخترق جلده إلى الأبد وصار من بعض دورته الدموية... وكان النسيان مستحيلاً. وكان غسان منذ البداية يتقن استعمال قلمه وسكينه معاً، ويؤمن بهما معاً. .. أرى غسان دائماً: رجل قلمه من الناحية الثانية مشرط قاطع، إنه الرجل الذي لا يحجم عن استعمال السلاح المناسب في الوقت المناسب، طرف القلم وطرف المشرط، وبوسعه: (أن يصنع الحياة بمشرط جارح).

غادة السمان: سأحاول أن أنبش وهج رسائله إلى غادة السمان، لا بوصفها فضيحةً معلنةً، كما أرادها حملة السيوف، بل من باب أنّ هذه الرسائل نصوص عشق متوحّشة. فالمناضل الجيد عاشق جيد بالضرورة. كنفاني كما تكشف عنه سطوره في الرسائل يكتب نصاً متوهّجاً من دون أقنعة. ولعله في مثل هذه الاعترافات تكمن خصوصية كنفاني، فهي إضافة أصيلة إلى نصه الآخر، النص الثوري والمقاوم. .. الرسائل نصوص نادرة كم نحتاج إليها في مكتبة فقيرة، بعيداً من نصاعة الزيف الأدبي الذي تغرق به رفوف المكتبة العربية والفلسطينية، بعدما ضاقت بالصراخ والديناميت الفاسد.

يوميات جائع

د. بشير أحمد أبو أصبع
كاتب وأديب من اليمن

الكلمات... كانت رفيقتي الوحيدة.
الآن، حتى هي تتضور جوعًا.
اليوم الأول... أو العاشر؟
فقد الزمن نبضه، وتحوّل إلى خفقة بطيئة في شراييني،
خائنة... تذكّرني بما تبقّى منّي.
كانت يدي ترتعش فوق الورقة الخاوية.
القلم ثقيل كصخرة.
والحبر... يتدفق بتردّد مريب، كأنّه يحتضر.
«يوميات جائع»
كتبتها بخط مائل كجثة ملتوية، ثم توقفت.
الكلمات تهرب.
تفرّ من رأسي كأسراب مذعورة،
تترك فراغًا صاخبًا...
صدى قهقهات لا أدري أهي مني،
أم من الجدران التي بدأت تتنفس؟
النافذة...
شقّ ضيق في الجدار،
لا تكشف إلا عن لون رمادي باهت،
وشريط سماوي نحيل، لا يُرينا الشمس، بل يلمّح لها فقط.
بالأمس... أو الشهر الماضي، لا أدري
كنت أرى بستانًا، تفاحًا ناضجًا، عنبًا يتدلّى.
كنت أغمض عيني... أتذوقه.
لكنني حين أفتحها،
أجد الجدار يسخر من جوعي.
أصوات.
طقطقة...
ربما لأوراق تسقط خلف الجدار.
ربما ضحكات الأشجار التي شبعت.
أقسم أنني أسمعها.

جسدي... خريطة نَحْتَها العظم.
كل ضلع حكاية.
كل مفصل أنين.
أصابعي — التي كانت ترقص على لوحة المفاتيح —
أصبحت أغصانًا جافة،
تئن مع كل ارتعاشة.
الألم... لا ينام.
يتنقل من خلية لأخرى كمتسوّل يوقظ الأرصفة.
كتبت عن الجوع.
عن الفقر، عن المقهورين.
ظننت أنني كنت أكتب جيدًا.
يا للسخرية...
الآن الجوع يكتبني.
كل رعشة... فصل.
كل نبضة... عنوان فرعي.
كل هلوسة... مجاز جائع.
على الحائط، علامات محفورة بأظافري.
ليست أيامًا، بل كدمات زمن.
يومٌ قرعت فيه الريح النافذة كأنها رسالة.
يومٌ سقط فيه القلم على الأرض، ولم يرفع.
يومٌ حاولت أن أكتب: «خبز».
الخبز...
كلمة من خمسة أحرف، لكنني رأيتها كجبل.
رائحتها...
قشرتها...
دفؤها بين اليدين...
تخيلت طراوتها،
لكنني حين بلعت لعابي، وجدت فمي يابسًا كرماد.
رأيت على الأرض قطعة خبز.
كأنها حقيقة.
زحفت.
بقاياي تزحف...
وحين اقتربت،
تحوّلت الخبزة إلى حجر
سقط على صدري.
هلوسات؟
ربما.
وجوه،
امرأة تبتسم.
ضحكات أطفال...
ثم تتشوه الصور،
وتصبح كائنات تتهامس بلغات لا أفهمها.
طرق على الباب.
لا! ليس طرقًا...
إنه صوت مذياعٍ خافت من بعيد.
«... موجات برد تجتاح البلاد... ارتفاع في معدلات الفقد... تقارير عن كاتب مختفٍ منذ أيام...»
أدرت رأسي ببطء نحو الباب.
سقط القلم من يدي.
تدحرج كمن يهرب.
يرفض أن يوقّع على هذه النهاية.
ثم...
انفتح الباب على صرير ثقيل.
يد، لا وجه.
تحمل طبقًا من الخبز الطازج،
تتقدمه رائحة دافئة.
اقتربتُ — لا أدري كيف —
أمسكت الطبق بشراسة.
لكن اليد سحبته ببطء.
كأنها تختبر ذُلّي.
سقطت ورقة صغيرة.
بصعوبة، فتحتها.
كانت بخط أنيق، مرتب، بارد:
«شكرًا لك على هذه اليوميات.
لقد كانت مصدر إلهام رائع لروايتي الأخيرة.
أصبحتُ ثريًا بفضلك.
تفضل هذا الخبز...
مكافأة لك، على أنقاض روايتك.»
الصمت عاد.
لكن الآن، لا يصرخ.
بل يضحك

صوت (الأنثى) في الأدب الفلسطيني مقاومة ناعمة وجبهة صُلبة (2)

تماضر سعيد عودة - صحفية فلسطينية

تناولنا في الجزء السابق تحولات الوطن والشتات في أدب المرأة الفلسطينية، ونتابع في هذا الجزء تسليط الضوء على نتاج الكاتبات الفلسطينيات بعد توقيع اتفاقيات أوسلو (1993) حتى اللحظة الراهنة. فمنذ اتفاق أوسلو، وجدت الكاتبة الفلسطينية نفسها في مواجهة معقدة: بين حلم الدولة المعلّق، وواقع الانقسام، واستمرار الاحتلال بأشكال متعددة، وفي هذا السياق، لم يصمت الأدب النسوي، بل تطوّر واتّسع، ليشمل أسئلة الهوية، والحرية، والعدالة الاجتماعية، وتقاطعات القمع السياسي مع القهر الجندري.

أصبحت الكاتبة صوتاً ناقداً للسلطة، وكاشفاً للخذلان، ومجدداً لخطاب المقاومة. ظهرت نصوص أكثر جرأة، وأكثر التصاقاً بتفاصيل الجسد والذاكرة، تنبش المسكوت عنه، وتعيد كتابة فلسطين من زاوية الأنثى التي لا تُقصى، بل تصنع لغتها وسردها، بوعي سياسي وجمالي جديد. إنه أدب يكتب المستقبل، لا بوعد زائف، بل بحقيقة التجربة النسوية الحيّة.

سوزان أبو الهوى

ولدت في الكويت لعائلة لاجئة من القدس، هاجرت إلى أمريكا. ومن أشهر أعمالها: رُفقة الغرباء (Mornings in Jenin)، Against the Loveless World

وهو سرد بالإنجليزية، عاطفي وقوي، يرصد الذاكرة الفلسطينية. كما أسهمت في نقل القضية الفلسطينية إلى الجمهور الغربي بقوة ناعمة..

نجوى بركات

لبنانية فلسطينية، كاتبة ومخرجة. ومن أشهر رواياتها: يا سلام - حياة وآلام حمد بن سيلانة. تطرح نقداً ثقافياً، بأسلوب رمزي، فلسفي، ساخر، وقد أثرت في تيار الرواية النسوية المتجاوزة للتقاليد.

رشا عباسي

من فلسطينيي الداخل، تنشر بالعربية والعبرية. ومن أعمالها: قصص وشهادات نسوية. تتبع أسلوب السرد الذاتي الحميم الذي يحمل نقداً للمجتمع والاحتلال معاً، وتمثل تجربة فلسطينية محاطة بثلاثية الاحتلال، الهوية، والتمييز.

أدب المنفى الجديد في أوروبا والولايات المتحدة:

سوزان عبد الله: تتناول في أعمالها صدمة الهوية في أوروبا.

رلى الخالدي: تكتب بالإنجليزية والعربية عن الجذور والنفي، مع تنويع الأشكال (رواية، شعر، تدوينات رقمية، بودكاست). وفي كتاباتها نقد للسلطة السياسية والمجتمعية في تناول جريء لقضايا مثل: الجندر، الجسد، العائلة، الدين، الاحتلال، المنفى، اللاجئ الرقمي.

الأديبة الفلسطينية في الداخل (الضفة وغزة والـ48)

في قلب الجرح، حيث الحصار والجدار والتمييز، تكتب الأديبة الفلسطينية من الضفة وغزة والـ48 صوتها المختلف والموحَّد في آنٍ معاً. من غزة التي تقاوم الحياة تحت القصف، إلى الضفة المحاصرة بالحواجز، إلى الداخل الفلسطيني الذي يصارع محو الهوية، برزت أقلام نسوية تحمل خصوصية المكان، وتعكس صراع الانتماء والبقاء.

هذه الكاتبة لا تكتب من هامش، بل من مواجهة يومية مع الاحتلال والسياسات العنصرية والواقع المجتمعي المعقّد. ومع كل نصّ، تُعيد تشكيل الوعي، وتكسر الثنائية بين الخاص والعام، لتؤكد أن التجربة النسوية الفلسطينية متعددة، لكنها متجذرة في نَفَس واحد: الدفاع عن الكرامة، والكتابة كفعل وجود.

ميسون سويدان

كويتية فلسطينية، شاعرة، جمعت بين التصوف والوجدان الفلسطيني، درست الفلسفة والتصوف. ومن أبرز أعمالها: كي أراك - لا شيء عندي أخسره. تكتب بأسلوب شعري رقيق وصوفي الطابع، وتقدم خطاباً أنثوياً روحياً مختلفاً عن تيار المقاومة المباشر.

هدى الشوا

متخصصة في أدب الطفل، من غزة. ومن أعمالها: نادية والبطريق - تاريخ في الحكاية. أسلوبها تربوي ممتع، وأسهمت في ترسيخ أدب الطفل الفلسطيني كأداة مقاومة تربوية.

غادة أبو لبن: تستخدم الشعر النثري كأداة لمساءلة الواقع السياسي.

د. نادرة شلهوب: تكتب عن المرأة العربية في داخل أراضي الـ48.

سعاد العامري: معمارية وكاتبة، عاشت في رام الله. ومن أعمالها: شارون وحماتي - دمشقيات. أسلوبها ساخر، يومياتي، توثيقي. استخدمت اليوميات كأداة لكشف التناقضات في الحياة الفلسطينية المعاصرة.

د. سامية عيسى: باحثة وروائية مهمّة في تفكيك خطاب السلطة.

من خلال ما تقدّم من إضاءات سريعة، يبدو جلياً أن المرأة الفلسطينية لم تكتب الشعر لأنها تحب الزهور فقط، بل لأن البنادق وحدها لا تفي بوعد الحياة. كتبتْ كيلا تنكسر، وكي تكون شاهدة على الأرض حين تُسلب، وعلى الجسد حين يُصادر، وعلى الحكاية حين تُطمَس. والأدب بالنسبة لها ليس ترفاً، بل مقاومة ناعمة، وجبهة صلبة تنبت من رحم الخسارات اليومية. في كل نصّ تخيطُ وجعها بخيط اللغة، وتُخبئ الحنين في جملةٍ تشبه دقات قلبها حين يمرّ اسم الوطن.

لم تنفصل الكاتبات الفلسطينيات عن تاريخهن، بل نقشْنَه على أوراقهن بحبر من صبر. وحملنَ معاناة شعبهن، وامتداد المنفى، وصورة الأم الأسيرة، والطفل الشهيد، ونسجنَ منها أدباً لا يرضى أن يكون صوتاً تابعاً. ففي حضرة الاحتلال، يصبح القلم فعل تحدٍّ، وتصبح الكلمة حصناً أخيراً لا يُقصف، ويمسي الحرف يداً ترفع ذاكرة الأرض من تحت الركام..

الحداثة في فكر
فرنسيس مراش

د. سامي الشّيخ محمّد ـ أكاديمي فلسطيني من سورية

من هو فرنسيس مراش؟

مفكّرٌ اجتماعيٌّ وسياسيٌّ ولدَ في حلب، سنة 1836 م، من أصلٍ نبيل، درس الطّبّ في فرنسا، فقدَ بصرهُ في سنّ صغير، لم يحُل تشاؤمه دون إيمانهِ بالانتصار النّهائي للعدالة والحريّة والمساواة الاجتماعيّة، وانتصار العقل. في كتابهِ (غابة الحقّ) الصّادر في بيروت سنة 1866 م، يُروّج لأفكار المنوّرين الفرنسيّين وبشكلٍ خاص روسّو، ويدعو للمحبة الشّاملة، وفي كتابه (مشهد الأحوال) يظهر اعتناقه (نظريّة النّور الطّبيعيّة) الّتي نجم عنها اتّهامه بالتّجديف على الكتاب المقدّس والخروج عليه، أبرز مقالاته: (شهادة الطّبيعة في وجود الله والشّريعة، حلب 1861 م)، (رحلة باريس بيروت 1867 م) ، (العرب والإفرنج، في مطلع السّبعينات)، (سياحة العقل، مجلّة الجنان 15نيسان 1871م)، أهمّ الصّحف الّتي كتب فيها : «الجنان»، « النّحلة « و»الجوائب»، توفّي في السّابعة والثّلاثين من عمره سنة 1873م . (للمزيد انظر، ز.ل .ليفين، الفكر الاجتماعي والسّياسي الحديث في لبنان وسوريا ومصر، ترجمة بشير السّباعي، دار ابن خلدون، بيروت ،1978 ، ص66. وباروت، جمال، حركة التّنوير العربيّة في القرن التّاسع عشر، وزارة الثّقافة، دمشق، 1994، ص 63_ ص102).

بلا شكّ يُعدُّ فرنسيس أفندي فتح الله مراش أحد أهمّ أقطاب التّنوير والحداثة في الفكر العربيّ الحديث دون منازع. فالقضايا والموضوعات الّتي تمحورَ فكرهُ حولها لا تزال تحتفظ بحضورٍ قويٍّ في الحياة الفكريّة والسّياسيّة العربيّة في أيّامنا هذه. حتّى يخال المرء أنّ فرنسيس مراش ليس ابن القرن التّاسع عشر بل ابن لحظتنا التّاريخيّة الرّاهنةِ بكلّ ما تحمله الكلمةُ من معنى، فرغم رحيله عنّا قبل مئة وإحدى وثلاثين سنة. لا تزال الدّعوة للمُعاصرة والحداثة، والانفتاح على المدنيّة والثّقافة العالميّة، والتّغيير، والحرّيّة، والدّيمقراطيّة، والمواطنة، والمساواة، والدّولة الدّستوريّة المجتمعيّة، وسيادة القانون، أبرز ما يستحوذ على اهتمام المفكّرين العرب اليوم، ولا غرو أن تتطابق رؤى وأفكار كِبار المفكّرين العرب في زماننا مع رؤية مراش في العصر الحديث، طالما أنّ المجتمع العربيّ لم يُفلِح في تجاوز وحلّ المشكلات الأساسيّة الّتي يُكابِدُها منذ عدّةِ قرون إلى يومنا هذا .

اللاّفتُ أنّ يجهرَ فرنسيس مراش بآرائهِ التّنويريّة الحداثيّة في ظلّ سيطرةٍ عثمانيّةٍ مستبدّة على الوطن العربيّ، في وقتٍ لا يجرؤ قسمٌ كبيرٌ من مُفكّري هذهِ الأيّام أن يجهر بآراءٍ مُماثلة في مُعظَم البلدان

العربيّة خشية إغضاب السّلطات الحاكمة فيها. فالدّعوةُ للحداثة، والحريّة والدّيمقراطيّة والعدالة والمساواة وحقوق الإنسان، وسيادة القانون وبناء الدّولة المجتمعيّة دولة المؤسّسات، لا تزال ثقيلةَ الوطء على مسمع النّظام السّياسيّ في كثيرٍ من الأقطار العربيّة .

• جدل الأصالة والحداثة والتّغيير:

لم ينكر فرنسيس فتح الله مراش العودة للماضي بقصد الإفادة من لحظات التّقدّم والرّقيّ الأخلاقيّ الفارقة فيه. لكنّ العودة للماضي ليست عودةً أبديّةً تحول دون اتّصالنا بالحاضر والمنجزات الحضاريّة فيه، فالمنجزات الحضاريّة المعاصرة خيرٌ من المنجزات الغابرة، وليس صحيحاً أنّ خير الأزمنة هي الأزمنة الماضية وأنّ ما تحقّق في الماضي أفضل ممّا تحقّقه البشريّة في الحاضر، فالتّهذيب على مرّ العصور والقرون

كان مقتصراً على عددٍ محدودٍ من الأفراد، تهذيبٌ لم يُسهمُ عامّةُ النّاس في إنتاجهِ أو الانتفاع منهُ، تهذيبُ نخبةٍ وحسب، أمّا التّهذيب الّذي أحرزهُ القرن التّاسع عشر بلغ حدّاً لافتاً من الرّقيّ والكمال بفعل المنجزات المدنيّة الحضاريّة المتحقّقة فيه، وبشكلٍ خاص تقدّم الثّقافة والمعارف والعلوم الإنسانيّة على نطاقٍ واسع بين النّاس بفعل كثرة انتشار الجرائد وتداولها والاطّلاع على الموضوعات والأخبار الّتي تنطوي عليها، والّتي بات اقتناؤها أمراً يسير المنال بين عامّة النّاس وخاصّتِهم . لقد أيقن فرنسيس فتح الله مرّاش ضرورة أهميّة التّواصل الثّقافيّ بين الأمم ومعرفة أحوالِها، ومقدار التّقدّم الّذي تحقّق في القرن الّذي ينحدر منه، بحيث تجاوز كلّ ما أحرزته القرون الماضية، فخير الأزمنة والقرون هو الزّمان الّذي ينتسب إليه ـ (القرن التّاسع عشر) ـ وهو بهذا يُجسّد الوعي الحداثيّ والانفتاح على الثّقافة العالميّة بأوضح معانيهِ وأبهى صوره: « قوموا بنا يا معشر بني العرب إلى امتطاء جواد التّاريخ فيهبّ إلى ميادين الإعصار والقرون الغابرة. وينتهي بنا إلى أقاصي قدمية الزّمان. حتّى إذا ما سلكنا كلّ عصرٍ غابرٍ وقطعنا كلَّ جيلٍ دابرٍ يُمكننا حينئذٍ أن نعرف مقدار كلّ تهذيبٍ مضى مع زمانهِ وما هي نسبتهُ إلى مقدار تهذيب عصرنا هذا ومن ثمَّ فلا نلبث أن نحكم بعد البحث الدّقيق بأنَّ نسبة كلّ تلك الأزمان إلى زماننا الحاضر هي كنسبة سائر الحيوانات إلى الإنسان... هذا وإنّنا نرى أنَّ تهذيب كلّ قرنٍ كان مقتصراً على الأفراد ومعدوماً على العموم. فإلى أيّ الأسباب ننسب شدّة فروق التّهذيب وشيوعه بين العموم في هذا الزّمان الّذي نحن فيه... لا ننكر على المطابع فضلها بكونها سبباً أصليّاً للسّبب الّذي عليه المعوّل وهو نشر الجرائد على العموم. فلا ريب أنَّ هذا هو السّبب الوحيد الّذي رفعَ هذا القرن إلى شأو كمال التّهذيب، ولا نقول إنّ الجرائد لم تكن معروفةً قبل هذا القرن. ولكنّنا نقول إنّها لم تأخذ تمام الشّيوع والانتشار إلاَّ فيه... فهلمّوا يا بني الوطن إلى مشتري هذهِ الجرائد الّتي تمدّكم بفنون الأدب والتّهذيب وتهديكم روح العلم والمعرفة بأحوال أرضكم وبلادِكُم وتجارتِكُم وكلِّ أعمالِكُم وأشغالِكُم واعلموا أنَّ مشتري صحف الأخبار هو واجبٌ على كلّ إنسان لهُ تعلّقٌ بعالمه وحبٌّ لمعالمه... من الواجب على كلّ ذي بصيرةٍ أن يتنوّر بقراءَتها ويحيا بتلاوتها. وإلاَّ فيكون مثلهُ مثل خلدٍ لا يرى شيئاً تحت السّماء. أو ميّت لا يشعر بشيء.» (مراش، فرنسيس، (الجنان)، المجلّد الأوّل، السّنة الأولى، الجزء الخامس، 11 آذار 1871 ص 157- 159) وباروت، جمال، حركة التّنوير العربيّة في القرن التّاسع عشر، وزارة الثّقافة ، دمشق، 1994، ص 177،178، 179(.

• الحريّة المقيّدة :

الحريّة الّتي يؤمن بها فرنسيس مراش ويدعو إلى وجودها في المجتمع، هي الحريّة الّتي تخضع لقوانينٍ متمدّنة متقدّمة، حريّةٌ أخلاقيّةٌ ملتزمةٌ واعيةٌ رشيدةٌ، تصونُ حريّة الآخر، فتنظرُ إليهِ وتتعامل معه، نظرتها لذاتها وتعامُلِها مع نفسها، غير منفلتة، مقيّدة بقيود نافعة فحسب، أمّا كلّ قيدٍ غيرِ ضروريّ حولها ينبغي كسره وإزالتهُ بالكامل، إنَّ القول بالحريّة المُقيّدة لا يعني الانتقاص من قيمتها، فطالما يعيش الإنسان في اجتماعٍ إنسانيٍّ مدنيٍّ، في ظلّ دولة متمدّنة دستوريّة تخضع لسيادة قوانين متقدّمة ترعى مصالح الأفراد والمجتمع وتصونها، يتعيّن عليهِ احترام أفراد هذا الاجتماع وعدم النّيل منهم ومن حريّاتهم بذريعة أنّهُ حرّ، فهذا النّوع من الحريّة غير مشروعٍ من النّاحية الواقعيّة العمليّة، والاجتماعية الأخلاقيّة، من هنا فإنَّ تخلّي المرء عن جزءٍ من حرّيّتهِ لصالح الآخرين لا يعني أيّ نقصٍ في حريّته الّتي يستحقّها، فبمقدار الجزء الّذي يتخلّى عنهُ لصالح الآخرين، يكسبُ جزءاً مساوياً يتخلّى الآخرون عنه لمصلحته شخصيّاً. وبهذا يكون قيد الحريّة مستمدّاً من صميم الحريّة ذاتها» الحريّة المقيّدة بالحريّة»: «لقد توصّلنا إلى استنتاج أنَّ الحريّة غير المقيّدة شيء لا يمكن بلوغه، وأنَّ كلَّ شيء في حالة تفاعل، إنّما يُقيّد بعضه البعض الآخر في آنٍ واحد. إلاَّ أنّهُ عندما لا يترتّبُ على قيدٍ كهذا أيّ نفع، أو عندما يُعرقل إقامة ووجود نظام سليم، فهو لا يكون غير ضروريّ وحسب، وإنّما لابدّ من إزالته... والفكرة القائلة بالعيش على انفراد، والتّمتّع بحريّة مطلقة وغير مقيّدة، هي فكرةٌ غير طبيعيّة. ولا يمكن تحقيقها، إن لم تعتبر في حالات منفردة استثناءً لا قاعدة. وعلى العكس من ذلك، فعندما يخضع الإنسان لقوانين دولة متمدّنة ومتقدّمة، فإنَّ خضوعه لا يكون تخلّياً عن الحريّة بل إثباتاً للحرّيّة «(الفكر الاجتماعي والسّياسي الحديث في لبنان وسوريا ومصر، ص66 .(

• المساواة القانونيّة:

النّاس مُتساوون في الحقوق والواجبات، من النّاحيتين السّياسيّة والقانونيّة، بغضّ النّظر عن المنبت الاجتماعي الاقتصاديّ لأيٍّ منهم، الأثرياء والفقراء ينبغي أن يحظوا بالمساواة الكاملة في التّرشّح والانتخاب، فإنَّ الأثرياء رغم ثرائهم يُشَكّلون الجزء الأصغر من أفرَاد الشّعب، ولا يستطيع هذا الجزء الانفراد في قيادة الدّولة وتوفير القوة والمنعة لها بذاته، أمّا الجزء الأكبر من الشّعب فهم الفقراء الّذين بهم تستقيم الحياة وتتشكّل الدّولة القادرة على الاضطّلاع

بعمليّة النّهوض والتّقدّم، الفقراء هم المزارعون والصّناع والعُمّار والمبدعون والموظّفون والجنود الّذين يذودون عن حمى الوطن والدّولة بمُهَجهم ودمائِهم وأرواحِهم ، فيصونون ثَراهُ وحماه . نعم يتعيّن على الأثرياء عدم الاستهانة بأفراد الشّعب من الفقراء، لأنّه فضلاً عمّا قيل فيهم وفي الدّور الّذي يضطّلعون به في بناء البلاد ورفعتها، فإنَّ قسماً كبيراً من الثّروة الّتي يحوزُها الأغنياء هم السّبب الرّئيس في الانتهاء إليها .

« لماذا يتمتّع بحقّ التّصويت في المجالس السّياسيّة الأغنياء وحدهم، أمّا بقيّة النّاس، الّذين يُشكّلون الجزء الأكبر والأهمّ من الشّعب فيحرمون منه، مع أنّهُ عليهم بالتّحديد يتوقّف جبروت الدّولة وقوّة الملك، ومن خلالِهِم يمرّ محور السّياسة كلّها ؟».

(المرجع نفسه ، ص 67).

• دولة المواطنة :

رغم أنَّ وعي فرنسيس مراش نتاج القرن التّاسع عشر، إلاَّ أنّهُ يُمثِّلُ لحظةً فارقة في منظومة الوعي السّائد في تلك الفترة، لحظةً اتّسمت بالفرادة والتميّز بالمعنى الدّقيق للكلمة، إذ جعل من المواطنة مبدأً أساسيّاً لقيام الدّولة، فالوطن للجميع بغضّ النّظر عن المنبت الاجتماعيّ والاختلاف والتّنوع بين أفراده دون استثناء، فالعدالة والمساواة بين أبناء الوطن الواحد في ظلّ سيادة القانون، من أهمّ الرّوابط الّتي تحقّق وحدة المجتمع وقوّتهِ ومَنَعَتِه. فأكثر الأشياء أهميّة في سياسة الدّولة - من وجهة نظر فرنسيس فتح الله مراش يكمن في «سريان قوانين (الدّولة) بدرجةٍ واحدة على كلّ المواطنين دون أدنى تفرقة بينهم، ودون اعتبارٍ للفارق في الوضع... وينبغي التّعاملُ مع الجميع بشكلٍ متكافئ، حتّى لا يُنتهك نظام القانون .

وإذا كان الزّعماء الميسورون قوّة موحّدة، فالصّغار والفقراء موجّهون لهذه القوّة... إذ لولا الإنسان الصّغير لما كان بوسع الكبير أن يفعل أيّ شيء. ولولا كدح الفقراء، لما تمتّع الأغنياء بالخيرات، ولما صان أحد ثرواتهم، ولما شيّد لهم أحد قصوراً مشيّدة...». (المرجع نفسه ، ص 67).

• مهمّة النّظام السّياسي :

تتحدّدُ مهمّة النّظام السّياسيّ عند مراش في الوقوف على مصالح المواطنين والسّهر على مصالِحِهِم، بمقتضى العقد الّذي أبرمهُ مع الهيئة الاجتماعيّة المنتجة له، وأيّ محاولةٍ من جانب النّظام السّياسيّ تنتهي بالنّيل من مصالح المجتمع وعدم الالتفات إليها، ينزعُ الشّرعيّة القانونيّة عنه، ويلغي العقد الاجتماعي بينه وبين المجتمع «إنَّ أهمّ دواعي السّياسية وأعظم بواعثها هو النّظر الدّائم إلى الصّالح العام وتواصل السّهر عليه، بحيث مهما أتقنت السّياسة نظامها وأحكمتهُ ولم تلتفت إلى هذا الصّالح أو تغافلت عنه فلا تعتبر إلاّ كمساعد على نثر عقد الهيئة الاجتماعيّة الّذي لا يمكن دوامه منظوماً ما لم تكن الملاحظة السّياسيّة عاصمة له، إذ أنَّ إهمال ما يُسبّب العمار هو تسبيب لوقوع الخراب، وهذه الملاحظة تنحصر جميعها في توقيع ما يؤول نفعهُ إلى العامّة إجمالاً وأفراداً ودفع ما يفضي إلى الضّرر. وذلك يستريح على خمسة أركان، وهي تمهيد سبل العلوم وتسهيل طرائق التّجارة وتقوية وسائط الصّنائع والأشغال ومساعدة الزّراعة والفلاحة وقطع أسباب التّعدّي.»

)خوري، رئيف، الفكر العربي الحديث، تحقيق وتقديم محمد كامل الخطيب، الطّبعة الثّالثة، منشورات وزارة الثّقافة، دمشق،1993،ص 188).

أخيراً تجدر الإشارةُ إلى أنَّ فرنسيس مراش يكاد يكون أوّل منوّر عربي يصوغ نظريّة (العقد الاجتماعي)، و(الحقّ الطّبيعيّ) على نحوٍ مترابط، يخلو الأدب التّنويري العربيّ في القرن التّاسع عشر من مثلها، حسب رأي البعض من دارسي حركة التّنوير العربيّة في القرن التّاسع عشر. (أنظر، حركة التّنوير العربيّة في القرن التّاسع عشر).

الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين
Popular Front for the Liberation of Palestine
وداعاً زياد الرّحباني

وجهٌ آخر لغسّان

مروان عبد العال

بعد ثلاثةٍ وخمسين عامًا على غيابه القسري، لا يزال غسان كنفاني حيًّا فينا، لا بكلماته فقط، بل "بقفشاته" التي أفلتت من بين ركام الحزن والمنفى، الثائر الذي لم ينسَ أن يكون إنسانًا، هذا غسان كنفاني الآخر كما لا يُروى في الكتب؛ وجهاً خفيف الظل، ساخراً، حادّ البديهة، رجلٌ قاتل بالكلمة... ولم ينسَ أن يبتسم.

يضحك بين طلقتين، هي نوادر ليست للضحك فقط، بل يمكن تسميتها بالنّوادر الثقافية الشفهية تُروى في المخيمات، المجالس الثقافية، أو على ألسنة رفاقه، وتحمل روح غسان، حتى وإن لم تُدوّن رسميًا كنوادر سياسية موثقة عن غسان كنفاني، نذكر منها:

1. غسان كنفاني ورفضه للمال مقابل الصمت: عام 1972، قبل استشهاده بفترة قصيرة، تلقّى غسان كنفاني عرضًا "ناعماً" من جهة دبلوماسية غربية، عبر وسيط عربي، كان العرض واضحًا: "ابتعد عن الجبهة الشعبية، قلّل من حدة كتاباتك، ويمكننا أن نساعدك لتؤسس مجلة ثقافية مستقلة بدعم مالي كبير، وتزور أوروبا بحرية، وتمنحك إقامة دائمة" غسان لم يغضب، لم يشتم، بل قال للوسيط بهدوء: "هم يريدون أن أشطب اسمي من فلسطين" مقابل دفتر شيكات؟ إذا كان ثمن الصمت هو الراحة، فأنا أختار القلق، وإذا كان ثمن الكتابة هو الموت، فأنا أوقّع الآن".

المصدر: من لمياء عكاوي، وتم توثيق مضمونها في كتاب "جذور السنديانة الحمراء"، كما أشار إليها أدونيس في تأبينه له.

2. الرصاصة مقابل الحبر؟ نعم" إذا لزم الأمر: في عام 1971، خلال مقابلة مع صحفي أوروبي، سأله الصحفي: "أنت كاتب.. لماذا تدافع عن الكفاح المسلح؟ أليس القلم أقوى من الرصاصة؟"، غسان ابتسم وقال: "نعم، القلم أقوى من الرصاصة.. لكن جرّب أن تكتب قصيدة في مخيم، والرصاصة على بابك، والموت يسرق أطفال الجيران"، وأضاف: "الرصاصة ليست نقيض الكلمة.. الرصاصة قد تكون ظلّها حين تختنق".

المصدر: من أرشيف مقابلاته مع الصحافة الأوروبية، ويمكن العثور عليها في كتاب "غسان كنفاني: الكتابة بالدم" – أنطوان شلحت.

3. غسان والانشقاق الهادئ: في عام 1971، حدث خلاف داخل قيادة الجبهة الشعبية بين جناحين: "جناح يرى أولوية الكفاح المسلح كأداة أولى وأخيرة للنضال الوطني"، جناح أقرب لغسان يرى ضرورة توازن بين الثقافة والتنظيم والعمل الشعبي والمقاومة. أحد القادة الشباب انفجر في اجتماع واتهم غسان بأنه "منظّر برجوازي"، وقال: "أنت تكتب من بيروت، بينما نحن نحمل السلاح!"، ردّ غسان بهدوء: "أنا لا أكتب من بيروت، بل أكتب من تحت جفون اللاجئين.. أنا لا أحمل السلاح، لكنني أحمل المعنى الذي يجعل السلاح ضرورة لا عبثاً"، وأضاف: "إذا انفجر السلاح بلا فكر .. فإن الرصاص الطائش سيوجه إلى صدورنا نحن".

المصدر: شهادة صلاح صلاح، ونشرت في كتاب "غسان كنفاني، ذاكرة المقاومة".

4. غسان ومنديل القُماش: ذات مرة، في إحدى أمسيات بيروت، سألته فتاة شابة من جمهور ندوة أقيمت في مركز ثقافي عن سبب احتفاظه الدائم بمنديل قماشي أبيض في جيب سترته، حتى في أشد أيام الصيف حرارة.. ابتسم غسان للحظة، ثم قال بهدوء أمام الجميع: "هذا المنديل ليس للزينة ولا للمسح.. هذا منديل أمي، كانت تُصرّ أن أعطيه لها كل مساء لتغسله وتكويه، حتى عندما أصبحت كاتبًا تُنشر مقالاتي في الصحف، كانت تقول لي: "أريد أن أُبقيك نظيفًا من غبار العالم، منذ رحيلها، لم أغسل هذا المنديل.. لأنه يحمل رائحتها"

ندرك اليوم أنه قد غاب الجسد، لكن بقيت الفكرة واللمحة والنكتة والحكاية، تضحك حينًا، وتوجع حينًا، لأن غسان لم يكن شخصًا فقط.. بل منهج في رؤية العالم.

AL-HADAF الهدف